

مَوَالِغُ رُؤَاةِ الزَّيْدِيَّةِ

# تفسير الإمام الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الهادي

يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم  
بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن  
بن علي بن أبي طالب عليهم السلام  
(٢٤٥ - ٢٩٨ هـ)

تحقيق

عبد الكريم أحمد جدبان

# حقوق الطبع محفوظة للمحقق

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب - صنعاء

(٤٤٠ / ٢٠١٢م)

التنفيذ الطباعي  
دار الإمام زيد بن علي  
ت (٧٧١٢٢٣٥٧٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





# تفسير سورة غافر





## ومن سورة غافر

(٢٤٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ

أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ... إلى قوله: فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٤٥﴾

[غافر: ١١-١٠] ٩

فقال: معنى ذلك أن الله يخبر عن أهل النار، وما يكون من مقتهم لأنفسهم، ومعنى مقتهم فهو: بغضهم لأنفسهم، وبغضهم لها في ذلك اليوم فهو: على ما تقدم منها من المعاصي، في الدنيا حتى أهلكتهم بذلك في الآخرة، فلما أن صاروا إلى النار بغضوا<sup>(١)</sup> أنفسهم، وتمنوا أنها كانت في التراب هالكة، كما كانت بالية فانية، فنادتهم ملائكة الله عند ذلك، فأخبرتهم أن مقت الله لهم في هذا الوقت أكبر من مقتهم لأنفسهم، فردوا على ملائكة الله ما تسمع من هذا القول، من قولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يقولون: جعلتنا في أصلاب آبائنا ماء مهيناً مواتاً<sup>(٢)</sup>، فهذه الموتة الأولى، ثم أمتنا من بعد الحياة الأولى والإيجاد، فصيرتنا إلى القبور، فهذه اثنتان، وأحييتنا الحياة الأولى، التي جعلتنا في بطون أمهاتنا أجساماً وأرواحاً، من بعد أن كنا نطفة وعلقة ومضغة مواتاً<sup>(٣)</sup> لا حياة فيها، ثم أحييتنا الحياة الثانية، وهي تَشْرُكُ لنا<sup>(٤)</sup> من القبور بعد

(١) كمال الآيات: ﴿... إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا...﴾.

(٢) في (ب): أبغضوا.

(٣) في (ب): أمواتا.

(٤) في (ب): أمواتا.

(٥) في (ب): إيماناً.

الفناء، وإخراجك إيانا بعد الفناء والبلاء من أجدائنا أجساما متجددة أحياء، فهذه الحياتان والميتان، ثم قالوا: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، يقولون: هل إلى رجعة إلى الدنيا من سبيل، فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، إذ قد رأينا وأبصرنا، وعائنا وشاهدنا، واعترفنا بذنوبنا، ومعنى ﴿أَعْتَرَفْنَا﴾ فهو: أقررنا بها، وشهدنا على أنفسنا بما كان منها.

(٢٤٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦٠﴾

[ظاهر: ١٥٠-١٦٠]

فَقَالَ: معنى ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ فهو: ليحذر ما يكون من العقاب في يوم التلاقي، ويوم التلاق فهو: يوم الاجتماع، يوم يلتقي الخلق كلهم إلى موضع واحد، وهو يوم الحشر ويوم الميقات ويوم المعاد<sup>(١)</sup>، معنى ﴿بَرْزُونَ﴾ فهم: ظاهرون غير مستترين بدار ولا جدار، قد برز بعضهم لبعض، وعائين بعضهم بعضا، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، معنى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ هو: لا يخفى على الله من سرائرهم شيء<sup>(٢)</sup> ولا من أفعالهم، ظاهرا كان أو مستترا من أفعالهم، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، يخبر سبحانه أنه يوم قد انقطع فيه ملك كل ملك، وأثر كل متملك، إلا الله سبحانه الواحد القهار، النافذ أمره، الماضي في ذلك اليوم<sup>(٣)</sup> حكمه، المذل في الملوك الجبارين، المعز لأوليائه المؤمنين، ﴿الْوَّاحِدِ﴾ فهو: الذي ليس معه في الحكم في يوم<sup>(٤)</sup> الدين أحد يحكم، ولا يأمر، ﴿الْقَهَّارِ﴾، فهو: الغالب الجبار.

(١) في (أ): المعاد.

(٢) في (ب): لا يخفى على الله شيء، من سرائرهم..

(٣) سقط من (أ): اليوم.

(٤) سقط من (أ): يوم.

٢٤٦) وسألته عن قول الله سبحانه ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ...﴾ إلى قوله: وَمَا تُخْفِي

الصُّدُورُ ﴿١٨-١٩﴾ [غافر: ١٨-١٩] ٢

فقال: الآزفة فهو: الهاجمة الواقعة، السريعة الهجوم والتزول بأهلها، وهي يوم القيامة والساعة الهاجمة على الخلق، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، يقول: من شدة الهول والأمر العظيم الذي يعاينون، قد ارتفعت قلوبهم حتى قاربت حناجرهم، من الفزع المفزع<sup>(١)</sup>، والروع المفظع، ﴿كَنْظِمِينَ﴾ فهو: سكوت كاظمون، والكاظم فهو: الصامت الذي لا ينطق، يقلب عينه ويستمع<sup>(٢)</sup>، لهول ما فيه قد وقع، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾، يقول: ما لهم من ولي ولا قريب ينفعهم، لا طفل في طفولته، ولا أحد مؤمن يتسب الظالمون إليه، يطعمون في ذلك اليوم عنده بمنفعة، ولا يطعم هو لهم بخلاص من النقمة، فهؤلاء هو الحميم، يريد: القريب المناسب، ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾<sup>(٣)</sup>، يقول: ليس في ذلك للظالمين شفيع يجيب الله دعوته، ولا يميز في الظالمين شفاعته، فهذا معنى يطاع، أي: يعطى أمنيته فيهم فيجيب<sup>(٤)</sup>. وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾<sup>(٥)</sup> [الأنبياء: ٢٨].

﴿خَازِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾، معناها: ما تشير به الأعين وتؤمن به، فأخبر سبحانه أنه

(١) كمال الآيتين: ﴿...إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَنْظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾  
﴿يَعْلَمُ خَازِنَةَ الْأَعْيُنِ...﴾.

(٢) في (ب): الفزع الأكبر.

(٣) في (ل): ويسمع.

(٤) في (ل): ويجاب.

يعلم ذلك من الأعين، قبل كونه وقبل كونها به، ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ فهو: غيب الصدور من خفي أمرها ودقيق ضميرها، مما لم يظهر في شيء من الجوارح عنها.  
 (٢٤٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَآلْبَيْتُتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (غافر: ٢٤٧)؟

فقال: المعنى في ذلك: أن الله أخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بخبر هؤلاء، الذي جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا بها وفرحوا بما عندهم من العلم، والعلم الذي فرحوا به فهو: ما كان <sup>(١)</sup> عندهم من أخبار ما كان قبلهم، ممن عصى الله من آبائهم، ممن لم <sup>(٢)</sup> تحل به نعمة وإخزاء الله لأعدائه، فقالوا لرسولهم قد جاء غيركم آباءنا بمثل ما قد جئتم به، فلم ينزل بهم إذ عصوهم ما تعدونا أنتم أنه ينزل بنا إذا عصينا، وفرحوا بما عندهم من علم سلامة من سلم من آبائهم، من علم من وقع به العذاب من أوائلهم، وفرحوا بسلامة السالمين وطمعوا بمثلها، ولم يخافوا ما نزل بالمعذنين فيتوقعوا أكبر منها، حتى جاءهم <sup>(٣)</sup> ما كانوا به يستهزئون من هذا الوعيد الذي وعدهم به <sup>(٤)</sup> بهم من العذاب، إذ لم يزالوا به مكذابين مستهزين، حتى ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ومعنى ﴿حَاقَ﴾ فهو: وقع ونزل.



(١) في (أ): كان من عندهم.

(٢) سقط من (أ): لم.

(٣) في (ب): حاق.

(٤) سقط من (ب): به.



# تفسير

## سورة فصلت





## ومن سورة فصلت

(٢٤٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؟

فقال: معنى قوله: ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ فهو: صار حكمه إلى تدبير السماء وخلقتها، وهي إذ ذاك دخان في الهواء، فخلق من ذلك الدخان هذه السماوات العللى، فهذا معنى ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي: صار حكمه وفعله إلى خلق السماء<sup>(١)</sup>، من بعد خلق الأربعة الأشياء الأصلية للأشياء<sup>(٢)</sup>، وهي الهواء والماء والريح والنار<sup>(٣)</sup>، فهذا معنى قوله: ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ لا أنه تبارك وتعالى انتقل إليها من الأرض، ولا كان في الأرض دون الهواء، هو محيط بكل الأشياء، يستغني عن الأمكنة والأشياء، تبارك وتعالى ذو الجلال والبقاء.

ومعنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هو: أراد أن يأتيها فأتيا وليس ثم قول، وإنما هذا مثل يخبر سبحانه أن سرعة نفاذ إرادته، ومضي مشيئته، أسرع من قول القائل كن، ومعنى ﴿أَتَيْنَا﴾ هو: كونا ولم يكن ثم أمر منه لها، لأنها في ذلك الوقت دخان وحرارة، وإنما هو مثلٌ مثلٌ بالأمر، وإنما معنى ﴿أَتَيْنَا﴾ أي: أراد فجعل، وشاء كونها فكانتا، فإيجاده لها مراده لها، ومراده لها هو إيجاده إياهما، لا تسبق إرادته موجوده، ولا موجوده إرادته، إذا شاء شيئا كان بلا

(١) سقط من (أ): السماء.

(٢) سقط من (أ): للأشياء.

(٣) لعل المطر فية أخذت نظريتها في أصول الأشياء للإمام الهادي من هنا.

تكلف ولا إضهار، ولا استعانة بأعوان، ومعنى ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: هذا أيضا مثله في الطاعة والاستواء، أراد سبحانه أنها عند إرادته لإيجادهما كانتا، لم يمتنع عليه من أمرهما ممتنع، ولم يصر عليه في خلقهما عسير، ولم يؤده من تدبيرهما صغير ولا كبير، فهذا معنى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

(٢٤٩) وسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ كَانُوا...﴾ إلى قوله: **خَسِرِينَ** ﴿٢٥٠﴾ [نص: ٢٥٠؟]

فقال: معنى ﴿وَقَيِّضْنَا﴾ هو: خلينا وأمهلنا، ولم يخل بين هؤلاء القراء وبين من اجترأ علينا، والقراء فهم قرناء السوء، من شياطين الجن والإنس، فلما أن كان الله تبارك وتعالى قادرا على أن يصرف عن أعدائه <sup>(١)</sup> كيد هؤلاء القراء، فلم يفعل جزاء على فعلهم، وخذلانا بكفرهم <sup>(٢)</sup>، جاز أن يقول: ﴿وَقَيِّضْنَا﴾ يريد: تركنا وأمهلنا حتى زينوا لهم، معنى التزيين فهو: التحسين، بما <sup>(٣)</sup> يسيطون لهم من الأمل في الدنيا، ويمنونهم من المغفرة في الآخرة التي تبقى، فهذا معنى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

معنى ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَمِنْ أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فهو: اغواؤهم حتى حق عليهم ما نزل بالأمم من قبلهم، على مثل فعلهم، معنى ﴿خَسِرِينَ﴾ فهو: متقصون، وانتقاصهم فهو: فوت ما ظفر به المؤمنون، من الثواب الذي حُرِمَ العاصون، وانتقصوه بمعصيتهم، وفاتهم بترك الطاعة لربهم.

(١) في (أ): أعدائه هؤلاء كيد.

(٢) في (ب): على كفرهم.

(٣) في (ب): لا.

(٢٥٠) وسأله عن قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَأَيْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (نص: ٢٢٩؟)

فقال: المعنى في ذلك أن هذا السؤال من الكفار الظالمين، طلب<sup>(١)</sup> إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم من جبابرة الآدميين، ومغويهم من فراعنة الشياطين الموسوسين بالمعصية لهم، المزينين لما في صدورهم، ﴿جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامِنَا﴾، يقولون<sup>(٢)</sup>: نحن في النار، ونظوهم ونذلهم كما أهلكونا، معنى ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ فهو: ليكونا تحتنا في العذاب المهيئ، وذلك<sup>(٣)</sup> أن جهنم ظلل من فوقها ظلل، معنى ظلل أي: درجات متفاوتات، فأشدها<sup>(٤)</sup> عذابا أسفلها، فكل ما كان أسفل فهو: أشد عذابا من هو فوق، فأراد هؤلاء أن يكون المغوون لهم أسفل منهم، في الدرجة التي هي أنكأ عذابا، وأشد نكالا وأشقى.

(٢٥١) و[سئل] عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَأَيْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ (نص: ٢٢٩؟)

(فقال: المضللان للكافرين اللذان سألوا ربهما أن يريهم إياهما، فهما مضلا<sup>(٥)</sup> الإنس والجن ومغويهما، لأن كل ضال يضلل مضل فلم يضل، إلا باطغاء شيطان ووسوسته، أو إطفاء جبار من الإنس دخل في طاعته، فجبار الإنس المضل لتباعه<sup>(٦)</sup>،

(١) في (أ): والظالمين وطلبا.

(٢) في (أ): يقول.

(٣) سقط من (أ): ذلك.

(٤) في (أ): فأشد عذابا.

(٥) في (أ) فهو: مضلي. ولعل الصواب ما أثبت.

(٦) كذا في: (أ).

والشيطان الموسوس بالمعصية لأوليائه، هما المضللان للضالين، وهما اللذان سألوا أوليائهما وأهل طاعتهما في الدنيا رؤيتهما في الآخرة، تعمقا وغضبا عليهما، لينالا في العذاب بعض ما تشتفي به منها صدورهم، ويخفف غيظهم، ولا يرجوا - والله الحمد - لأحد من أهل جهنم في ذلك سُلُو لو كان ولا غيره<sup>(١)</sup>.

(وقال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ أَلْجِنِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامِنَا﴾ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [نمل: ٢٩].

المعنى في ذلك: إن هذا السؤال من الكفار الضالين طلب إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم، من جابرة الآدميين، ومغويهم من فراعنة الشياطين، الموسوسين بالمعصية لهم، المزينين لما في صدورهم. ﴿جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامِنَا﴾ يقولون: تحتنا في النار ونطاوهم ونذلهم كما أهلكونا.

معنى ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، فهما: ليكونا تحتنا في العذاب المهيمن، وذلك أن جهنم ظلل ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، معنى ﴿ظُلَلٌ﴾ أي: درجات متفاوتات، وأشدّها عذابا أسفلها، فكل ما كان أسفل فهو أشدّ عذابا مما هو فوق، فأراد هؤلاء أن يكون المغوون لهم أسفل منهم في الدرجة، التي هي أنكى عذاب، وأشدّ نكالا وأشقى<sup>(٢)</sup>.



(١) سقط من (ب): هذا الجواب.

(٢) سقط من (أ): هذا الجواب.



# تفسير سورة الشورى





## ومن سورة الشورى

(٢٥٢) وسألته عن قوله سبحانه: ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾... إلى قوله سبحانه: أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١-١٠] <sup>(١)</sup>؟

فقال: ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه، إذ ليس له فيها أمر ولا نهي، ولا فرض ولا أمر تعبد به عباده، فيحتاجون إلى علمه ومعرفته. ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ إخبار من الله تبارك وتعالى أنه الذي يوحى إليه وإلى جميع الأنبياء الذين كانوا قبله، ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْ قُتُوبِهِنَّ﴾، معنى ذلك: إجلالا وإعظاما، وإكبار وألما <sup>(٢)</sup>، لما فعل المكذبون بآيات الله ووحيه، ووعده ووعيده، وما نزل من جميع أخباره، فيقول سبحانه: لو كان في السماوات تمييز وفهم لما قالوا، وبه كذبوا، لتفطرن إجلالا لله وإعظاما وإكبارا لما جاء به المشركون، من تكذيب قول الله، والصد عن آيات الله، ثم أخبر بطاعة الملائكة وإعظامها أيضا لما يأتون به، فقال: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: لما أن فعل المشركون ما فعلوا، سبّحت الملائكة وهلكت وعظمت، إجلالا له عن قولهم، وتقديسه له عن شركهم، ثم أخبر بفعل الملائكة في المؤمنين المصدقين، بما كذب به الكافرون، المسلمين لما جحد المشركون، المصدقين بوعده الله ووعيده، المؤمنين

(١) كمال الآيات: ﴿...كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّنَ مِنْ قُتُوبِهِنَّ وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ فَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾.

(٢) في (١): ألما.

بحشره وثوابه وعقابه، يقول: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: لمن فيها من المؤمنين المصدقين المتقين.

(٢٥٣) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؟

فقال: معنى ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ فهو: مبتدعها ومبتدؤها، ومعنى قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فهو: خلق لكم من أنفسكم رجالا ونساء، يتزوجون ويتناسلون، وكذلك قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ <sup>(١)</sup> أي: خلق أيضا من الأنعام إناثا وذكورا تناسل، ومعنى قوله: ﴿يَذُرُّكُمْ﴾ فهو: يبتنكم ويخرجكم ويخلقكم، ويصوركم ويكثركم، (بالذرو والنسل الذي يكون منكم) <sup>(٢)</sup>.

(٢٥٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]؟

فقال: ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ هي: مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القرى فهي: أعمال مكة، وما قاربها من الحجاز كله، ومعنى ﴿تُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وإنما تنذر أهلها وأهل القرى التي حولها، فلما أن كان الأهل من سبب القرى، طرح الأهل وأثبت القرى، وإنما يريد: الأهل، كما قال في قوله: ﴿وَسَلِّ الْقُرْيَةَ أَلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾

(١) في (ل): من.

(٢) سقط من (ل): ما بين القوسين.

وَالْعَبِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢)، يريد: أهل القرية وأهل العير. ومعنى قوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو: أيضا على هذا المعنى، أراد: وتنذر العذاب الذي يكون في يوم الجمع، فطرح العذاب وأقام يوم الجمع مقامه، كما فعل في أم القرى، ويوم الجمع فهو: يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلق<sup>(١)</sup> إلى موضع الحشر، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يقول: لا شك أنه سيكون فريق في الجنة وفريق في السعير، يخبر أن ذلك اليوم يوم يصير فيه فريق من الناس في الجنة، ويصير<sup>(٢)</sup> فريق منهم في السعير، والإنذار فهو<sup>(٣)</sup> إلى أم القرى ومن حولها، وإلى جميع أهل الأرض، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظم قدرها<sup>(٤)</sup>، وأنها كانت المبتدأ في الإعذار والإنذار، ثم يبلغ إعداره صلى الله عليه جميع شرق الأرض وغربها، وشامها ويميناها.

٢٥٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى: ١٦)؟

فقال: يقول: إن الذي يحاجون في الله، أي: يدافعون عن تصديق الله، ويكذبون ما جاء عن الله، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ يقول: من بعد ما قد تبين<sup>(٥)</sup> حجتة، وظهرت دلالته، وقبلها المؤمنون، واستجابوا لربهم وآمنوا به، فأخبر أن حجتهم<sup>(٦)</sup>

(١) سقط من (أ): الخلق.

(٢) سقط من (ب): يصير.

(٣) في (أ): فهي. وظنن بـ(هو).

(٤) في (أ): لعظيم ذكرها.

(٥) في (ب): ثبت.

(٦) سقط من (ب): حجتهم.

حجة من أنكر ما قد وضع وبان، فـ ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: لم يبق لهم حجة يصرف بها عنهم العذاب، ولا يجب تبينها لهم، ولا يلزمنا بها تأخير العذاب عنهم، قد بينا وأوضحنا واحتججنا، حتى شهدت عقولهم بأن ذلك هو الحق المبين<sup>(١)</sup>، ثم كابروا، فليس مكابرتهم بعد المعرفة حجة عند الله يجب لهم<sup>(٢)</sup> بها تأخير العذاب، كما يجب من قبل ثبات الحق عندهم، وظهوره لهم.

(٢٥٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> إلى قوله: لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [الشورى: ٣٩-٤٠] ٢٥٦

فقال: معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، يقول: والذين إذا أصابهم الظلم في دينهم لم يقروا به، وانثروا عن بغى في دينهم، أو في أموالهم أو في دمائهم، حتى يثبتوا الحق ويزيلوا<sup>(٤)</sup> الباطل، فأخبر الله<sup>(٥)</sup> أن نبيه<sup>(٦)</sup> لم يثبت باطلا، ولم يترك حقا.

وأما قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، فذلك في ما يجوز المكافأة به من السيئات، لا في شيء من المحرمات، وإنما ذلك في القتل والجراح والمال، فيجوز أن يكافأ من فعل شيئا من ذلك، بمثل ما فعل، فأما في ما لا يجوز فعله، مثل ظلم يؤتى،

(١) سقط من (ب): المبين.

(٢) سقط من (أ): لهم.

(٣) كمال الآية: ﴿... وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ...﴾.

(٤) في (أ): ويزيل.

(٥) سقط من (أ): الله.

(٦) في (أ): أنه لم. وفي (ب): أن به لم. لعلها مصحفة، ولعل الصواب ما أثبت.

أو فاحشة <sup>(١)</sup> يأتيها فاسق دني إلى حرمة مسلم، فلا يجوز للمسلم <sup>(٢)</sup> أن يأتي مثل ذلك، في بريء ولا في حرمة، فافهم الفرق بين هذين المعنيين، ( وقف على وجه هاتين الحالتين ) <sup>(٣)</sup>.

٢٥٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ...﴾ إلى قوله: في عَذَابٍ مُّثْقِلٍ ﴿٤٥﴾ [الشورى: ٤٥] <sup>(٤)</sup>؟

فقال: هذه <sup>(٥)</sup> صفة الكافر في يوم الدين، أخبر الله بما ينزل بهم فيه من الذل والخزي، ومعنى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ فهم <sup>(٦)</sup> ينظرون بطرف خفي، والطرف الخفي فهو: الطرف الدليل الخاشع العي، وقد يدرك <sup>(٧)</sup> ذلك في من نزل به بلاء في الدنيا، ويرى ذلك في طرفه ظاهرا لا يخفى، إذا قارب من يها به الجبارين، أو واجه من يخشى منه من السلاطين، والخاشع فهو: المطأطئ الرأس المنكس إلى الأرض، ومعنى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ فهو: من ذهبته نفسه بالعذاب، وحصلت بسوء فعله في العقاب، ﴿وَأَهْلِيَهُمْ﴾ فقد يخرج على معنيين:

(١) في (ل): يرى أو فعل... .

(٢) في (ل): يجوز فعله لمسلم.

(٣) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٤) كمال الآية: ﴿... يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ بِتَوَمِّ الْغَيْبَةِ أَلَا إِنَّ الْكَلْبِلِينَ...﴾.

(٥) سقط من (ل): هذه.

(٦) سقط من (ل): فهم.

(٧) في (ل) و (ب): يستدرك. ولعل الصواب ما أثبت.

أما أهله الذي كان يعرفهم في الدنيا ويألفهم فيها، فخرهم بمفارقتهم، إما<sup>(١)</sup> بمصيرهم إلى عذاب اليم، وإما بمصيرهم إلى ثواب كريم، ففي كلا المعنيين قد خسرهم الكافر.

والمعنى الأول فقد يخرج على أن الأهل هم حوريات الجنة، اللاتي جعلن<sup>(٢)</sup> ثواباً للمؤمنين ويخلقن أهلاً للمتقين، فكان من عمل بغير الهدى، وجنب عن التقوى، خاسراً للأهل الذين جعلوا للمتقين، فخرهم الفاسقون بفعلهم، ما لا يجب الحوريات لمن فعله ولا ينالهن.

(٢٥٨) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ إلى قوله: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿التَّوْرَى: ٥١-٥٢﴾ ٢٥٨

فقال: الوحي الذي ذكر الله هاهنا فهو: وحي النوم، كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام، فيما أمرها به من إرضاعه فإذا خافت عليه القتل ألقت في اليم، ومثل وحيه إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل صلى الله عليهما، ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ﴾: يخلق صوتاً يسمعه السامع، كما كان فعله في موسى خلق له صوتاً في الشجرة فسمعه موسى، والحجاب فمعناه: أن يأتي الصوت ولا يرى له مصوتاً،

(١) في (أ): وإما. مصحفة.

(٢) في (أ): جعلهن الله ثواباً.

(٣) كمال الآيتين: ﴿...فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

فهذا الحجاب الذي بين الصوت وبين السامع، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ معناه: المَلَك الذي كان يأتي إلى الأنبياء بوحى من الله، وهو جبريل صلى الله عليه، ومعنى قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فهو: أمر يُحيي به العباد، ومعنى حياتهم به فهو: إيمانهم به، لأن من آمن فقد حيَّ، ومن كفر فقد مات، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ومعنى ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فهو: قَبَلْنَا وعندنا.







# تفسير سورة الزخرف





## ومن سورة الزخرف

(٢٥٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ إِلَاحَكُمْ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]؟

فقال: معنى ذلك من الله سبحانه على معنى الاحتجاج عليهم والتقرير لهم، لما هم عليه من إسرافهم، يقول: أئنذا كنتم قوما مسرفين، أيجوز لنا أن نصرف الذكر عنكم<sup>(١)</sup>، أي: نتركه ونصرفه عنكم، ولا نقيم به الحجة عليكم، هذا ما لا يكون من فعلنا، لأن مع إسرافكم نزول النقم عليكم، والنقم منا فلا تنزل إلا على من ثبتت عليه حجتنا، فكيف نضرب عنكم الذكر صفحا بإسرافكم<sup>(٢)</sup> وقلة قبولكم؟! ونحن فلا ننزل النعمة بكم، إلا من بعد ثبات الحجة عليكم.

(٢٦٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ إِلَّا نَسَنَ لَسُكُورًا مِّمَّنْ﴾ [الزخرف: ١٥]؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه بكفر من جعل لله من عباده شريكا في العبادة، فعبد من دونه شيئا من خلقه، كمن عبد الملائكة من دون الله، وكذلك كل من أطاع كافرا في ما يأمره به من معاصي الله وترك أمر الله، فقد عبد من أطاعه، لأن أكبر العبادة هي الطاعة، ومن أطاع عبدا من عباد الله في معصية الله، فقد جعل له جزأ من<sup>(٣)</sup> عمله، بل قد أخلص العبادة لغير ربه، إذ<sup>(٤)</sup> أخلص الطاعة لمن هو مستسلم في يده، من أعداء الله ربه وخالقه.

(١) في (أ): نضرب. وفي (أ): عنكم الذكر.

(٢) في (ب): لإسرافكم.

(٣) في (أ): جعل الله. وفي (ب): في عمله.

(٤) في (أ): التوبة لغير ربه، إذا.

(٢٦١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْخَلْقِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزعرور: ١٨]؟

فقال: هذا تقريع من الله تبارك وتعالى للمشركين في قولهم، وإثبات الحجة عليهم، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الملائكة إناث، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [وإذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم] [الزعرور: ١٦-١٧]، يريد سبحانه: إن كان قولهم في ما زعموا من أن الملائكة إناث، وأنهم لله بنات، فقال: كيف يصفيكم أنتم بالبني ويتخذ هو البنات لنفسه؟ فلو<sup>(١)</sup> كان كما يقولون! إذا لم يتخذ إلا البنين، إذا البنون أفضل من البنات، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون؟! وتجمعون له ما منه تنتفون؟ من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، مستحياً خجلاً منهم، واغتماً بولادتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْخَلْقِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزعرور: ١٨] يريد: أومن كان هكذا في الصفة كالبنين الذكور، أهل<sup>(٢)</sup> البيان في الخصام، وأهل الخير والتمام، لا يكون ذلك كذلك أبداً، فأضمر الذكور لعلم المخاطب به، فقال: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْخَلْقِ﴾ والذي نشأ في الخلية فهن: البنات اللواتي يزيّن به في الحلي ويترنن به، وكذلك فهن اللواتي قال الله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يقول: في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن، وقلة معرفتهن بهن وأهل عليهن.

(٢٦٢) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ... إلى قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الزعرور: ٢٦-٢٨]؟<sup>(٣)</sup>

(١) في (ب): لو.

(٢) في (أ): وأهل.

(٣) كمال الآيات: ﴿... إِلَّا أَلَدَىٰ فُطْرَيْنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وجعلها كلمةً بآية في عقيب...

فقال: هذا قول من إبراهيم صلى الله عليه لقومه، تبرأ فيه من كل ما يعبدون من دون الله، وثبت التولي منه لرب العالمين الذي فطره، ومعنى قوله: ﴿سَيَهْدِين﴾ فهو: سيوقفني للحق<sup>(١)</sup> ويهديني إليه ويبينه لي، والتي جعلها باقية في عقبه، فهي كلمة الإخلاص، ودين الحنيفية الباقي في عقبه إلى يوم الدين.

٢٦٣) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤-٤٥]؟

فقال: الذكر الذي له صلى الله عليه ولقومه، فهو: كتابه ووحى الذي نزل على نبيه، وقوله: ﴿وَسَوْفَ تَسْتَئِلُونَ﴾ يعني بالسؤال: من أعرض عن الحق وعن الذكر وقوله له<sup>(٢)</sup>، يُسأل بأي حجة كذب وصدق<sup>(٣)</sup>! وبأي معنى أعرض عن الحق؟! ومعنى قوله: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ فهو: مثل كتبهم، وافتش أخبارهم، وأسأل<sup>(٤)</sup> عما فرضنا عليهم، مما أتوا به ذاعين، فانظر<sup>(٥)</sup> هل تجد في هذه الكتب التي<sup>(٦)</sup> أتوا بها منا، الذين أبلغوا<sup>(٧)</sup> منهم عنا، شيئاً مما عليه من أمرنا بنا، واتخذ آلهة من دوننا، وعبد شيئاً من دون عبادتنا؟! فلن تجد ذلك أبداً في شيء من كتبنا، ولا مما جاءت به رسلنا، وإنما ذلك خطأ من فاعله، واجترأ من يعبد شيئاً من دون خالقه، وقد نهاهم الله سبحانه عن عبادة غيره، وأمرهم بالعبادة له.

١- قوله: ﴿وَسَوْفَ تَسْتَئِلُونَ﴾

(١) سقط من (ب): للحق.

(٢) كمال الآيات: ﴿... وَسَوْفَ تَسْتَئِلُونَ ۖ وَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾

٢- قوله: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

(٣) سقط من (أ): له.

(٤) في (أ): وصدق.

(٥) في (ب): وسل.

(٦) في (ب): داعين، وانظر.

(٧) في (أ): الذي.

(٨) في (ب): بلغوا.

٣- قوله: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

٤- قوله: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

(٢٦٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]؟

فقال: معنى «يَعْشُ» فهو: يصد ويترك ويعرض عن ذكر الرحمن، «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا» فهو: نخلي عليه شيطانا، لا أن الله تبارك وتعالى أمر الشيطان بذلك، ولكنه خلاه وإياه ولم يمنعه منه، فلما أن كان ذلك، منه كذلك، جاز أن يقول: قِيضًا، أي: تركنا وخلينا بينه وبينه، ولم يكن منا حاجز له عنه، ولا مانع له منه.

(٢٦٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۖ﴾ [الزمر: ٨١]؟

العابدون: هم الأنفون، يقول الله سبحانه لمحمد: يا محمد قل لمن زعم أن لنا ولدا، إن كان للرحمن ولد كما تزعمون؟ فإنا أول الأنفين المبعوضين من<sup>(١)</sup> عبادة من له ولد.

(٢٦٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَرْبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٨٨-٨٩]؟

فقال: هذا خبر من الله سبحانه عن قول نبيه، أن من قدر يؤمن به، فأمره الله أن يصفح عنهم، ومعنى يصفح: أن يتركهم ويرفضهم، ومعنى قوله: ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: قل أمرا حسنا جيلا، ثبت به عليهم الحجة، وتسلم به<sup>(٢)</sup> من أذيتهم، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: قل لهم فسوف تعلمون صدق ما جئت به، وحقيقة ما أعذرت وأندرت منه.

(١) في (أ): عن.

(٢) سقط من (ب): به.

(٢٦٧) و[سألت] عن قوله عز وجل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)؟

قال: أحدهم الوليد بن المغيرة المخزومي، والآخر عمرو بن عبد العزيز الثقفي<sup>(١)</sup>.

(٢٦٨) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾... إلى قوله: هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف: ٥٧-٦١)؟<sup>(٢)</sup>

فقال: روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام ذات يوم: (يا علي لو لا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام لقلت فيك مقالا لا تمر بملأ إلا أخذوا من أثرك التراب<sup>(٣)</sup> ييغون به البركة، غير أنه<sup>(٤)</sup> يكفيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إنه لا نبي

(١) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قول الله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال: يعني بالفرقتين مكة والطائف، والعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عبد العزيز الثقفي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال: يعني ﴿مِنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ مكة والطائف، والعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عبد العزيز الثقفي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال: يمتنون أشرف من محمد، الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف. اللؤلؤ المشوي: ٣٧٤/٧.

(٢) كمال الأيات: ﴿... وَقَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (١) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَذَابُنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْقَةً فِي الْأَرْضِ يُخَلِّفُونَ﴾ (٣) ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلشَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُونَ﴾ (٤) ﴿بِهَا وَاتَّبِعُون...﴾.

(٣) سقط من (ب): التراب.

(٤) في (ل): أنك.

بعدي<sup>(١)</sup>، فقال المنافقون لما أن سمعوا ذلك: ( ما رضي محمد أن يضرب لابن عمه مثلاً إلا عيسى بن مريم، ثم قالوا: والله لأهنتا التي كنا نعبدها خير منه يعنون علياً، فانزل الله ما أنزل فيهم، وهم الحارث بن حنظلة وأصحابه من المنافقين ).

ثم أخبر الله سبحانه بأنهم إنما ذكروا هذا جدلاً وطلباً للتعنت، لا إعظاماً لعيسى بن مريم صلى الله عليه، ثم أخبر أن عيسى بن مريم عبد من عباد الله أنعم الله عليه، فكيف لا يضرب الله به المثل لإخوانه المؤمنين، ﴿وَأِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ يقول: هبوطه إلى الأرض وظهوره، دليل على قرب الساعة<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب / ١ (٤٥٨) (٣٦٠)، ١ / ٤٩٤ (٤٠٢)، والمرشد بالله في الأمالي / ١٣٣، ١٣٧، وابن المغازلي الشافعي في المناقب / ٢٣٧ (٢٨٥)، والخوارزمي في المناقب / ٢٢٠ الفصل (١٩)، وابن أبي حاتم في العلل / ٣١٣.

ورواه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب / ٢٦٤، وابن حجر الميمني في مجمع الزوائد / ٩ / ١٣١ عن الطبراني وأخرج نحوه أحمد بن حنبل في المستدرك / ١ / ١٦٠، والحاكم في المستدرك / ٣ / ١٢٣، والطبري في الذخائر / ٩٢، والرياض النضرة / ٢ / ٢١٧، وابن كثير في البداية والنهاية / ٧ / ٣٥٥، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل / ٢ / ٢٢٦ (٨٥٩) عند تفسير الآية وبرقم (٨٦٠)، إلى رقم (٨٧١) وتواليه إلى (٧٥٤)، وابن عساکر في تاريخ دمشق ترجمة الإمام علي / ٢ / ٢٣٤ (٧٤٧)، والمفتي الهندي في كنز العمال / ١٣ / ٣١٤، والسائي في الخصائص / ١٠٥ (٩٨)، والبلاذري في أنساب الأشراف / ١ / ٣١٩ (٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير / ٣ / ٢٨١ (٩٦٦) في ترجمة ربيعة بن ناجد والطبراني في الكبير / ١ / ٥١.

(٢) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن رضي الله عنه ﴿وَأِنَّهُ لَوَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَأِنَّهُ لَوَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسى علم للساعة. الدر المنثور / ٧ / ٣٨٧.



# تفسير سورة الدخان





## ومن سورة الدخان

٢٦٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَارْتَبِّبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠-١١]؟

فقال: اليوم الذي تأتي به السماء بدخان مبين، هو يوم القيامة، وإتيانها بالدخان فهو: رجوعها <sup>(١)</sup> ومصيرها إليه، وذلك أنها عند تبديل الله لها في ذلك اليوم، تعود إلى ما منه خلقت، وهو الدخان، فتصير بعد هذا التجسم والعظم، إلى حالة الدخان، ومعنى قول من يقول: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو: قول الكافرين، إذا رأوا السماء قد صارت إلى ذلك الحال، وأيقنوا بالجزاء، قالوا حينئذ: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فطرح الله <sup>(٢)</sup> اليوم، وأقام العذاب مقامه، فصار مرفوعاً، والعرب تفعل ذلك، تقيم الشيء مقام ما كان من سببه <sup>(٣)</sup>، كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، فأراد: أهل القرية وأهل العير، فطرح الأهل وأقام القرية والعير مقامهم.

٢٧٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ قِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الدخان: ١٧]؟

فقال: معنى قوله: ﴿فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ قِرْعَوْنَ﴾ أي: عذبناهم على

(١) في (أ): عرجوها.

(٢) سقط من (ب): الله.

(٣) في (أ): شبهه. مصحفة.

معصيتهم بالفرق، والرسول الكريم فهو: موسى صلى الله عليه.

(٢٧١) وعن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٢٧٢﴾ طَعَامُ الْإِيبِرِ ﴿٢٧٣﴾﴾

[الدخان: ٤٤-٤٣]؟

قال: نزلت في أبي جهل حين أن زعم أنها تمر بزبد<sup>(١)</sup>.



(١) أخرج سعيد بن منصور، عن أبي مالك قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: ترقموا بهذا

الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٢٧٢﴾ طَعَامُ الْإِيبِرِ ﴿٢٧٣﴾﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، والمخطيب في تاريخه، عن سعيد بن جبير في الآية قال: ﴿الْإِيبِرِ﴾ أبو جهل.

الدر المنثور ٤١٨/٧.



# تفسير سورة الجاثية





## ومن سورة الجاثية

(٢٧٢) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]؟

فقال: معنى «يَغْفِرُوا» فهو: <sup>(١)</sup> يعرضوا عن عبادتهم ومقاتلتهم وشركهم <sup>(٢)</sup>، ومعنى «الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» فهم الذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، «قَوْمًا» أي: ذرهم حتى يقع الجزاء عليهم، وعلى صدق ما أنكروا من وعد ربهم. (٢٧٣) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ... إِلَى قَوْلِهِ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] <sup>(٣)</sup>؟

فقال: هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن من عبد ما يهوى من الأشياء، فجعل إلهه <sup>(٤)</sup> هواه، «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ» منه به، ومعنى «عَلَىٰ عِلْمٍ» فهو: على علم منا بأفعاله وأخباره، وعبادته ما يهوى من الأشياء دون ربه، فلما أن علم منه ذلك أضله، ومعنى «أَضَلَّهُ» فهو: خذله، وسماه بالضلal وأخبر عنه به، ومعنى «خَتَمَ

(١) في (أ): هو.

(٢) في (أ): وتركوهم.

(٣) كمال الآية: «... وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا»

فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...»

(٤)

(٤) في (أ): الإلهة.

عَلَى سَمْعِهِ - هاهنا في هذه الآية - وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً ﴿فَهُوَ بِالْخِذْلَانِ لَهُ، وَتَرَكَ التَّسْدِيدَ لَهُ، لِمَا يُسَدِّدُ لَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا حَالٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِهْتِدَاءِ، تَقْدِيسُ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ وَتَعَالَى، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، يَقُولُ: مَنْ يُوَفِّقُهُ لِلصَّوَابِ إِنْ خَذَلَهُ <sup>(١)</sup> اللَّهُ، أَوْ يَرشُدُهُ إِنْ تَرَكَهُ اللَّهُ، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الناس: ٥٠] <sup>(٢)</sup>، فِي ذَلِكَ فَتَعْلَمُونَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا هَادِيَ لِمَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ، وَلَا مَرشِدَ لِمَنْ لَمْ يَرشُدْهُ اللَّهُ.

(٢٧٤) وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا آلِيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمانية: ٢٨]؟

فَقَالَ: مَعْنَى ﴿جَائِيَةً﴾ فَهِيَ <sup>(٣)</sup>: بَارَكَةُ عَلَى رَكْبِهَا، مُتَظَرَّةٌ لِمَا يَكُونُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ فِيهَا، وَمَعْنَى ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ هُوَ: مَا عِلْمٌ مِنْ فَعْلِهَا، تَوَقَّفَ <sup>(٤)</sup> عَلَيْهِ وَتَدْعَا إِلَى جَزَائِهِ، خَيْرًا فَخِيرًا، أَوْ شَرًّا فَشَرًّا. وَمَعْنَى ﴿كِتَابِهَا﴾ (فَهُوَ: مَا عِلْمٌ مِنْ فَعْلِهَا، تَجَاوَزَى عَلَيْهِ وَتَدَانُ بِهِ) <sup>(٥)</sup>.



(١) فِي (ل): يَخْذَلُهُ.

(٢) فِي (ل): تَذَكَّرُونَ.

(٣) فِي (ل): هِيَ.

(٤) فِي (ل): هُوَ تَوَقَّفَ.

(٥) سَقَطَ مِنْ (ب): مَا بَيْنَ الْقُرْسَيْنِ.



# تفسير سورة الأحقاف





## ومن سورة الأحقاف

(٢٧٥) ومآله عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَنُتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾<sup>(١)</sup>  
[الأحقاف: ٩]؟

قال: يقول ما أتيت بغير ما أتت به الرسل، من الدعاء إلى الله وإلى حقه، ومعنى ﴿بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فهو: فستكرون<sup>(٢)</sup> ما أتيت به وتستعظمون ما نطقت به من<sup>(٣)</sup> سبيل الرسل، كلما أتيت وإلى ما دعت به<sup>(٤)</sup> من طاعة الله، ﴿وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> من موت ولا حياة، ولا خير ولا شر في الدنيا، إذ لست أعلم الغيب، ولا<sup>(٦)</sup> أعلم الغيب إلا الله، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾، يقول: منذر لكم أنذرکم ما أمرت به، ﴿مُبِينٌ﴾، يقول: مبين بقولي<sup>(٧)</sup>، مظهر لما أتيت به إليكم من ربي.

(١) في (ب): أنستكرون.

(٢) في (أ): هي. مصحفة.

(٣) في (ب): ما دعت إليه. مصحفة.

(٤) في (أ): يقول من...

(٥) في (أ): وما.

(٦) في (ب): لقولي.

(٢٧٦) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ إلى قوله: إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ [الاحقاف: ١٠٠]؟

فقال: هذا كلام تحت ضمير، يريد: قل إن كان من عند الله وكفرتم به، الستم متعرضين <sup>(١)</sup> للنقمة أن تنزل بكم ١٩ فأما قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾، فالشهادة <sup>(٢)</sup> التي هي مثل هذه التي شهد بها شاهد بني إسرائيل فهي: الشهادة التي شهد بها مؤمن آل فرعون، فهي <sup>(٣)</sup> مثل هذا الآية، وضميرها مثل ضميرها <sup>(٤)</sup>، سواء سواء، وهو قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ...﴾ إلى قوله: مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٦﴾ [غافر: ٢٦] <sup>(٥)</sup>، فشهد بأنه إن كان موسى صادقا، أصابهم بعض ما يعدهم به موسى من النقم من تكذيبهم بآيات الله، فهذا معنى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الاحقاف: ١٠٠]، يريد: على مثل الآية الأولى وضميرها <sup>(٦)</sup>، على أن من كذب بآيات الله ورسله، نزل به من الله تبارك وتعالى ما نزل بغيره من النقم المهلكات، والآفات المتتابعات.

(١) كمال الآية: ﴿...وَسَقَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَثَمَرُ وَاسْتَكْبَرْتُمْ...﴾.

(٢) في (ب): معترضين.

(٣) في (ب): في الشهادة.

(٤) سقط من (أ): فهي.

(٥) سقط من (أ): مثل ضميرها.

(٦) كمال الآية: ﴿...أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ فَعَلَيْكُمْ كَذِبُكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ...﴾.

(٧) في (أ): وضميره.

(٢٧٧) ومثل عن قول الله عز ذكره، وجلت أسماؤه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (الاحقاف: ٢٠)، فقلت: ما الطيبات في هذه الدنيا؟

هو ما يتنعم به الناس ويلبسونه، من صالحهم وطالحهم فإن من <sup>(١)</sup> لبس الثياب السرية <sup>(٢)</sup>، وأكل الطعام الفائق، وركب الخيول، حللا كان أو حراما، فقد أذهب طيبات الآخرة؛ بها أطلق لنفسه من استعمال طيبات الدنيا، فأما الكافر وأشباهه فقد استغنيا عن القتل عن <sup>(٣)</sup> أمره، بها قد قر <sup>(٤)</sup> عندنا من حاله، كثرت دنياه أو قلت، فمصيره إلى النار.

وأما المؤمن <sup>(٥)</sup> به، والعامل بطاعة خالقه، المحتذي في أمره <sup>(٦)</sup> بها أمره به ربه، فكيف تكون تلك <sup>(٧)</sup> حاله؟! وإنما جعل الله الطيبات للمؤمنين، خاصة دون الفاسقين، فقال في كتابه عز وجل، لأنبيائه عليهم السلام: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمن: ٥١)، وقال في كتابه: ﴿قُلْ مَنْ حَزَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (الامرات: ٣٢)، ومعناها: ويوم القيامة.

وقال في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ...﴾

(١) في (أ): إن لبس..

(٢) السرية: الأفضل والخالص.

(٣) في (أ): عنه وعن أمره.

(٤) سقط من (أ): قر.

(٥) في (أ): المؤمنون.

(٦) في (أ): بأمره.

(٧) سقط من (ب): تلك.

في (أ):

في (أ):

في (أ):

في (أ):

في (أ):

[الأنفال: ٩٣] <sup>(١)</sup> إلى آخر الآية، فلم يجعل الله عز وجل على المؤمنين حرجاً في شيء مما رزقهم، إذا أخذوه <sup>(٢)</sup> على ما جعل لهم وأمرهم به، فساروا فيه بطاعة الله <sup>(٣)</sup>، ولم يتعدوا إلى شيء مما يسخط الله، لأن الله عز وجل - أيها السائل - <sup>(٤)</sup> لم يجعل ما في هذه الدنيا من خيرها ومراكبها التي خلقها لشرار أهلها، ولا لمن عتد عن طاعة خالقها، وإنما جعلها للصالحين، ولعباده المتقين، يأمرون فيها بأمره، وينهون عن نهيها، مقيمون أحكامه فيها، منفذون لأمره عليها، وللطاعة <sup>(٥)</sup> والمطيعين، خلقها <sup>(٦)</sup> رب العالمين، ثم أمرهم ونهاهم، وبصّرهم غيهم <sup>(٧)</sup> وهداهم، وجعل لهم الاستطاعة إلى طاعة مولاهم <sup>(٨)</sup> ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ هَٰذَا شَيْءٌ يَبِيْنَةٌ وَيَبِيْنَةٌ مِّنْ حَيْثُ عَنِ بَيْتِنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَكَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وإنما معنى قوله <sup>(٩)</sup> سبحانه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ فتبكتنا منه سبحانه لأهل النار، وتوقيفاً على تفریطهم في طاعة ربهم، ومعنى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ﴾ أي: تركتم وعظمتم وعطلتم ما جعل الله لكم بالطاعة من النعيم المقيم،

(١) كمال الآية: ﴿... فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٢) في (أ): إذا حدوا.

(٣) في (ب): فساروا فيه بطاعة ولم...

(٤) سقط من (ب): أيها السائل.

(٥) في (ب): يقيمون أحكامه فيها، ويقفون لأمره عليها، وللطاعة.

(٦) في (أ): خالقها.

(٧) في (أ): عنها.

(٨) في (ب): إلى الطاعة.

(٩) في (أ): معنى الآية وقول الله سبحانه.

والخلد مع المتقين في الثواب الكريم، بارتكابكم المعاصي، وترككم الطاعة، حتى خرجتم مما جعل الله للمطيعين، وصرتم إلى حكم الفسقة الكافرين، في عذاب مهين، فهذا معنى ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾.

(٢٧٨) وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠)؟<sup>(١)</sup>

فقال صلوات الله عليه: الطيبات التي أذهبوها في حياتهم، فهي: طيبات الجنان التي جعلها الله لأهل الطاعة والإيمان، بما ذكر أنه أعد لأهل التقوى والإحسان، من أزواج الفواكة والرمان، وغير ذلك من النخيل واللحمان، وكل ما تشتهي الأنفس من اللباس والنسوان. وإذهابهم إياها فهو: بعصيانهم لربهم، وجراتهم على خالفهم، لأن الله عز وجل إنما حكم بالطيبات لمن أطاعه، وحرمها على من عصاه، فمن أطاعه فقد استوجبها بطاعته، ومن عصاه فقد أذهبها بمعصيته، فهذا تفسير إذهابهم للطيبات، لا ما يقول من جهل فلم يعلم، وضل عن مذهبه فلم يفهم، من أن إذهابهم للطيبات هو أكلها في حياتهم، فإن من أكلها في الدنيا الفانية، حُرِمَها في الآخرة الباقية، وحاش لله أن يكون الجواب على ذلك! أو يكون قول من علم كذلك!!

ألم تسمعوا قول الله في القرآن، وما نزل من النور والبرهان، حين يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأمر: ٣٢)، فجعلها لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة التي بها، فكيف يقال، أو

(١) تكرر هذا السؤال ولكن الإجابة هنا تختلف عن السابق، فلذلك أثبتته.

يستجاز في ذي الجلال والإكرام، أنه <sup>(١)</sup> جعلها لهم رزقا، وأعطاهم إياها عطاء حقا، في دار الدنيا، ثم حرمهم إياها في الآخرة التي تبقى، عقوبة على أخذ ما أعطاهم، وقبول ما امتنَّ به عليهم وآتاهم، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: ٥١)، فأمر رسله أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا له ما يرضيه من الصالحات، وفي أقل من ذلك ما أجزا مَنْ كان ذا حجا، والحمد لله العلي الأعلى.

وأما قوله سبحانه: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، والاستكبار، فهو: الجراة على الله الواحد الجبار، والمخالفة له في أمره، من ذلك التجبر على عباد الله في أرضه. والفسق وهو: الفسق في الدين، والفسق في الدين فهو: المخالفة لرب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وعلى عترته الأخيار وسلم <sup>(٢)</sup>.



(١) في (أ): أنهم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) سقط من (ب): هذا السؤال والجواب.



# تفسير سورة محمد





وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ

أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٧٩﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٢٨٠﴾

وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٨١﴾

## ومن سورة محمد

(٢٧٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٧٩﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٢٨٠﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿٢٨٠﴾ (عدد: ٤-٦)؟

فقال: معنى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ فهو: <sup>(١)</sup> لن يضلها ولن يزلهم إياها بل سيجازيهم عليها، ويعظم لهم الأجر فيها، ومعنى <sup>(٢)</sup> سيهديهم هو يهديهم إلى دار ثوابه، ويصيرهم إلى ما أعد لهم من دار كرامته، ومعنى ﴿يُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ فهو: يصلح حالهم، البال الحال والأمر، ومعنى ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ فهو: يطهرها لهم، وتطهيرها لها فهو: جمع فيها للخيرات التي هي مجموعة فيها، حتى طابت لأهلها بوجودهم كلها يحبون فيها.

(٢٨٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله:

فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿٢٨٢﴾ (عدد: ١٥-١٧)؟

(١) كما قالوا في الآية (١)

(١) في (ب) هو.

(٢) كما قالوا في الآية (٢)

(٢) في (ب) معنى.

(٣) كمال الآية: ﴿... فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَذْوٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمُقَرَّبَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً...﴾

فقال: أراد الله تبارك وتعالى هل: يستوي من كان في هذه الجنة وفي أسرابها ولذاتها ١٩ ومن هو خالد في النار يسقى الحميم ١٩ لا يستويان أبدا ١١ صدق الله تبارك وتعالى لا يستوي محل أوليائه ومحل أعدائه، أعداؤه <sup>(١)</sup> في عذاب النار، وأشر قرار، وأوليأؤه في خير دار.

فقلت: ما هذه الحمر؟

فقال: هي الحمر التي ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، والغول فهو: ما اغتال العقول. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (الصافات: ٤٧)، والنزف فهو: ما ينزل <sup>(٢)</sup> بشراب خمر هذه الدنيا النجسة، فينزفون من طرفيهم <sup>(٣)</sup> مشيا وقينا، فأخبر الله تبارك وتعالى بطهارة هذه الحمر، ويُعدها مما تفعل خمر الدنيا بأهلها.

(٢٨٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَا تَطْغَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ (صد: ٩)، فقلت: ما

هذه الأعمال التي أخطأها الله، وهم فلم يؤمنوا فيكون <sup>(٤)</sup> لهم أعمال؟

وهذا - خاطك الله - فخير عن فعل من مضى، ممن لم يقبل الهدى <sup>(٥)</sup>، وهو وعيد لمن بقي من أهل الدنيا، ممن يدعي الإسلام، وغيرهم من سائر الأنعام، إلى يوم الدين، وحشر العالمين.

فأما أعمال من لم يؤمن بالله ورسله، فإنه لم تكن أمة من الأمم إلا وهي تعلم أن

(١) سقط من (ب): أعداؤه.

(٢) في (أ): ينال. مصحفة.

(٣) في (ب): فينزفون عنها من. وطرفيهم يعني: الدبر والقم.

(٤) في (ب): فتكون.

(٥) في (أ): يقبل إلى الهدى.

الله خالقها وخالق غيرها، وذلك قوله: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكل أمة فقد<sup>(١)</sup> كانت لها أعمال ترى أنها أفضل الأديان، من عبادة الشمس والقمر والنجوم والأنصاب والأوثان<sup>(٢)</sup>.

ومنهم من كان يعبد الملائكة المقربين، ويزعمون أنهم يريدون بذلك التقرب إلى رب العالمين.

ومنهم من كان يعبد اللات والعزى، وهما قبتان كانتا بالطائف ونخلة، فأخبر الله أن ذلك كله بور حابط، وأنه لكل شيء محبط<sup>(٣)</sup>، وإحباطه إياه فهو: حكمه بالبطلان والبور، وجعله إياه سبحانه: ﴿هَبَاءً مُنثَوًى﴾ [الفرقان: ٢٣]، لا يرفع منه قليل ولا كثير، ولا يتففعون منه وإن جهدوا فيه بحقير ولا خطير، إذ ذلك عند الله كفر وشرك وله جحدان<sup>(٤)</sup>، وأنه لا يرضى من أحد من خلقه بغير الإخلاص له والإيثار، وترك عبادة كل ما كانوا دونه يعبدون، ورفض ما كانوا يؤثرون، فأما وعيده لمن بقي من بعد أولئك، ممن يدعي الإسلام، ويتحلل دين محمد عليه السلام، فقولته: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٧]، فأخبر أن أعمال من كان غير متقي، وكان من أهل الاجتراء والمعاصي، وكان مقرا بالتوحيد غير مقبولة ولا مرفوعة، ومن كان عارفا بها جاء به الرسول قائما بفرائض ربه، مؤديا لكل أمره، غير مقارف للمظالم والعصيان، ولا داخل في كبائر ما نهى عنه ذو المن والسلطان، فإن

(١) في (أ): قد.

(٢) في المخطوطتين: والأوثان والأنصاب. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في (ب): بكل شيء محبط.

(٤) سقط من (ب): وله جحدان.

توبته مقبولة مرفوعة، لأنه إنما يرفع ما يتقبل من الأعمال، لأن رفعه هو تَقَبُّلُهُ، وتقبله هو رفعه، لا فرق بينهما، فكل <sup>(١)</sup> ما تَقَبَّلَهُ فقد رَفَعَهُ، وكل ما رُفِعَ فقد تَقَبَّلَ، وكذلك حال من كان في الأرض من أهل الملل، وغيرهم من المجوس، ونظرائهم من السامرية والسودان والروم، وغيرهم من أهل البلدان.




---

(١) في (أ): وكل.



# تفسير سورة الفتح



## ومن سورة الفتح

(٢٨٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ... إلى قوله: يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ١٦) <sup>(١)</sup>؟

فقال: المخلفون هم <sup>(٢)</sup> الذين تخلفوا في أهلهم، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم، فلم يكن بالأذن منه لهم، ولكن باختيارهم هم، لمعصيتهم لربهم، وإنما جاز أن يقول: ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ <sup>(٣)</sup> وهم: المخلفون من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعرض عنهم حين اختاروا التخلف، ولم يغضبهم على الخروج معه، فلذلك جاز أن يقول: المخلفين.

والقوم الذين هم أولوا البأس الشديد فهم أهل فارس وخراسان، فقال: ستدعون إلى قتالهم أو يسلمون، فإن طيعوا في ذلك يؤتكم الله أجرا حسنا، وإن تولوا عن قتالهم، وتخلفوا <sup>(٤)</sup> كما توليتم وتخلفتم من قبل، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فكان دعاؤهم إلى جهاد أهل فارس من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قيل: إن أولي البأس الشديد هم الروم <sup>(٥)</sup>، وإنما وقعة مؤتة وهذا عندي أشبه المعنيين <sup>(٦)</sup> بالحق، (بأسباب تدخل فيه، ومعاني توضح ذلك وتبينه) <sup>(٧)</sup>.

(١) كمال الآية: ﴿... سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا حَسَمًا تُولَيْتُم مِّن قَبْلُ...﴾.

(٢) سقط من (ب): هم.

(٣) في (ب): المخلفين.

(٤) في (أ): وتخلفوا. وتخلفوا هي: تتخلفوا، وإنما تخلف التاء تخفيفا.

(٥) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: فارس والروم. الدر المنثور ٥٢٠ / ٧.

(٦) سقط من (ب): المعنيين.

(٧) سقط من (ب): ما بين القوسين.

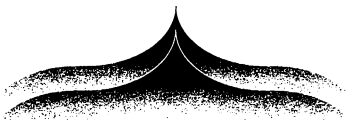
٢٨٨) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ إلى قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١﴾ [الفتح: ١٨-٢١] (٢)

فقال: الشجرة التي بايع المؤمنون رسول الله تحتها فهي شجرة بالحليمية. ايعوا تحتها رسول الله على الصبر والبلوى، أو يدخلوا مكة، وهم باخرم بجانب فنج، فأنزل الله على نبيه: ﴿إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٢١]، فلما طلبوا السلم أجابهم رسول الله إلى ذلك، وكتب الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو، على الهدنة عشر سنين، وعلى شروط شرطوها بينهم، ونحر هدي عمرته في الموضع، ورجع على أن يأتي في السنة الأخرى، فيدخل مكة هو وأصحابه ويقيمون بها ثلاثا ويخرجون، وكذلك فعل رسول الله عليه السلام من السنة المقبلة، وتم لهم على الهدنة حتى نقضوا، ومعنى قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: علم ما في قلوبهم من النية والصبر والاحتساب له سبحانه، ﴿وَأَنبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ يقول: أعطاهم ورزقهم فتحا قريبا، وهو فتح خبير ومغانمها الكثيرة التي أخذوا منها، من النخيل والأثاث، والذهب والفضة، والتي لم يقدرُوا عليها في ذلك الوقت ثم قدرُوا عليها من بعد، فهي: بلاد الروم والشامات وما والاها، ثم افتحوها في غزوة تبوك، افتحوها (٣) من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنيه.



(١) كمال الآيات: ﴿...إِذْ بَايَعْتُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَيْدِمْ وَخَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَتَكُونَنَّ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَفَعَدَّكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَلَتُحَرِّزَ لِمَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا...﴾.

(٢) في (ب): ثم افتحوها.



# تفسير سورة الحجرات





## ومن سورة الحجرات

(٢٨٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين، أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله<sup>(١)</sup> في شيء من الأشياء، ببسط أمر أو أخذ أو إعطاء، أو إيمان عدو أو مسألة أو لقاء، دون الله ورسوله، والأذن في ذلك من الله ونبيه<sup>(٢)</sup>.

(٢٨٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ [الحجرات: ٣] إلى آخر الآية<sup>(٣)</sup>؟

فقال: هذا ثناء<sup>(٤)</sup> من الله تبارك وتعالى على من يفعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إجلالا له وتعظيما، مما يكون من غضصوته وتكريما، فأثنى الله على من فعل ذلك، وأخبر أنه ممن قد امتحن الله قلبه للتعوي، وامتحان الله لقلبه فهو: بها أمره به، من تعظيم نبيه، وإجلال ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من وحيه، فكان غضهم للأصوات عنده قياما منهم. لمؤكد المحنة، وكان قيامهم بالامتحان تقوي منهم وإيماننا.

(١) سقط من (ب): بين يدي الله ورسوله.

(٢) في (ب): ورسوله.

(٣) كمال الآية: ﴿... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسْهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(٤) في (ل): أنباء مصحفة.

(٢٨٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ...﴾ إلى قوله: أُوْزِلَتْكُمْ هُمُ الرَّايشِدُونَ ﴿٢٨٦﴾ (المحجرات: ٧)؟

فقال: هذا خبر <sup>(١)</sup> يخبر سبحانه بتوفيق الله لنبيه، لمعرفة <sup>(٢)</sup> بما جهله غيره في الأحكام؛ والرأي في جميع أمور أهل الإسلام، فيقول سبحانه: لو أطاعكم الرسول في ما همون وتريدون، وتشاءه قلوبكم وتظنون، من طرق كثيرة، وأسباب تميلون <sup>(٣)</sup> إليها جليلة، من حجة <sup>(٤)</sup> وعصية، لقد عنتم، ومعنى العنوت هو: هلكتم عند الله وعطبتم، ثم أخبر سبحانه بمتته عليهم في أياديه العظيمة لديهم، في ما من به فيهم، من تحييب الإيمان إليهم، وإدخاله في قلوبهم، وتبغيض ما كانوا عليه أولا من الكفر إليهم، وإخراج كل ما كانوا فيه بُدْيًا من صدورهم، حتى عادوا لجهالتهم الأولى مبغضين، ولما دخلوا فيه من محض الحق محبين، حتى <sup>(٥)</sup> صاروا برحمة الله للرسول مطيعين، وعن عصيانها نازحين، فصاروا <sup>(٦)</sup> لله من بعد العداوة أولياء، ويحقائق الإسلام من بعد الكفر أنقياء.

(١) كمال الآية: ﴿... لَعَنْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَصَغَّرَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ...﴾.

(٢) سقط من (أ): هذا خبر.

(٣) في (ب): ومعرفة.

(٤) في (أ): يقتلون. مصحفة.

(٥) في (أ): وحية.

(٦) في (ب): وحتى.

(٧) في (أ): وصاروا.

٢٨٧) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٢٩]

فقال: هذا أمر من الله سبحانه لنبيه وللمؤمنين، في من تشاجر وخرج بالجهل والمعصية إلى ما ذكر الله من القتال، فأمرهم إذا صارت فتتان من المؤمنين إلى هذا الحد أن يصلحوا بينهما، فيمنعوهما<sup>(١)</sup> من التقاطع في فعلهما، فإن بغت إحداها على الأخرى<sup>(٢)</sup> وأبت القبول، وأقبلت الأخرى إلى الحق في الفعل والقول، قاتلوا التي تبغي وتأبى، حتى تفيء إلى الحق والتقوى، والمقاتلة فهي: المحاربة بالظن والضرب والرمي، أبدا حتى ترجع إلى ما خرجت منه من النصفة، وترك ما صارت إليه من البغي والحمية، ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ومعنى ﴿بِالْعَدْلِ﴾ فهو: بالحق، ومعنى قوله<sup>(٣)</sup>: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ فهو: تحروا الحق في ذلك واعدلوا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: يحب العادلين المحقين، وقوله: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ يدل على أنه أراد فإن لم تف فقاتلوهما، حتى تفنوها وتهلكوها وتببروها، أو ترجع إلى الحق الذي منه خرجت، وترك الباطل الذي فيه دخلت.

٢٨٨) وسأله عن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِشَرِّ الْأَسْمَاءِ الْمُسَوِّقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]

(١) في (أ): ومنعوهما.

(٢) سقط من (ب): على الأخرى.

(٣) في (ب): قول الله.

فقال: معنى ﴿لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هو لا يقع بعضكم في بعض بالباطل، ولا يؤذيه <sup>(١)</sup> بالكذب، والوقية فيه <sup>(٢)</sup> بالمحال، ومعنى ﴿لَا تَنَابِزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ فالتنايز هو: التداعي بالألقاب، وتسمية بعضهم بعضا بها، والألقاب فهي أسامي مكروهة عند الناس، ينبز بها بعضهم بعضا ليتقصه بذلك، فنهى الله من <sup>(٣)</sup> كان كذلك، عن العودة إلى ما يورث الشحناء، ويوقع البلية أهل التقوى، ثم ذكر سبحانه أن من فعل هذا بعد أن نهاء عنه، فقد دخل في اسم الفسوق بالمعصية لله، إذ نهاء عن ذلك، فقال: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يقول: بشئ الرجل رجل عصي، فسمي بعد ما كان مطيعا بفعله ومعصيته فاسقا، فبئس البذل من تبدل الفسق بالإيمان، ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول سبحانه <sup>(٤)</sup> من لم يتب عما نهى عنه من التنايز وغيره، فهم الظالمون لأنفسهم، بما أوقعوها فيه من الهلكة عند الله على فعالهم.

(٢٨٩) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ... إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ ثَوَابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]؟

فقال: هذا نهى من الله سبحانه لعباده عن سوء الظن بإخوانهم <sup>(١)</sup> المؤمنين، الذين قد عرفوا منهم محض الإيمان، وأيقنوا منهم بترك معاصي الرحمن، ثم أخبر سبحانه أن من ظن بأخيه المؤمن ما قد علم منه خلافه من التقوى، فقد دخل في

(١) في (ب): وتؤذوه.

(٢) سقط من (ب): فيه.

(٣) في (ب): فنهى عن من.

(٤) سقط من (أ): سبحانه.

(٥) في (ب): في إخوانهم.

الإثم والردى، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ يريد<sup>(١)</sup> سبحانه: ولا تجسسوا من طريق طلب العيب من إخوانكم، والبحث<sup>(٢)</sup> أن تجدوا لهم عيوباً تغيبونهم بها<sup>(٣)</sup>، من بعد أن قد شهدتم بالإيمان لهم، وأقررتهم بالقوى لهم، فهذا الذي نهى الله المؤمنين أن يتجسسوا عليه وفيه وله.

فأما من كان ذا تهمة من أهل الزلة والعثرة، والدخول في ما<sup>(٤)</sup> يسخط الله من المعصية، فالتجسس عليه واجب ليظفر به، ويشهد<sup>(٥)</sup> على فعله، فتقام واجبات حدود الله عليه في صنعه، فيكون ذلك نكالا له ولغيره من شكله، وأما قوله: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فهو: نهى<sup>(٦)</sup> منه سبحانه عن أن يقع بعضهم في بعض، أو يرميه<sup>(٧)</sup> بالباطل والبهتان، أو بالظن<sup>(٨)</sup> الكاذب في بعض الشأن<sup>(٩)</sup>.

ثم قال سبحانه: ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ بالاغميائه له من ورائه<sup>(١٠)</sup>، وجعلها بيان في كل معنى، وفي ذلك ما يروى عن رسول الله صلى

(١) في (أ): يقول.

(٢) في (ب): والحب.

(٣) في (ب): تغيبوا بها.

(٤) في (ب): فيها.

(٥) في (ب): وليشهد.

(٦) في (ب): ينهى.

(٧) في (أ): من ورائه.

(٨) في (أ): والبهتان بالظن.

(٩) في (أ): الإنسان.

(١٠) في (ب): من وري.

الله عليه وعلى آله أنه قال: ( إن الله ييغض البيت أكل اللحم )<sup>(١)</sup>، يريد: الذي يُوقَع فيه بالمؤمنين، ويغتابون ويؤذون، وبالباطل فيه يرمون، وفي ذلك<sup>(٢)</sup> ما روي عنه صلى الله عليه ( حين رجم ماعز بن مالك الأسلمي الذي أقر عنده بالزنا فرجمه، ثم انصرف والمسلمون معه<sup>(٣)</sup>، فقال طلحة والزبير: انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم يستر على نفسه حتى رجم مرجم الكلب، فسمعها رسول صلى الله عليه وعلى آله فسكت عنها، حتى أجاز بجيفة حمار شاغر برجله فوقف، ثم قال لهما: اتزلا فأصيبا من هذه الجيفة، فقالا: نعيذك بالله يا رسول الله، أنا أكل الميتة ونصيب منها؟! فقال صلى الله عليه: لقد أصبتهما من أخيكما أنفا أعظم مما تصيبان من هذه الجيفة، إنه الآن ينقص في أنهار الجنة )<sup>(٤)</sup>، يريد: لما أصبتهما من ماعز بن مالك من الأذية والاعتياب، أعظم عند الله من أكلكما هذه الميتة، لأن الله سبحانه قد حرم اغتياب المؤمنين، كما حرم أكل الميتة، ثُمَّ للمؤمنين حرمة ليست للميتة<sup>(٥)</sup>، فمن عصى الله بقطيعة رحم<sup>(٦)</sup> ذي حق، فاغتياه أعظم من إصابته من الميتة المحرمة، التي لا حرمة لها مع تحريمها.

- 
- (١) أخرج البيهقي من طريق غياث بن كلوب الكوفي، مطرف، عن سمرة بن جندب، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الله ييغض البيت اللحم » فسألت مطرفاً ما يعني باللحم؟ قال: الذي يغتاب فيه الناس. الدر المنثور ٥٧٦/٧.
- (٢) في (ب): بالباطل ويرمون به. وفي (أ): كذلك وفي ما روى.
- (٣) في (ب): ثم انصرف المسلمون فقال.
- (٤) أخرجه عبد الرزاق، والبخاري في الأدب، وأبو يعلى، وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان. الدر المنثور ٥٧٣/٧.
- ورواه المنذري في الترغيب والترهيب ٥٠٩/٣، وقال: رواه ابن حبان في صحيحه.
- (٥) في (ب): للميت.
- (٦) سقط من (ب): رحم.

٢٩٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ...

إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]؟

فقال: هذا إخبار من الله من الله سبحانه، وشهادة منه على أن الإيمان: قول مقول، وعمل معمول، واعتقاد في العقول، وتكذيب لمن قال بغير ذلك، من أن الإيمان قول بلا عمل، فأخبر سبحانه أن الأعراب الذين قالوا: وأقروا وصدقوا ولم يعملوا، أنهم في قولهم أنهم مؤمنون مبطلون كاذبون، وأمرهم أن يقولوا: أسلمنا، ومعنى ﴿أَسْلَمْنَا﴾ فهو<sup>(١)</sup>: صدقنا واستسلمنا للحكم، ألا ترى كيف قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يريد: لم يصح الإيمان لكم، ولم يدخل في قلوبكم بالقول دون العمل، فلستم<sup>(٢)</sup> من المستسلمين العاملين<sup>(٣)</sup>، ولستم من المؤمنين المخلصين.

ثم أخبرهم سبحانه أنهم إن تابوا ورجعوا إلى العمل فعملوا بعد القول، واعتقدوا طاعة ذي الجلال والطور، فعملوا بأمره كله، وانتهوا عن نفيه كله، وكانوا مع إقرارهم بالوحدانية له<sup>(٤)</sup> عاملين مجتهدين، كانوا من بعد ذلك عندهم من المفلحين، وصح لهم به<sup>(٥)</sup> اسم المؤمنين، وذلك قوله: ﴿لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ يريد: لا ينقصكم من جزاء أفعالكم وسعيكم، ولو كان كما يقول أهل الجهل والبهتان أن الإيمان قول بلا عمل، لما قال: ﴿لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾،

(١) في (أ): هو.

(٢) في (أ): ولستم.

(٣) في (أ): القائلين.

(٤) سقط من (ب): له.

(٥) سقط من (أ): به.

ولما قال للأعراب <sup>(١)</sup> الذين وحدوا وشهدوا بالشهادتين، وصدقوا وجاهدوا، ولم يعملوا بكل الفرائض: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُتِلَ لَمْ تُوْثِقُوا﴾، يريد سبحانه: لن تكونوا أبداً مؤمنين، حتى تكونوا بالفرائض كلها عاملين.

(٢٩١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْمَلُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩١﴾

[الحجرات: ١٧] ٩

فقال: هذا ذم من الله سبحانه لمن من على رسول الله صلى الله عليه وآله بالطاعة له <sup>(٢)</sup>، والمعاونة والقيام فيما أوجب الله عليه، فأخبر الله <sup>(٣)</sup> سبحانه أن من يمين بطاعة رسول الله، أو بالدخول في طاعته، والقيام بواجب فرض الله، مخطئ في فعله، عاصي لربه، منقص لدينه، غير شاکر لنعمة خالقه، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يبين لمن كان كذلك، أو فعل شيئاً من ذلك، فيعلم أنه ليس على رسوله له في إسلامه مئة، فإنه لم يفعل في ذلك إليه حسنة، ثم أخبر أن المنة على من فعل ذلك لله ولرسوله، إذ هداه إلى النجاة، وخلصه من الهلكة، حتى صار من أهل الجنان، بعد أن كان من حطب النيران، وحتى صار برحمة الله ومته لله وليا مستوجبا لثوابه، بعد أن كان لله حرباً عدواً مستأهلاً لعقابه.

ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أنكم مؤمنون، وفيما تدعون من الإخلاص، فأقروا بما قلنا،

(١) في (ب): ولما قال قالت الأعراب الذين ..

(٢) سقط من (ل): له.

(٣) سقط من (ب): الله.

واخضعوا لحقنا، فإن لم تقروا بذلك وتخضعوا، فلستم بصادقين فيما تدعون من الإيمان، وتنبون إليه أنفسكم من الإخلاص للرحمن، وهذه الآية نزلت في بعض من كان مع النبي صلى الله عليه، من كبار قريش، كان عتب عليه النبي في بعض أفعاله، ومن على النبي بإسلامه واتباعه له، وقيامه معه ونصره له، فأنزل الله عز وجل فيه ما تسمع، وأوقع عليه في ذلك من الذم ما أوقع<sup>(١)</sup>.



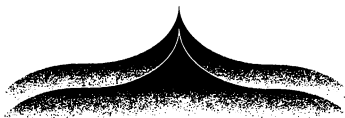
(١) أخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه بسند حسن، عن عبد الله بن أبي أوفى، أنا أناسا من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿يَمْحُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا... الآية﴾. وأخرج النسائي، والبخاري، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: جاء بنو أسد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك، فنزلت هذه الآية ﴿يَمْحُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: جئناك ولم نقاتلك فأنزل الله ﴿يَمْحُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن قال: لما فتحت مكة جاء ناس، فقالوا: يا رسول الله إننا قد أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿يَمْحُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

وأخرج ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول سنة تسع وفيهم حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، ووابطه بن معبد، وقتادة بن القافض، وسلمة بن جيش، وقتادة بن عبد الله بن خلف، وطلحة بن خويلد، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا قد شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنت عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن ورامنا سلم، فأنزل الله ﴿يَمْحُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا... الآية﴾. الدر المنثور ٧/ ٥٨٥.





# تفسير

## سورة ( ق )





## ومن سورة ق

(٢٩٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿ق.. إلى قوله: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١-٢٩]؟

فقال: ﴿ق﴾ هو جبل كريم، جعل الله فيه بركة وخيرا عظيما، ويقال: إنه أكبر جبال الدنيا، أعظمها عظمًا، وأبعدها أمدًا، وأشدّها ارتفاعًا، ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ هو قرآن محمد صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿الْمَجِيدِ﴾ فهو: العظيم الكريم، ﴿بَلَّ عَجِبُوا﴾ معناها: لقد عجبوا، وهو جواب القسم بـ ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾<sup>(١)</sup> فقامت الباء مقام اللام، والمعنى فهو: باللام، ﴿أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، فالمنذر هو: محمد صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿مُنْذِرٌ﴾، فهو: خوف معذر، بين يدي عذاب الله ونقمه، وأخذه ويطشه.

(٢٩٣) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا

كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ [ق: ١١]؟

فقال: يخبر سبحانه أنه يعلم بكل ما تنقص الأرض، ممن يقع في جوفها من موتاهها، فأخبر أنه يعلم ما تأكل منهم الأرض، وما يبقى من ترابهم ورميمهم، ومعنى قوله: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ يقول: عندنا من ذلك علم محفوظ، حتى نردّهم من حيث ما كانوا، أو نجعل أجزأهم وأعضاءهم من حيث ما توجهوا، حتى نلزم بعضها إلى بعض، من حيث ما كانت من الأرض.

(١) في (أ): وبالقُرآن.

(٢٩٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٢٦)؟

فقال: تزيينها فهو: بما فيها من النجوم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٥)، ومعنى قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ هو: وما فيها<sup>(١)</sup> من فروج، فقامت اللام مقام في، لأنها من حروف الصفات، وحروف الصفات<sup>(٢)</sup> يعقب بعضها بعضاً، والفروج فهي: الفتوق والشقوق، والاختلاف بالفطور، فأخبر سبحانه أنها مستوية ليس فيها من ذلك شيء، وأصل ما أراد بذكر السماء وأمرها، وما جعل فيها من زيتها، ونفى عنها من فطورها، أنه أراد سبحانه: أفلا توقن، يريد: يا هذا من فعلنا بقدرتنا، على ما أنكروا بما ذكرنا له من حشرنا لعبادنا، وبعثنا البشر، من فعل ما فعل في السماء، بقادر على أن يحشر ويعيد الأشياء.

(٢٩٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتًا وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (النحل: ١٠١)؟

فقال: هذا مثل قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، فأخبر أنه أنزل من السماء ماء فأنبت به ما أنبت، من الجنان والحب الحصيد، والنخل الباسقات ذوات الطلع النضيد، وأما معنى قوله: ﴿جِبْتًا﴾ فالجنات هي: البساتين والحدائق ذوات الإلتفاف، والثمار والإلتفاف، ذوات الأنهار الجاريات،

(١) في (ب): ما فيها.

(٢) سقط من (ب): وحروف الصفات.

(٣) في (أ): ﴿حي أفلا يؤمنون﴾.

والنار المذللات، اللواتي قد جمعن كل النار، وجرت فيها بينهن وخلاهن الأنهار، فما كان هكذا فالعرب تسميه جنانا، فعلى ذلك يخرج ما سمي حصيد اليسة وبلوغه واستحصاده، فكل شيء بلغ غايته وينع<sup>(١)</sup> تسميه العرب مستحصدا، وحصيدا، أي: قد جاء وقت حصاده وقطعه، وبلغ غاية<sup>(٢)</sup> ما ينتظر به وأخذه.

ومعنى قوله: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، فالباسقات هن: الطوال المشرفات<sup>(٣)</sup> المرتفعات الساميات، ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ فالطلع هو: هذا الطلع الذي يخرج في النخل المعروف، ومعنى ﴿نَضِيدٌ﴾ فهو: منضود بعضه على<sup>(٤)</sup> بعض، مُدَاخِلٌ بعضه في بعض، مجتمع متقارب، وتلك صفته ما دام في أكمائه، حتى تتفلق عنه أغشيته، ثم تفرق من بعد التناضد شاريحه، وتتباعد خيطاته.

٢٩٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالنَّخْلِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥؟]

فقال: هذا تقرير من الله للكافرين، وإخزاء منه بالتبكيث للمكذبين، الذين كذبوا النشأة الآخرة<sup>(٥)</sup>، وأنكروا ما ذكر من<sup>(٦)</sup> البعث والقيامة، وكبر ذلك في صدورهم، ولم يوقنوا برد الأبدان بعد بلائها وفنائها، وتفرقها<sup>(٧)</sup> في الأجداث

(١) في (أ): وبلغ. مصحفة.

(٢) في (أ): غايته وما.

(٣) في (ب): المشرفات الطوال.

(٤) في (ب): إلى.

(٥) في (ب): الأخرى.

(٦) في (أ): في.

(٧) في (ب): وتفرقها.

وذعابها، فقال سبحانه: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ ١٩ يريد: إن كان الخلق الأول أعيانا وأتعبنا، فسيعيننا إعادته في النشأة الآخرة، وإن لم يكن بُدُوْ خلقكم أعيانا، فإن ردكم هو أهون من ابتداءكم علينا، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي <sup>(١)</sup> بل هم في شك من ردنا لهم بعد البلاء في خلق جديد.

(٢٩٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ <sup>(٢)</sup> وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ <sup>(٣)</sup> [ق: ١٨-١٩]

فقال: يخبر الله <sup>(٢)</sup> سبحانه بحفظ الحفظة له، الذين عن يمينه وعن شماله <sup>(٣)</sup>، وهما الملكان اللذان ذكر الله أنهما <sup>(٤)</sup>: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ <sup>(٥)</sup> [ق: ١٧] يحفظان عليه كل لفظه وفعله، وهما الرقيب العتيد، الذي مع كل آدمي، والرقيب فهو: المحصي لفعل كل فاعل، والعتيد فهو: الثابت الراتب الذي ليس بمفقود، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ <sup>(٦)</sup> فهي: غشية الموت <sup>(٧)</sup> وشدته، وإزالته لعقل الميت وكربته، فشبّه الله زوال عقل الميت وكربته <sup>(٨)</sup>، وما ينزل به من غشيته، بالسكرة التي تذهب العقل وتفسده <sup>(٩)</sup>.

(١) في (ب): يريد.

(٢) سقط من (ب): الله.

(٣) سقط من (ل): وعن شماله.

(٤) سقط من (ل): أنها.

(٥) سقطت من (ب): وجاءت.

(٦) سقط من (ل): الموت.

(٧) في (ب): لكربه.

(٨) في (ل): بالعقل وتفسد العقل.

والعرب تمثل كل شدة أزال عقل صاحبها بالسكر، تقول: مرت بنا من هذه الأمور سكرات بعد سكرات، تريد: شدائد حالات بعد حالات، ومعنى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ فهو: بحقائق ما وعد الله. من ذلك قوله <sup>(١)</sup>: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، التكوير: ٥٧]، فجاء وعد الله على حقائقه <sup>(٢)</sup>، ونزل بأهله على يقينه وصدقه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يقول: ذلك ما كنت منه يا هذا الميت تحيد <sup>(٣)</sup>، ومعنى ﴿تَحِيدُ﴾ فهو: تفر منه وتكره قربه، ولا تريده نفسه.

(٢٩٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾  
لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ  
﴿ق: ٢١-٢٢﴾

فقال: هذا في يوم القيامة، عند خروج الخلق من قبورهم، ومصيرهم إلى حشرهم، ووقت حسابهم، حينئذ تأتي كل نفس ومعها <sup>(١)</sup> ما ذكر الله من السائق والشهيد، والسائق والشهيد فهو: الرقيب الذي ذكر الله العتيد، وهما الملكان اللذان قال الله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فهما يشهدان عليه ويسوقانه، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ يقول <sup>(٢)</sup> سبحانه: قد كنت لتكذيبك <sup>(٣)</sup>، وقلة نظرك لنفسك، والإعراض عن العمل في الدنيا، بما يخلصك في هذا اليوم في غفلة، والغفلة فهي: من التارك للعمل.

(١) في (أ): وقوله.

(٢) في (أ): حقائق.

(٣) في (أ): ما كان منه هذا الميت يجيد، ومعنى يجيد.

(٤) في (أ): معها.

(٥) في (أ): فيقول.

(٦) في (ب): بتكذيبك.

معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ فهو: <sup>(١)</sup> بها أظهر له من المعاينة لما كان فيه شاكاً <sup>(٢)</sup>، وعن العمل له معرضاً <sup>(٣)</sup>، حتى رآه عياناً، وواجهه صراحاً، ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ فهذا مثلٌ مثلٌ به الله له، يريد به <sup>(٤)</sup> إنك كنت من قبلُ تكذب بهذا وبرؤيته، فقد أصبحت اليوم حديد البصر بمعانيته، وزال <sup>(٥)</sup> عنك الخبر، ووقع العيان.

٢٩٩) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [٢٢:٢٣]

قال: القرين الذي يقول هذا، فهو: صاحب الفاسق المغوي له في الدنيا، والمشارك له في الإثم، من جنس موسوس مغوي، أو إنسي رديء فاجر مؤذي، معنى ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ فهو: ما عندي ولي، مما أستوجه به فعلي، ﴿عَتِيدٌ﴾ فهو: مقيم، وهو عذاب الله الأليم النازل به، وبقرينه المشارك له في آثامه.

٣٠٠) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [٢٨:٢٨-٢٩]

فقال: أخبر <sup>(٦)</sup> سبحانه باختصاص الفاجر وقرينه، وتلاومه هو ونظيره، فكان من رد الله عليهما، حين كان عنهما ما كان من قولهما، أن <sup>(٧)</sup> قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾

(١) في (ب): هو.

(٢) في (ل): شاك.

(٣) في (ب): عن العمل. وفي (ل): معرض.

(٤) سقط من (ل): به.

(٥) في (ل): زال.

(٦) في (ل): فأخبر.

(٧) سقط من (ب): أن.

يقول: لا تختصموا اليوم<sup>(١)</sup> عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ يقول: قد قدمت إليكم بالإعذار والإنذار، والوعيد لهذا النهار، فلم ينفعكما إعذاري، ولم يردعكما عن<sup>(٢)</sup> المعصية وعيدي، فالיום لا يبدل القول لدي، وتبديله فهو: تحريفه، والتحريف فهو: من الكافرين عند تخصمهم، يقول بعضهم لبعض: هذا بأفعالكم، وهذا<sup>(٣)</sup> بأسبابكم نزل بنا، وحق علينا وعيد ربنا، ويقول الآخرون مثل مقاتلتهم، وينسبون سبب ذلك إليهم، فكل يطرح الذنب على صاحبه، ويحيل الإغواء عليه<sup>(٤)</sup>.

(٣٠١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ

مِنْ مَزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠)؟

فقال: هذا اليوم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ هو قوله لخزنتها: هل امتلأت؟ وكذلك قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، لما أن كان الخزنة من أسبابها، جاز أن يطرح الخزنة ويكون الخطاب لها، على مجاز الكلام، وهذا في القرآن<sup>(٥)</sup> موجود وفي اللغة. ومثل ذلك من كتاب الله<sup>(٦)</sup>، قوله سبحانه: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ يُكْفَرُهُمْ﴾ (البقرة: ٩٣)، والعجل لا يشرب في القلوب<sup>(٧)</sup>، وإنما الذي شربه القلب

(١) سقط من (أ): اليوم.

(٢) سقط من (أ): قد.

(٣) في (ب): من.

(٤) في (ب): وهو.

(٥) سقط من (ب): عليه.

(٦) في (أ): الكلام موجود في ...

(٧) في (أ): كتاب الله كثير وقوله.

(٨) في (ب): القلب.

حبه، فأراد: أشرىوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حبه، وأقام العجل مقامه، إذ كان من سببه.

يقول الشاعر:

ألا إنني سقيت أسود حالكا      الأبعلي من الشراب الأبعلي<sup>(١)</sup>

فقال: سقيت أسود، والأسود لا يسقاه أحد، وإنما سقي<sup>(٢)</sup> سم الأسود، فطرح السم وأثبت الأسود مكانه، إذ كان من سببه، والشاهد على ذلك من كتاب الله سبحانه أيضا قوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢)، والقرية فإنها هي: البيوت والأبنية، وليس شيء من هذا يُخاطب ولا يُسأل، وإنما أراد أهل القرية وشأنها<sup>(٣)</sup>، فطرح الأهل والسكان إذ كانوا من سبب القرية، وأثبت القرية، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ أراد: لخنزة جهنم، فطرح الخنزرة إذ كانوا من سبب جهنم، وأثبت جهنم، فجاء المعنى<sup>(٤)</sup> كأن المخاطبة لجهنم، وإنما المخاطبة لخنزرتها والقومة بها.

٣٠٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٠٣﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ يَلْقَيْهِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٠٤﴾ (ق: ٣٠١-٣٠٣)؟

فقال: ﴿أُزْلِفَتِ﴾ معناها: كرمت وشرفت، وقربت منهم وقربوا منها، وهذا

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ل): أحد وسهو سم.

(٣) في (ب): وسكانها.

(٤) في (ل): المتأدي.

مشتق من الزلفاء، والزلفاء فهي: الكرامة والخاصة <sup>(١)</sup> العالية، ومعنى ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ فهو: خَشِيَهُ في الغيب، والغيب فهو: ما غاب عن الناس واستتر، من ضمير القلوب، أو عمل مستور، ومعنى ﴿جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ فهو: جاء يوم القيامة بقلب نائب راجع، وقد رجع في دنياه إلى الله، وأناب إلى طاعة الله، (فكان لها في دنياه من العاملين، ورجع إلى الله وهو من النبيين المكرمين) <sup>(٢)</sup>.

٣٠٣ وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ... إلى قوله: وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿ق: ٣٦-٣٧؟﴾

فقال: معنى ﴿تَسْبُّوا﴾ هو: ركضوا فهربوا <sup>(٣)</sup> خوفا من العذاب فلم يغنهم ذلك، ولحقهم من الله النقم والمهلك، معنى قوله: ﴿هَلْ مِنْ مُّجِيبٍ﴾ هو: هل وجدوا من الله محيصا؟! ومعنى ﴿مُّجِيبٍ﴾ فهو: مهرب وملجأ <sup>(٤)</sup> يجيئون إليه، أو يروغون إليه، أو يلتون <sup>(٥)</sup> نحوه، ﴿لَذِكْرِكُمْ﴾ يقول: تذكرة وعبرة، ﴿لِمَنْ كَانَ لَمُدَّ قَلْبٍ﴾ أي: من كانت له فكرة ونظر، واستعمال للتمييز بعقله إذا فكر، معنى ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾ فهو: ألقى بالطاعة إلى الله ورسوله، فسمع لأمر الله وأطاع، وكان لأحكام الله ذا قبول واتباع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول: شاهد الله بالحق، قاتل فيه بالصدق، يشهد أن ما جاء به نبيه من الله، وأنه أنزل بأمر الله، وأنه من عند الله.



(١) في (أ): بالخلاصة.

(٢) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٣) في (ب): وهربوا.

(٤) في (ب): مهابا وملجأ.

(٥) في (أ): يروغون إليه أو يلحون نحوه.





# تفسير سورة الذاريات





## ومن سورة الذاريات

٣٠٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذَرِيَّتِ ذَرْوًا ۝﴾ ... إلى قوله: لَوْ قِيعُ

﴿الذاريات: ١-٦﴾؟

فقال: ﴿الَّذَرِيَّتِ﴾ هي: الرياح اللواتي تذرى ما تذرى من التراب وغيره، مما تحمله الرياح وتذروه، ﴿ذَرْوًا﴾<sup>(١)</sup> فهو: تأكيد للذروها، وتعجيب لأمرها<sup>(٢)</sup>، وهو كقول الرجل: فلان يضرب ضربا شديدا، وفلان جرى جريا، ﴿الْحَمِلَتِ وَقِرًا ۝﴾<sup>(٣)</sup> فهي<sup>(٤)</sup>: السحاب، والوقر فهو: ما فيهن من الماء، ﴿الْجَرِيَّتِ يُسْرًا ۝﴾ فقد قيل إنهن: السفن، و﴿الْمُقَسِّمَتِ أَمْثَرًا ۝﴾<sup>(٥)</sup> فهي<sup>(٦)</sup>: الملائكة التي تقسم رحمة الله بأمره، وتسوق أرزاقه<sup>(٧)</sup> إلى خلقه، من ماء السماء الذي به حياة جميع الأشياء، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝﴾ هو: جواب القسم بما أقسم الله به من هذه الأشياء المتقدمة، فأخبر أن وعده حق، وأن قوله في ذلك كله صدق، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْ قِيعُ ۝﴾<sup>(٨)</sup> الدين فهو: الجزاء، والجزاء هو: يكون في يوم الدين، ويوم الدين فهو: يوم حشر العالمين، وفي ذلك يقع الدين، والدين فهو: ما ذكرنا من أنه الجزاء للخلق على أفعالهم، يجازى ويدان أهل المعاصي بعذاب النيران، ويدان ويجازى أهل الإيمان بالثواب الكريم في الجنان، ومعنى قوله: ﴿لَوْ قِيعُ﴾ هو: واقع بأهله، حاك بمسأله.

(١) في (أ): ذروا شديدا.

(٢) في (ب): أمرها.

(٣) في (أ): وهن.

(٤) في (أ): فهي.

(٥) في (ب): رزقه.

(٣٠٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ **﴿١﴾** إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ **﴿٢﴾** يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ **﴿٣﴾** قُتِلَ الْخَرَّصُونَ **﴿٤﴾** الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ **﴿٥﴾** [الذريات: ٧-١١]؟

فقال: **﴿الْحُبُوبِ﴾** هو: الاستواء والإنحباك، والمنحك من الأشياء فهو: المعتدل المستوي، الذي لا إخلال فيه ولا افتراق، **﴿إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ﴾** يقول: إنكم لفي آراء وأقوال ومذاهب مختلفة لا تجتمعون على الحق، ولا تقولون ما يجب، من كلمة الصدق، **﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾** معنى **﴿يُؤْفِكُ﴾** فهو: يعجز عن قول حقه، واتباع صدقه، مَنْ عجز، والعاجز هاهنا من قبوله فهو: المكذب بما سمع من قبله، **﴿قُتِلَ الْخَرَّصُونَ﴾** معناها: لعن الخراصون، والخراصون فهم: الكاذبون المتقولون على أهل الحق بالباطل، الذين ينطقون فيهم من المنكر ما ليس فيهم، ويقولون بالمحال والكذب عليهم، **﴿فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾** أي: في غفلة، ويحور جهالة، **﴿سَاهُونَ﴾** أي: معرضون غافلون عما يجب عليهم في تكذيبهم، وعما هو نازل بهم من العقوبة على كفرهم.

(٣٠٦) وسأله عن قوله الله سبحانه: **﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾** **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾** [الذريات: ١٢-١٣]؟

فقال: معنى **﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾** هو: إخبار من الله عن قولهم، وذلك أنهم كانوا يقولون: أيان يوم الدين؟ ومعنى **﴿أَيَّانَ﴾** أي: متى يوم الدين؟ وأي يوم الدين الذي تصف يا محمد؟ والدين فهو: الجزاء، فقال الله تبارك وتعالى: **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾** يريد: هذا اليوم الذي يسألون عن وقته، ويكذبون بك وبه، هو: **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾**، ومعنى **﴿هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾**:

هم في النار يفتنون، فقامت ﴿عَلَى﴾ مقام (في)، ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ فهو: يعذبون، فأخبر الله أن يوم الدين عذابهم في النار وخزيهم، وحين ملاقاتهم لسوء فعلهم.

٣٠٧) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ﴿اللهم: ٢٢-٢٣؟﴾

فقال: يريد أن في السماء ومن السماء، ينزل الماء الذي منه حياة كل شيء، وصلاح أرزاق كل شيء، من الثمار والأشجار والزرع مما يأكله الأنعام، وتعيش به سوائم الأنعام، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يخبر أن من السماء ينزل عليكم كل وعيد، من العذاب الفادح الشديد المهلك العتيد، ثم أقسم سبحانه أن كل ما ذكر وعدد لنا، وحذر من البعث والحساب والثواب والعقاب، وهبوط الأرزاق، حق كما أنكم تنطقون حقاً، لا شك فيه ولا امتراء.

٣٠٨) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾... إلى قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿اللهم: ٢٦-٢٧﴾<sup>(١)</sup>

فقال: ضيف إبراهيم هم الملائكة التي أرسلها الله إلى لوط تنجيهِ وأهله، وتهلك قومه الذين يعملون السيئات، أتوا إلى عند إبراهيم بُدِيًّا، فقالوا: سلاماً، سلموا عليه فرد إبراهيم عليهم السلام، ثم قال: ﴿قَوْمُ شُكْرُونَ﴾ أي: لا نعرفكم من أهل دهرنا، ونحن ننكر خليقتكم وصوركم، ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ يقول: عطف إلى أهله ومنزله، ﴿فَجَاءَ - إِلَى الْقَوْمِ - بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي، يطعمهم إياه، فوضعه بين أيديهم، ثم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ فلما رأى - صل الله عليه - أيديهم لا تصل

(١) كمال الآيات: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ شُكْرُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ...﴾.

إليه كما ذكر في غير هذه السورة: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، والخيفة فهي: الفرع والمخافة، ومعنى ﴿أَوْجَسَ﴾: أحس منهم بالحق، وعلم عند ذلك أنهم ملائكة. فقالوا له: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَنِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ (الذاريات: ٢٨)، بإسحاق صلى الله عليه، فوهب الله له إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام، كما قال في غير هذه السورة.

(٣٠٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾... إلى قوله: ﴿كَأَلْزَمِيمٍ﴾ (الذاريات: ٣٨-٤٢)؟<sup>(١)</sup>

فقال: يريد وفي موسى: آيات وعبرة، إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. يريد: بحجة وبرهان مبين، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ يريد: بجانبه، أي: حَوْل وجهه. وثنى شقه وجانبه<sup>(٢)</sup>، ملتفتا عن موسى، معرضا عما جاء به من الهدى، ناسبا ما جاء به موسى إلى السحر والجنون، وهذا شيء يفعلُه الجبابرة المتكبرون، الفراعنة الطاغون، فإذا سمعوا ما لا يحبون، وواجهوا ما لا يريدون، صدوا بأحد جانبيهم، ولووا وجوههم مع منابكهم، منحرفين عن من بذلك يقاربهم.

معنى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ أي: أوقعناه وجنوده في النقم، معنى ﴿فَتَبَدَّنَهُمْ فِي آلِيمٍ﴾ أي: رمينا بهم في اليم، واليم فهو: البحر المالح الأعظم، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ معنى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: مستوجب للعقوبة بفعله، مستدعي لدواعي اللائمة إلى نفسه، فاعل لكل ما يلام به، واللائمة هنا فهو: الذنب الذي

(١) الآيات كاملة: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ ﴿وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جُنُودٌ﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْزَمِيمِ﴾ (الذاريات: ٢٨-٣٢).

(٢) في (١): وجانبها. مصحفة.

عوقب عليه، ولأمره الله فيه، وعاقبه عليه، وقد قيل: إن المليم هو: الصامت المتحير الباهت، يرى من الأمر ما قد بهته وأفزعه، والقول الأول أحبهما إليّ، وأصحهما عندي، ﴿وَفِي عَادٍ﴾ يقول: وفي عاد آية وعبرة وتذكرة، لمن أراد التذكرة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، و﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ فهي: ريح العذاب الشديد الأليم، الذي لا فسحة معها، ولا فرج فيها، ولا تقيس<sup>(١)</sup> لمن استوجبها، فلما أن لم يكن فيها راحة<sup>(٢)</sup>، ولا تخفيف ساعة واحدة، قيل: هي عقيم من الفرج والراحة، أي: لا فرج فيها، كما يقال: رجل عقم وامرأة عقيمة، وهما اللذان لا يلدان ولا يكون منهما ولد، فكذلك هذه الرياح الشديدة العظيمة التي لا راحة فيها، ولا يكون منها سكون طرفة عين عن أهلها، حتى تدمر كل ما أتت عليه، معنى إلا جعلته كالريم: يقول: ضربته وطحته وأبادته، حتى تركته مثل الريم، والريم فهو: الحشيش البالي القديم العهد بالحياة، الذي قد بلى واسودَّ<sup>(٣)</sup> وفني، ولم يبق فيه إلا فئات لا منفعة فيه.

٣١٠) وسألته عن قول الله سبحانه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ...﴾ إلى قوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٩]؟

فقال: معنى بنيناها هو: جعلناها وخلقناها، وقدرناها سقفا عليكم ودبرناها، ومعنى ﴿بِأَيْمٍ﴾ فهو: بقوة واقتدار، ﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقول: إنا لما لمعظمون موسعون، فهي واسعة عظيمة، طبق على طبق غير ناقصة ولا صغيرة،

(١) في (ل) نفس.

(٢) في (ل) راحة. مصحفة.

(٣) في (ل) واسود.

﴿وَالْأَرْضَ قَرَشْنَهَا﴾ يقول: بسطناها لكم ومهدناها فصارت لكم بتقديرنا فراشا، ولأحيائكم وأمواتكم برحمتنا كفاتا، و﴿الْمَهْدُونَ﴾ فعمتها: الباسطون المسوون، الموطون لصعبها، المسهلون لسبيلها، ومعنى قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يريد سبحانه: إنا خلقنا من كل صنف ذكرا وأنثى، ثم خلقنا منها نسل ذلك الصنف، والمعنى فأخبر سبحانه بأصل التناسل أنه من الزوجين، والزوجان فهو: الزوج والزوجة <sup>(١)</sup> المتزوجان، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لعلكم تتفكرون في قدرة من جعل ذلك، ودبره كذلك، حتى توالد كل صنف من ذكر وأنثى، فيعلموا أن الذي دبر ذلك في الابتداء، قادر سبحانه على أن يحيي الموتى.

(٣١١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾... إلى قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿[النار: ٥٦-٥٩]﴾ <sup>(٢)</sup>

فقال: هذه شهادة من الله وقول بالحق، وإخبار عن <sup>(٣)</sup> فعله الصديق، أنه لم يخلق خلقا إلا لطاعته، والعمل بمرضاته، لا ما يقول الكفرة، فأكذبهم الله تبارك وتعالى بما ذكر في هذه الآية، عن الأكل والشرب والحاجة إلى الرزق، والذي ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء، وهو على خلاف كل شيء، مباين لكل شيء، وهو السميع العليم، ثم أخبر أنه الرزاق غير المرزوق، الذي لا يحتاج إلى المخلوقين، وهم إليه

(١) في (أ): الزوجة والزوج.

(٢) الآيات كاملة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُنْعِمُ عَلَيَّ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُرَّةِ الْكَلِيمُ﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿[النار: ٥٦-٥٩]﴾.

(٣) في (ب): من.

محتاجون، وإلى رزقه وفضله مضطرون، ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ يقول: ذو القدرة والسطوة، ﴿الْمَتِينُ﴾ فهو: القوي العزيز، العظيم المحال، الشديد النكال، ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ يقول: سجال من العذاب واقع بهم، كما نزل بالأولين العاصين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

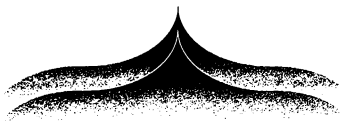
لنا ذنوب ولكم ذنوب      فإن أبيتم فلنا القليب<sup>(١)</sup>

يقول لنا جزء ولكم جزء، ولنا دلو ولكم دلو، فإن أبيتم أن نستقي وتستقون، طردناكم عن القليب وأخذناه كله، والقليب فهي: البئر العادية.



(١) لم أقف على هذا البيت.





# تفسير سورة الطور





## ومن سورة الطور

(٣١٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالطُّورِ﴾ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ ﴿١﴾... إلى قوله: وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٢﴾﴾ [الطور: ١-٢]

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بهذه الأشياء، لما فيها من عظيم الآيات والثناء، والبركة والخير لمن اهتدى، ﴿وَالطُّورِ﴾ فهو: جبل بالشام يسمى: الطور، كثير البركة والخير، ﴿وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾ فهو: كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكور، ﴿فِي رَقٍ مُّشْوَى﴾، والرق فهو: الرق المعروف الذي يكتب فيه المصاحف، ﴿مُشْوَى﴾ فهو: مفتوح معلوم، ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ﴿١﴾ فهي: كعبة الله التي جعلها قبلة للمؤمنين، وهي بكة، وهي بقعة البيت التي في وسط مكة، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ ﴿٢﴾ فهي: السماء المرفوعة، التي جعلها الله سقفا للأرض الموضوعة، ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ فهو: البحر الأخضر المالح الأكبر، ﴿وَالْمَسْجُورِ﴾ فهو: ذو الصوت والهيجان والأمواج، فشبّه الله اضطرابه، وتقلب مياهه، واستدام أمواجه، بالنور المسجور، ﴿وَالْمَسْجُورِ﴾ فهو: الموقد الذي قد تأججت ناره، واستوقدت فيه، فهاج لها صوت لديه، والعرب تقول: اسجر التنور، أي: أوقده. فشبّه الله تبارك وتعالى البحر بالسجير، لتسجير النار في التنور ﴿٣﴾، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

(١) في (ب): واصددام.

(٢) في (أ): البحر بالسجير، بتسجير النار في التنور. وفي (ب): بالسجير البحر، لتسجير النار في التنور.

ولفتت العين من (أ) و (ب).

لَوْقَعُ ﴿٣١٢﴾، فوق القسم على وقوع العذاب، ﴿مَّا لَهُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ ﴿٣١٣﴾ يقول: ما فيه من حيلة، ولا له من مانع، ثم أخبر متى يقع العذاب الذي عليه أقسم، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿٣١٤﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٣١٥﴾، وذلك فهو: يوم القيامة، الذي تمور فيه السماء، ومورها فهو: إعاقها وذهابها وتقطعها، ورجوعها إلى ما منه خلقها ريبا، وفي ذلك اليوم ﴿تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾، ومعنى ﴿تَسِيرُ سَيْرًا﴾ فهو: نسفها عن وجه الأرض، وذهابها من الأرض، كما ذكر الله سبحانه حين يقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: تنقطع وتذهب وتمحق، كقطع السحاب وذهابه، من بعد تجسسه واجتماعه، فهذا معنى ﴿تَسِيرُ الْجِبَالُ﴾.

٣١٣) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿قَوِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٣١٤﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿٣١٥﴾... إلى قوله: أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣١٦﴾ [الطور: ٩-١١-١٥]؟

فقال: هذا إخبار من الله بأن الويل ينزل بالمكذبين، في ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿٣١٤﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٣١٥﴾ [الطور: ٩-١٠]، والويل فهو: العذاب، والمكذبون فهم: الذين كذبوا بها جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ فالخوض هو: التكذيب والمزج والشك والرجس<sup>(١)</sup>، و﴿يَلْعَبُونَ﴾ فهو: يعبثون ويهزءون، ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ معنى ﴿يُدْعَوْنَ﴾ أي: يدفون ويدقون، ويجزون ويضربون، تقول العرب: دَعَّه أي: ادفعه بيدك، والكَزَه بجمعك،

(١) في (أ): والمروج والشك والمزج. مصحفة.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، في الدنيا تمجدون ومواقعتها في هذا اليوم تنكرون، ﴿أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، يقول: هذا سحر كما كنتم تفعلون في الدنيا إذا أنذرتكم بذلك، أم أنتم لا تبصرون ما قد دفعهم فيه، يريد: بلى إنكم لتبصرونه وترونه عياناً، بعد أن كنتم تكذبون به وتنكرون إنكاراً.

(٣١٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]؟

فقال: يريد سبحانه أن كل مؤمن يتبعه ذريته بإيمان مثل إيمانه، ولقيت الله بذلك، فإنهم يلتقون به في دار الثواب، وقوله: ﴿وَمَا أَتَتْهُمْ﴾ يريد: وما أنقصناهم مما وعدناهم على إيمانهم شيئاً، فأما قوله: ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ فإنما يقول: من جزاء عملهم، وأما قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهو: يخبر أن كل امرئ بعمله مرتبه، وبكسبه مجازي، خيراً فخييراً، وشرافشراً.

(٣١٥) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْلِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]؟

فقال: اللغو فهو: الهذيان والكلام الذي يخرج من قد زال عقله، فيلغى في لفظه عند سكره، وشربه لخميره، فأخبر الله أن خير الآخرة لا يفسد منها العقول ولا ينطق شاربها باللغو والفضول، وأما قوله: ﴿وَلَا تَأْلِيمٌ﴾ فهو: لا إثم على شارب خير الآخرة، (من الإثم والعقوبات، وما أوعده الله عليها شاربها من النكرات) (١).

(٣١٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦-٢٧)؟

فقال: هذا قول من المؤمنين، عندما نجاهم الله في الآخرة من العذاب المهين، يجبرون أنهم كانوا في الدنيا وهم بين أهلهم مشفقين من عذاب الله، ومعنى ﴿مُشْفِقِينَ﴾ فهو: خائفون وجلون، فَمَرَّ الله علينا بصرف ما كان منه وجلنا وإشفاقنا، من عذاب السموم، وإنما اشتق السموم من الأمر الشديد من وجه السموم، و﴿السموم﴾ فهي: النار ذات الحريق، والحرا المهيل، ومنه اشتق اسم السموم للريح الحارة الشديدة الحر، التي تُلْفِح الوجوه منها، كمثل لفتح وهيح النار.

(٣١٧) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (الطور: ٢٩)؟

فقال: هذا أمر من الله، أمر به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُذَكِّر به ويدعو إليه، ثم أخبر أنه ليس كما يقول الكافرون فيه، ويقذفونه به من الكهانة والجنون، فنفى الله ذلك عنه، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) بل أنت الرسول الكريم الأمين.

(٣١٨) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرِئْتُ بِهِ رَبِّ أَلَمْ تُنِئُونَ... إلى قوله: سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (الطور: ٤٤)؟

فقال: هذا إخبار من الله عما يقول الكافرون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يقولون: إنه شاعر لا رسول، وكان بعضهم يقول لبعض، تربصوا به ريب المتنون، معنى تربصوا، فهو: انتظروا وتوقعوا ريب المتنون، والريب فهو:

الوقوع والنزول، و﴿الْمَنُونُ﴾ فهي: الموت، فأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿تَرْتَبِصُوا فِإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَزِعِينَ﴾، يقول: انتظروا بي فإني انتظر بكم مثل ما تنتظرون بي، وأعظم من ذلك، مما أرجوه من نزول عذاب الله عليكم. ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا عَنْكُمُ﴾ يقول: أليس يزعمون أن لهم أحلاما وعقولا<sup>(١)</sup>؟ أفأحلامهم تأمرهم، وتدلهم على المكابرة للحق، وقول الباطل، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يريد: أم هم قوم قد طغوا عليك، فسينزل بهم البلاء على طغيانهم، ويحل بهم النقم على كفرهم، معنى ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بقوله يريد: أم يقولون أنه كذبه، وادعا أنه من الله، وليس من الله، ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: بل هم لا يصدقون أنه من الله، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يريد سبحانه: إن كانوا صادقين أنك نقولته، فليأتوا بحديث مثله، يريد: بقرآن مثله، لأنه إن كان منك فسيقدر أن على أن يأتوا بمثل ما أنبت به، وإن كان من عندنا فلن يقدر أن على ذلك أبدا.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يريد: أفلا يعتبرون فينظروا في خلقهم! أم من غير شيء خلقوا؟ أم من شيء جعلوا؟ فإن نظروا فسيبين لهم من أثر صنعنا، ما يدلهم على أن ما جئت به من عندنا، ثم لينظروا<sup>(٢)</sup> أهم الخالقون؟ أم غيرهم الخالق؟ فإن أقرروا بخلق غيرهم لهم، وبأنهم لم يخلقوا أنفسهم، فسيعلمون أن الذي أرسلك إليهم، هو الخالق لهم.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنَ اللَّعَنَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أم عندهم خزائن ربك أم هم

(١) في (أ): أحلام وعقول. مصحفة.

(٢) في (أ): انتظروا. مهملة.

﴿الْمُصِيطِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فكل هذا يريد سبحانه: أنهم إن كانوا كذلك، وكانوا يفعلون ذلك، فالقول قولهم، وإن كانوا ليسوا بفاعلين ذلك ولا قادرين عليه، فليعلموا أن الفاعل لما عجزوا عنه هو الباعث لك، والمنزل لما معك مما عجزوا أن يأتوا بمثله.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾، يريد: أم هم المستحصون لكل الأشياء، الموكلون عليها، الحافظون لقليلها وكثيرها، فلن يكونوا كذلك أبدا، ولن يكون غير الله كذلك، ولن يعلمه ويحصيه سواه.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>، هذا مثل مثله الله تبارك وتعالى، يقول: أم لهم سلم يرقون فيه إلى السماوات، حتى يسموا وحي الله الذي ينطق به ملائكته عنه، فإذا كان<sup>(٣)</sup> ذلك كذلك عندهم، فليأت الذي استمع في السلم لهم ﴿بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة تدل على ذلك وتبينه، وإلا فهم مبطلون، والحجة فهي: السلطان، والمبين: بين ظاهر<sup>(٤)</sup>.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾<sup>(٥)</sup> ١٩ هذا إنكار من الله لقولهم إن الملائكة بنات الله، فقال الله تبارك وتعالى: هل يكون ما قلتم من ذلك، أو يجوز أن يُصِفَكم بالبنين ويدع لنفسه البنات، لو كان كما يقولون، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وتقدس عما يقول فيه الكافرون تقديسا عزيزا كريما.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾<sup>(٦)</sup> [الطور: ١٠٠]، يقول: أم هذا الصدود والمنافرة لك، لأجر سألتهم إياه ١٩ والأجر فهي: الأجرة على ما جاء به،

(١) سقط من (أ): كان.

(٢) في (أ): بين الظاهر. مصحفة.

﴿فَهُمْ مِّنْ ثَقَرٍ مِّثْقَلُونَ﴾ يقول: فهم من شدة الغرم الذي ألزمتهم إياه، ﴿مِثْقَلُونَ﴾، معنى ﴿مِثْقَلُونَ﴾ أي: مفدوحون لا يطيقون ما كلفتهم، ولا يجدون ما سألتهم، فهم كارهون لأمرك، لعظيم ما كلفتهم من أجرك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾، يقول: أم عندهم علم الغيب فهم يعلمون كل شيء، فيكون ما قالوا من علم غيبهم، ومعنى ﴿يَكْتُمُونَ﴾ فهو: يعلمون.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، يقول: أم هذا الذي يفعلون بك من التكذيب وغيره، هو مكر يمكرونه، وكيد لك يريدونه، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم المذبذبون الذين يقع عليهم الكيد، ويحققهم دون غيرهم، حتى يكون ما أملوا إيقاعه بك من الكيد عليهم، وتكون أنت سالما من ذلك، وهم فيه واقعون.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يقول: أم لهم خالق ومدبر غير الله، فهم إليه يلجأون وبه يتنزعون، كلا ما لهم من إله غير الله الذي عليه يجترون، وبه يكفرون، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تعالى الله وتنزه عما يقولون ويفعلون من شركهم وكفرهم.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، الكسف هو: العذاب النازل من السماء، فأخبر سبحانه أنهم عند معايتهم لو عاينوه، لقالوا: هذا سحب مركوم، والمركوم فهو: الذي بعضه على بعض، فإذا

راوه توهموا أنه سحاب، حتى <sup>(١)</sup> يقع عليهم فيهلكهم، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاب: ٢٤].




---

(١) سقط من (ب): حتى.



# تفسير سورة النجم





## ومن سورة النجم

(٣١٩) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾... إلى قوله: وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٣٢٠﴾؟

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بالنجوم عند هويها، ومعنى ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فهو: النجوم جميعا، كما قال الله: يا أيها الإنسان، وهو يريد الناس طرا، ومعنى ﴿هَوَىٰ﴾ فهو: غاب وتلى، فأقسم بهويه عند هويه، لما في ذلك من عظيم الآيات، وكبير الدلالات، على مسير الأرض والسموات، ثم قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ﴿٣٢٠﴾، فأقسم بالنجم أن محمدا صلى الله عليه وعلى آله ما ضل عن الهدى، ولا عدى عما أمره به العلي الأعلى، وأنه ما أفلك ولا غوى، ومعنى ﴿غَوَىٰ﴾، فهو: ضل وهلك إذ أساء.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٣٢١﴾، يقول: ما يأتيكم صاحبكم إلا بوحي يوحى إليه، ولا يأمركم إلا بما ينزل من الله عليه، ﴿عَلَّمَكَ﴾ معناها: فقهه وأمره به، ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿٣٢٢﴾ فهو: جبريل صلى الله عليه، يقول: شديد الأسر والخلق، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ والمره فهي: العزيمة والقوة، والنفاذ فيما يؤمر به، ﴿فَأَسْتَوَىٰ﴾ ﴿٣٢٣﴾ معناها: فتم وكمل، ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٣٢٤﴾، والأفق الأعلى: أفق السماء الدنيا، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿٣٢٥﴾ يقول: تقرب ودنا، ونزل <sup>(١)</sup> حتى كان من محمد صلى الله

(١) في (ب): قرب بقرب ومنازل نزل.

عليه في الهوى، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، ومعنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فهو: قدر علوتين في الهوى ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، يقول: أو أقرب من القوسين وفوق القوسين.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ﴾ يقول: جبريل المتدلي الذي <sup>(١)</sup> على قاب قوسين، أو أدنى، إلى عبد الله محمد، ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾، من الوحي الذي بعثه به الواحد الأعلى، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ يقول: ما كذب فؤاد محمد وقلبه، فيما قد أيقن به، يكابرونه ويماحدون، فيما قد عاينه عيانا ورآه.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾، فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله فيها <sup>(٢)</sup> مرتين، حين دنى فتلى، و﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ فهي: أعلا عليين، وعندها جنة المأوى في أعلا عليين، أيضا من فوق السماء السابعة العليا، التي فوقها سدرة المنتهى، حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى، وهذه الآية أيضا حجة في أن الله قد خلق الجنة.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿فَالسِّدْرَةُ﴾ هي: سدرة المنتهى، والذي غشيها فهو: جبريل حين رآه محمد عندها وفوقها، غاشيا لها وبغيرها، في خلقه الأعظم الذي خُلق فيه، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ يقول: ما عدل عنه ولا شبهه، ولا تخايله <sup>(٣)</sup> ولا ظنه، بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره، ﴿وَمَا طَغَى﴾

(١) سقط من (أ): الذي.

(٢) في (أ): التي ألا له فيها. مصحفة.

(٣) في (أ): تحامله. مصحفة.

رجع الخبر إلى محمد عليه السلام، يقول: ما طغى في ما خَبَرَكُم به عن ربه، ولا دخله في ذلك أشر<sup>(١)</sup> ولا بغي، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ يقول: لقد رأى من جبريل في هذه الصورة، مرة بعد مرة، آية من آيات الله العظمى، لا يشبهها شيء من الأشياء.

﴿أَنزَلْنَاهُ فِي اللَّيْلِ وَالْعُزَّى﴾، اللات هي: قبة كانت بالطائف، والعزى فهي: أخرى كانت لهم بطن نحلة، على مرحلتين من مكة، كانوا يزينوها بالجواهر والذهب والفضة، والثياب الحسنة، وكانوا يعبدونها كما يعبدون الأصنام، ويرونها أعظم قدرا من الأصنام.

﴿وَمَنْزِلَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى﴾ فهو: كان لهم على الكعبة، فعنفهم الله في عبادته مثل ذلك، يقولك أرايتم ما تعبدون من هذه؟ لأي معنى تعبدونه؟ ولأي شيء تتخذونه إلها<sup>(٢)</sup> من دون الله؟ وهن لا ينفعنكم ولا يضررنكم.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿١٠﴾ هذا في ما كانوا يزعمون من أن الملائكة بنات الله أناث، وأن لهم البنين الذكور، فقال الله: أيُّ حكم هذا أو عدل عندكم؟ أن تجعلوا لربكم البنات؟ وتجعلون لأنفسكم البنين؟ هذا إذا قسمة ضيزى والضيـزى فهي: الجائر الفاسدة، التي لم تقع على عدل، ولا على حق.

(١) في (ل): أسر. مصحفة.

(٢) في (ل): آلهة.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ وكذب كذبتموه على الله، لم ينزل به سلطانا، والسلطان، فهو: الحجة والدليل والبرهان، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ يقول: إن يتبعون فيها يسمون ويدكرون، إلا هوى أنفسهم، وظننا <sup>(١)</sup> منهم بلا حقيقة ولا بيان.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ يقول: قد جاءهم من الله نفي ذلك على لسان نبيه، وبان لهم طريق الهدى، والحق والتقوى.

(٣٢٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ ... إلى قوله: لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٣٢٠﴾ [الطور: ٢٤-٢٦]؟

فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ يقول: هل يكون للإنسان ما تمنى؟ هل يأتيه ويستوي له تمنيه إذا تمنى؟ أم ليس له غير الحق، وإن لم يكن يشاء. ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾، يقول: لله الأمور كلها أمور الآخرة والأولى، والأولى فهي: الدنيا، فأخبر سبحانه أنه لا يمنع أحدا ما يتمناه، ولا يصح في يده شيء من ذلك أصلا، وأن الأمر كله لله الواحد الأعلى.

﴿وَكَمْ مِنْ مِّثْلِكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾، فقال: هذا نفي من الله لما تروي الحشوية والإمامية من الشفاعات لأهل المعاصي، فأخبر سبحانه بما أخبر من كثرة الملائكة في السماوات، وأنهم لا تغني شفاعتهم لأحد من خلق الله لو شفعوا، ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ يقول: إنهم لو شفعوا

بأسرهم في مذنب واحد، ممن قد حق عليه الوعيد، لم ينفعه ذلك، ولم يجد شفاعتهم عند الله فيه، إلا من بعد أن يأذن الله للمستشفعين، فشفعوا للمؤمنين، الذين قد رضي الله سعيهم، فشفع لهم الأنبياء في زيادة الثواب وكثرة العطاء، وبلغ ما لا يبلغونه بأعمالهم من الأشياء.

(٣٢١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا مِنَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّئِمَ؟﴾

فكباثر الإثم والفواحش فهو: ما وعد الله عليه النار، ﴿إِلَّا اللَّئِمَ﴾ واللئيم هو: ما ألم به الإنسان من غير تعمد ولا قصد ولا إرادة، ﴿إِنْ رِئَكَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ﴾ معناه: كثير المغفرة، ﴿إِنْ رِئَكَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يقول: هو عالم بكم وبأخباركم وبما يكون منكم إلى يوم القيامة، فقد علم ذلك كله منذ وقت إنشائه لكم من الأرض، ومعنى ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فهو: خلقه لآدم عليه السلام في بدئ الخلق من التراب والأرض، ﴿وَإِذْ أَنْشَأَ جَنَّاتٍ فِي بَطْنٍ أَمْهَسَتْكُمْ﴾ يقول: إذ أنتم مستجنون في بطون أمهاتكم، قبل خروجكم إلى الأرض، فهو: يعلم ما ستفعلون عند كبركم، وبلغ أشدكم، ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يقول: لا تقولوا إنكم أزكياء ولستم بأزكياء، ولا تسما أنفسكم اتقياء، وأنتم تعملون غير عمل أهل التقوى، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: بمن آمن واهتدى واستوى.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ يقول: ممن أعطى حق الله قليلا، وأكدى عل كثير منه، ومعنى أكدى فهو: منع وأبى أن يدفع ما عليه من حق الله،

فقال تبارك وتعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَكِّ﴾ في ما فعل أنه لا يعاقب عليه، ﴿فَهُوَ بِرَكِّ﴾، أي: فهو يعلم ما له وعليه في ذلك، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿﴾، الذي في كتبهما صلوات الله عليهما، فهو ما ذكر أنه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ومعنى ﴿وَفَّى﴾، فهو: بلغ وأدى، ومعنى ﴿وَازِرَةٌ﴾ فهي: حاملة، يقول: لا تحمل حاملة حمل أخرى، وهذا مثَلٌ، فالذي لا يحمل هاهنا فهو: العمل، لا يحمله غير صاحبه، أي: لا تلزم عمل واحد غيره، بل كل إنسان مأخوذ بعمله دون غيره.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، يقول: ليس يجب للإنسان ولا عليه إلا عمله، ﴿وَأَنْ سَخِمَ سَوْفَ بِرَكِّ﴾، يقول: عمله يسوف يظهر، ويوجد غداً عند الله جزاءه، ألا ترى كيف تقول ﴿فُتُمْ يُجْزَى الْجِزَاءَ الْآوَقَى﴾، يقول: يعطى عليه العطاء الآوَقَى، من خير أو شر، و﴿الْآوَقَى﴾ فهو: الذي لا يزيد ولا ينقص.

﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ أَلْتَمَتْنِي﴾، يقول: إلى الله المصير غداً، ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي﴾، يخبر سبحانه أنه الذي جعل في الإنسان استطاعة الضحك والبكاء، وركب فيه السخط والرضا، ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، يخبر أن الموت منه والحياة، في مبتدأ الخلق، والإعادة بعد الموت والإنشاء.

﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الدَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ من نُطْقَةٍ إِذَا تَمَتَّنَى ﴿﴾، فأخبر أنه يريد النطفة في الرحم حيناً ذكراً، وحيناً أنثى، حتى خلق من هذا الماء المهين الزوجين، اللذين منهما يكون نسل الآدميين.

﴿وَأَنْ عَلَيَّ النَّشْأَةُ الْآخَرَى﴾ (١١٣)، يقول سبحانه: إن عليه أن يبعث الخلق ويردهم بعد فنائهم ويردهم أحياء، يحاسبهم ويعاقبهم ويثيبهم بأفعالهم المتقدمة، فالبعث من القبور هي: النشأة الأخرى، والنشأة الأولى: فابتدأ الخلق من النطفة في الرحم بشرا كاملا.

﴿وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (١١٤)، معنى «أَغْنَى» فهو: رزق وأعطى، ومعنى «أَقْنَى» فهو: رزق وكفى، وتولى كفاية عبيده، وأرزاق خليقته.

﴿وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشَّرْعَى﴾ (١١٥)، والشعري: نجم معروف في السماء، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

نظرتكم العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الإناء<sup>(١)</sup>

يقول: انتظرت قراكم أن يأتي إلى طلوع سهيل أو طلوع الشعري، فطال بي الانتظار، ولم يأت شيء، ﴿وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (١١٦) ﴿وَلَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ (١١٧) وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ (١١٨)، ومعناه: يخبر سبحانه أنه الذي أهلك عادا الأولى، ومعنى «الْأُولَى»: الأولى، ﴿وَلَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ فلم يبق منهم أحدا لما أن عقروا الناقة، وعصوا صالحا، ﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ

(١) البيت للحطيط، بلفظ:

وَأَبَيْتِ الْعِشَاءَ إِلَى سَهِيلٍ أو الشعري فطال بي العشاء

من قصيدة مطلعها:

ألا أبلغ بني عوف بن كعب وهل قوم على خلق سواء

كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى، يقول: اظلم من ثمود واطعى، ومعنى «أطعنى»، فهو: ابني وأشر وأردى.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾، معنى «أهوى»، فهو: أهلك وأردى.

﴿فَعَسَىٰ أَلَمُكَ مِنْ عَذَابِهَا مَا عَسَىٰ﴾، ومعنى «عسى»، نزل عليهم وابتلى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾، يقول: ففي أي آلا ربك تشك، والآلاء فهي: الآيات - هاهنا - والابتلاء.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى﴾، معنى «نذير»، فهو: مبلغ معذر منذر، ﴿مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى﴾ يريد: كالنذر الأولى، يخبر أنهم قد أنذروا كما أنذر الأولون، فإن عصوا كما عصوا أهلكوا كما أهلكوا.

﴿أَرْزَقْتَ الْآزِفَةَ﴾: قريت القرية، «الآزفة» فهي: القيامة الآخرة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، يقول: ليس لها من بعد مجيء الله بها دافع ولا مؤخر.

﴿أَفَمِنَ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾، يريد سبحانه: أفمن إخبارنا إياكم بالآزفة، وقرب الآخرة، انقطع كلامه، لخوف ما أمامه وقُدَّامه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا﴾، أمر منه سبحانه لهم بالإيمان، والتصديق بما جاء به رسوله من الوعد والوعيد، والسجود فهو: وضع الجبهة على الأرض، والعبادة بالقول والطاعة.

(٣٢٢) وسألت عن قوله: ﴿إِلَّا أَلَلَّمَمُ﴾ [النجم: ٣٢٢]؟

واللهم فهو: الخطرة والنظرة، وما جاء عن غير تعمد، ولا مباينة بعصيان،  
لخالقه الواحد ذي السلطان.

(٣٢٣) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ  
الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَتَغَشَّى السِّدْرَةَ مَا يَتَغَشَّى ۚ مَا  
زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٧]؟

فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه  
الله فيها مرتين حين دنى فتلى، وعند سدره المنتهى<sup>(١)</sup>، وسدره المنتهى فهي: أعلا  
عليين ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ في أعلا عليين أيضا، من فوق السماء السابعة  
العليا، وهذه الآية حجة في أنه أسرى بعبد ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى إلى  
السماء السابعة العليا، التي فوقها سدره المنتهى، حتى رأى جبريل عندها نزلة  
أخرى، وهذه الآية أيضا حجة في أن الله قد خلق الجنة. ﴿إِذْ يَتَغَشَّى السِّدْرَةَ مَا  
يَتَغَشَّى ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٦-١٧]، فالسدره هي: سدره

(١) أخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن مسعود،  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه  
في صورته، فأراه صورته فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فلذلك قوله: ﴿وَوُفِّي  
وَالْأَفَاقُ الْأَفَاقُ﴾ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْكَوْكَبَ﴾ قال: خلق جبريل.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم  
قال: «رأيت جبريل عند سدره المنتهى له ستائة جناح يتغشى من ريشة التهاويل والدر والياقوت»  
الدر المشور ٦٤٣/٧ - ٦٤٤.

المتنهي، والذي غشيها فهو جبريل حين رآه محمد عندها، وفوقها غاشيا لها ولغيرها، في خلقه الأعظم الذي خلق فيه. ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ يقول: ما عدل عنه ولا تخايله ولا ظنه، بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره، ﴿وَمَا طَغَى﴾ رجع الخبر إلى محمد عليه السلام، يقول: ما طغى فيما خبركم به عن ربه، ولا دخله في ذلك أشر ولا بغى، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى. ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، يقول: رأى جبريل في هذه الصورة مرة بعد مرة، آية من آيات الله العظمى، لا يشبهها شيء من الأشياء<sup>(١)</sup>.



(١) في (ب): يقال: جبريل الذي رآه محمد نزلة بعد نزلة، في صورته التي خلقه الله فيها، صورة الملائكة، ولم يره صلى الله عليه وسلم صورة الملائكة إلا مرتين، مرة يوم أحد ومرة عند سدره المتنهي، حين أسري به، وسدره المتنهي فهي: أعلى عليين في السماء السابعة.



# تفسير سورة القمر





## ومن سورة القمر

(٣٢٤) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾... إلى

قوله: هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٣٢٥﴾؟

فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه لنبيه بقرب الساعة ودنوها، أنه لم يبق من الدنيا إلا يسير، وقوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يقول: اقتربت الساعة، واقترب انشقاق القمر، وانشقاقه فهو في يوم الدين، في وقت تبديل السماوات والأرضين.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾، يقول تبارك وتعالى: وإن يرى المشركون آية من آياتنا يعرضوا عنها، بالكذب بحقائقها، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾، أي: مستمر متابع<sup>(١)</sup> كل يوم بآيتنا منه شيء.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يقول: كذبوا بالآيات، واتبعوا في ذلك ما يهون من الباطل، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ يقول: كل أمر يكون منهم فهو مستقر عندنا، حتى نجازيهم غدا عليه، ونوفيهم ما كان من وعدنا فيه، ومعنى ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فهو: محفوظ ثابت لا ينسى ولا يضل.

﴿جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، يقول: قد جاءهم من الأخبار والآيات الصادقات، والدلائل الباهرات، ما فيه ما زجرهم عما هم عليه، ومعنى زجرهم فهو: نهاهم ومنعهم، عما هم فيه من باطلهم.

﴿حِصْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ﴾، يقول: آيات محكمة، ودلائل كافية بالغة، ﴿فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ﴾ يقول: ما يردعهم الرسل عند ذلك، و﴿الْأَنْذُرُ﴾ هنا فهي: إنذار الرسل لهم، وبعثها بذلك من الله سبحانه.

﴿فَقَتَلْ عَنْهُمْ﴾ يقول: دعهم إذ لم يقبلوا، وأعرض عنهم إذ لم يطيعوا، ثم ابتداء سبحانه الخبر فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ معنى ذلك: سيعلمون يوم يدع الداعي لشيء نكر، والنكر فهو: الأمر.

معنى ﴿حُشْعًا﴾ فهي: مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدون ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ أمامهم، من الفزع والخوف، والإيقان بالبلاء العظيم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ فالأجداث هي: القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ﴾، فشبههم في كثرتهم بالجراد المتشر، وهو: الكثير المعروف، ﴿مُتَهَاطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾، معنى ﴿مُتَهَاطِعِينَ﴾ فهم: تابعون مسرعون إلى نحو الداعي والداعي فهو: الذي يدعوهم إلى موضع إحشر ويأمرهم المصير إليه، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، ومعنى ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: عسر لدينا، شديد علينا، إذ جق وعد الله فينا.

(٣٢٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا؟

فقال: هي السفن التي تُعمل من الألواح، وتُشد بالدرس، والدرس فهو: الحبال والمسامير، التي تربط بها وتُدسر، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾ فهي: تسير في البحر بعلمنا، ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾، والذي كُفر هو: نوح صلى الله عليه، يقول: جزيناه على صبره على من كان كفر نعمته، وعصى أمره، بالنجاة في هذه السفن، مما وقع بالكافرين لنعمته، المشركين بها جاء من الله به.

(٣٢٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ۖ﴾ ؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه بما أرسل على عاد من ريح الصرصر، وريح الصرصر فهي: الريح الباردة الشديدة العظيمة القوة، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾، يريد: تنزع نفوس الناس من أبدانهم، وتخرجها <sup>(١)</sup> من جثثهم حتى تبقى أبداننا مطرحة ميتة، لا أرواح فيها، ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾، شَبَّه جثثهم وعظمها، بأسافل النخل الساقط المتقلع، المنقعر فهو: المتقلع من أصله.

(٣٢٧) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَّهُمْ فَأَرتَقَبَهُمْ وَاصْطَبَرُوا ۖ وَنَبَّيْتُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ مَّحْتَضَرٌ ۖ﴾ ؟

فقال: معنى ﴿مَرْسَلُوا النَّاقَةَ﴾ أي: جاعلوا الناقة، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: عنة لهم، ﴿فَأَرتَقَبَهُمْ﴾ أي: انتظر معصيتهم فيها، ﴿وَاصْطَبَرُوا﴾ أي: اصبر حتى يعصوا في فعلهم، فترى ما تحب فيهم، ﴿وَنَبَّيْتُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾، يقول: أعلمهم وقل لهم، إنا قد قسمنا الماء بين الناقة وبينهم، فيوم لها تشربه كله، لا يشربون معها، ولا يردون الماء يوم وردها، ويوم لهم لا ترد فيه الناقة عليهم، ﴿كُلٌّ شَرْبٌ مَّحْتَضَرٌ﴾ يقول: كل يوم فهو شرب لأهله، يشربون فيه الماء ويحتضرونه، ومعنى يحتضرونه فهو: يحضرونه <sup>(٢)</sup> ويشهدونه، فكانوا كذلك حتى عقروا الناقة،

(١) في (ل): تخرجها.

(٢) سقط من (ل): فهو يحضرونه.

(فنزّل بهم عذاب الله، فكانوا كهشيم المحتظر، والعذاب الذي نزل بهم فهو<sup>(١)</sup> ما ذكر الله من الصيحة الواحدة، والصيحة فهي: الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم، و﴿هَشِيمٌ الْمُحْتَظِرُ﴾<sup>(٢)</sup> فهو: دقاق ما قد بلى من الشوك والعيدان، الذي احتضر به المحتضر على نفسه وغنمه، ثم طال عهده، فبلى وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله، يجمع الرجل منها<sup>(٣)</sup> الشوك والعيدان فيحظره حظيرة<sup>(٤)</sup> على غنمه، حتى لا يخرج منها شيء، فشبّه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك، الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلاؤه.

(٣٢٨) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾؟

فقال: الحاصب هو: الرمي الذي وقع بهم، والرجم الذي نزل من السماء عليهم.

(٣٢٩) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ؟﴾

فقال هو: لوط صلى الله عليه، راوده هؤلاء المرجومون ليسلم إليهم ضيفه، وهم الملائكة المقربون، وكانوا يظنون أنهم فتية آدميون، فطمس الله أعينهم، ومعنى طمس أعينهم فهو: حجبناها عن رؤيتهم، ومنعناها عن الوقوع على ملائكة ربهم.

(٣٣٠) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿أَكْفَأُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾<sup>(١)</sup> أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ<sup>(٢)</sup> سَيَهْزِمُ الْآلُجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ<sup>(٣)</sup> أَلَدُّبَرِّ<sup>(٤)</sup>؟

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (ب): منها.

(٣) سقط من (ب): حظيرة.

فقال: شَبَّهَ سبحانه قصص من ذكر في هذه السورة بمن أهلكهم من القرون بكفرهم، ثم قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يعني: قريشا والعرب، ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ﴾ يقول: من أولئك الذين قصصنا عليكم هلكهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يقول: أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم، ممن كفر ككفرهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ والزبر فهي: كتب الله من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، يقول: هل لكم من الله حكم بالبراءة مما وقع بغيركم، فأنتم تجترون لذلك على ربكم، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ يريد: أم يقولون يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا متصرون من جنود الله إن قاتلنا، فهذا قليل من جهلهم، وضعف رأيهم، وقولهم: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾ الذي به يدلون، وعليه من دون الله يتكلون، حتى ينهزموا من جند الله، ويولون أدبارهم هارين من أولياء الله.

(٣٣١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ

مُذَكِّرٍ؟﴾

فقال أشياعكم هي: أمثالكم ونظراءكم، وإخوانكم في كفركم، ﴿فَهَلْ مِنْ

مُذَكِّرٍ﴾ يقول: هل من مذكر أو معتبر؟!

(٣٣٢) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾... إلى

آخر السورة؟

فقال: الزبر هنا هي: العلم، يقول: كل شيء فعلوه وأحدثوه وقالوه، هو في علمنا ثابت مستقر، لا يزل منه ما كبر ولا ما صغر، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ معنى ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ فهو: مكتوب، ومعنى مكتوب فهو: محفوظ. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ فالنهر: نهر الأنهار التي تجري في الجنان، ومعنى ﴿مَقْبَدٍ

صِدْقِي ﴿ فهو: محل صدق، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿، معنى ﴿عِنْدَ﴾ لدى، ﴿مَلِكٍ﴾ فهو: المالك لكل شيء، ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ فهو: القادر على كل ما يريد، الذي لا يمتنع منه قريب ولا بعيد.

٣٣٣) سألته عن قول الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿النمر: ٢١﴾

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه بقرب الساعة ودنوها، وأنه لم يبق من الدنيا إلا يسير، وقوله: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يقول: اقتربت الساعة واقترب انشقاق القمر، وانشقاقه فهو: في يوم الدين، وفي وقت تبديل السماوات والأرضين.





# تفسير سورة الرحمن





## ومن سورة الرحمن

(٣٣٤) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ؟

فقال: الرحمن، هو الواحد ذو المن والإحسان، والرحمة ذو الامتنان، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فمعنى عَلَّمَهُ هو: أنزله وأمر بقراءته وتعليمه، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ فهو: فطره وجعله، وصوره وقدره، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فهو: هداه إلى البيان، وفهّمه اللغة واللسان، وفهّمه لما يحتاج إليه من الحجج والبيان. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، فمعنى الحسبان هو: الحساب، ومعنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ فهو: لحسبان، ومعنى لحسبان يقول: خلقهما للحساب، يعرف بهما السنين والشهور والأزمان، ﴿وَاللَّجَمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، فمعنى سجودهما هو: إسجادهما للمعتبرين المستدلين على الله عن رءاهما، فلما أن كان السجود من معنى الساجدين، جاز أن يطرح الساجدين، ويثبت السجود، كما قال: ﴿وَسُئِلَ الْقُرَيْةُ﴾ [سيف: ٨٢] لما كانت القرية من سبب الأهل، طرح الأهل وأثبت القرية، وقد فرنا ﴿يَسْجُدَانِ﴾ في موضع آخر، وانتقصنا التفسير فيه، مع تفسير قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، معنى ﴿رَفَعَهَا﴾ هو: علّقها سماء وأقلها فوق الأرض، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فهو: جعل الميزان وهدى إليه، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ يقول: لا تظلموا فيه، ولا تحتالوا بحيلة باطل عليه، واستوفوا به وأوفوا، فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم، وخلقته مبيّنا لكم، ﴿وَأَقِيمُوا

أَلَوْزْتَ بِأَلْقِسْطٍ وَلَا تُخْسِرُوا، واعدلوا الوزن وأوفوا بالحق ولا تبخسوا، يقول:  
لا تنقصوا ولا تبخسوا الميزان. ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنْثَامِ﴾، ومعنى  
﴿وَضَعَهَا﴾ هو: خلقها وبسطها ومهدا، ﴿لِلْأَنْثَامِ﴾ فهم: الخلق.

﴿فِيهَا فَنَكِهَتْ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَحْصَامِ﴾، فالفاكهة هي: الفاكهة المعروفة  
من ألوان الفواكه والأشجار، ﴿وَالنَّخْلُ﴾ فهي: النخل المفهومة، ﴿ذَاتُ  
الْأَحْصَامِ﴾ والأكمام هي: قشر الطلع الذي ينشق عما فيه من الشاريخ، حتى يخرج  
التمر من جوف الأكمام، وتبقى الأكمام معلقة لا شيء فيها، وهي القشور التي تكون  
عليه أو ما يخرج.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ فهو:  
الحب من البر والشعير، و﴿الْعَصْفِ﴾ فهو: القصب الذي يُدق فيكون تبنا، وهو  
الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾  
هاهنا فهو: الرزق الواسع من الرحمن، وهو في لغة العرب موجود، تقول: اطلب  
من ريحان الله، أي: اطلب من رزق الله، ولنا سَمَتِ الْعَرَبِ الرِّزْقِ رِيحَانًا لما فيه  
من الطيب<sup>(١)</sup> والمعيشة والإحسان، ﴿فَيَأْتِي الْآءَ رَيْحُكُمْ تُكْذِبَانِ﴾، يقول:  
بأي نعم الله وإحسانه تكذبان؟

ومعنى ﴿تُكْذِبَانِ﴾: أيها الثقلان، والثقلان فهما: الجن والإنس.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾، والإنسان فهو: آدم عليه السلام

(١) في (ب): الطلب. مصحفة.

وهو بُدِّيَ الناس والذي تفرعوا منه كلهم، والصلصال فهو: الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يسه، وصدَم بعضه بعضا، ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ يقول: هذا الطين في اليبس والصلصلة كالفخار، الذي صوته إذا ذفر بعضه ببعض، وإنما كان آدم صلصالا من بعد تصوير الله له جسما، طينا لازبا، رطبا متعلكا<sup>(١)</sup>.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ والجان هي: الجن كلها، والمارج الذي خلقت الجن منه فهو: اللسان الذي يتقطع ويذهب في الهوى من النار، إذا أجمت وأوقدت، وهو خالص النار وحقيقتها، وإنما سمي: مارجا لمرجه في الهوى، ومرجه فهو: ذهابه وسرعته، تقول العرب: فلان قد مرج، أي: قد ذهب في معناه وأسرع.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٠﴾، فقد تقدم تفسير ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. والمشرقان والمغربان فهما: مشرقا الشمس والقمر ومغربهما، من حيث يطلعان في الصيف ويغيبان، وذلك أن لهما في الشتاء مطلعا ومغربا، وفي الصيف مطلعا ومغربا<sup>(٢)</sup> غير مطلع الضيف ومشرقه.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١١﴾، ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناها: خلقهما وجعلهما وبعثهما، وإخراجهما وإسباحهما على وجه الأرض، كاحتجاجنا في قوله: ﴿مَرَجَ﴾، وفي قول العرب: مرج الإنسان، وقد تقدم شرح ذلك في أول السورة. والبحران فهما: البحر المالح والبحر العذب، وهو الذي

(١) في (أ): متعلكا.

(٢) في المخطوطتين: مطلع ومغرب ولي الصيف مطلع ومغرب. والصواب ما أثبت.

يُسمى دجلة، والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال له: رأس نهر السند<sup>(١)</sup>، عند مفضاه من البصرة<sup>(٢)</sup>، ومعنى «يَلْتَقِيَانِ» فهو: جعلهما يلتقيان ويصطدمان<sup>(٣)</sup>، وقدّرهما على ذلك سبحانه من الشأن، ف يلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة هذا أخضر، وشقها هذا أبيض، يشرب من يمينها مالحة، ومن يسارها عذبا، ليس بينهما سد يحجزهما، ولا معنى<sup>(٤)</sup>، «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ» والبرزخ فهو: فعل الله تبارك وتعالى فيها، وتقديره لالتقائهما واصطدامهما، وما حجّرهما<sup>(٥)</sup> به من قدرته سبحانه عن اختلافهما كما قال ذو الجلال والسلطان: «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ»، ومعنى «لَا يَبْغِيَانِ»<sup>(٦)</sup> فهو: لا يجوزان ما جعلاً له، ولا يقدران على أن يخرجاً عما ركبا عليه.

﴿فَبَإِذَا آتَىٰ آيَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا آلُفُفٌ وَأَلْمَرَجَاتُ ﴿٦٦﴾﴾، فاللؤلؤ هو: اللؤلؤ المعروف المستغنى بفهم من يسمع ذكره له من تفسير

(١) في (ب): واين نهر السند: مصفحة.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» قال: بحر فارس وبحر الروم.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ» قال: بحر فارس وبحر الروم، وبحر المشرق وبحر المغرب. الدر المنثور ٧/ ٦٩٦.

(٣) في (أ): ويصطدمان.

(٤) في (أ): سد يحجزهما ولا معناه. مصفحة.

(٥) في (أ): واصطدامهما وما يحجزهما.

(٦) في المخطوطتين: يبغيان.

معناه، والمزجان فهو: شيء أحمر يخرج منه، فيجعل<sup>(١)</sup> خرزا يلبسه من شاءه وأراده.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾، فهي: قلوها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأذقال<sup>(٢)</sup>، ليدخل الريح فيها، فتجري بها فتحملها على ظهر الماء، بتقدير رها. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام<sup>(٣)</sup>، فيأي آلاء ربكم تكذبان<sup>(٤)</sup>، يخبر سبحانه: أن كل شيء فانٍ مما عليها، وهذه التي ذكر الله سبحانه أن ما عليها يفنى فهي: الدنيا، أراد بـ﴿عَلَيْهَا﴾: كل من فيها، فقامت (على) مقام (في)، والدنيا فهو: كل ما خلق من سموات وأرضين، وما بينهما وفيهن، من ملائكة أو جنين أو إنسين<sup>(٥)</sup>. ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فمعناه: وجه ربك، هو ربك، أراد الذات، لا أن تم وجهها موجهها، وأعضا غيره مؤلفة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فانٍ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شيء الباقي، يقرأ بالخفض والياء ﴿ذِي الْجَلَلِ﴾<sup>(٦)</sup>، ولا يجوز أن يقرأ بالضم والواو: ﴿ذُو الْجَلَلِ﴾، كما يقرأها الجهال<sup>(٧)</sup>، ردا على ربك، ردا على الوجه، ﴿الْجَلَلِ﴾، فهو: الكبرياء والعظمة والمحال، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾، فهو: التقديس والإجلال والإنعام.

الوجه: الوجه والياء

الوجه: الوجه والياء

(١) في (أ): فجعل.

(٢) قال ابن منظور: والدقل والدوقل: خشبة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع. لسان العرب،

مادة: دقل.

(٣) في (أ): وما فيهن وما بينهن إنسين أو جنين.

(٤) سقط من (أ): والياء. ومن (ب): ذي الجلال.

(٥) سقط من (ب): بالضم والواو. ومن (ب): ذو الجلال كما يقرأها الجهال.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (١) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢)، معنى (١) يسأله من في السموات الأرض فهو: يطلب منه الخواص، ويسأله الفضل والرزق، والمغفرة والرحمة، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، يقول: كل يوم هو في تدبير ما يحتاج إليه ملكه، وتقدير أمر خلقه، من موت من يموت، وخلق من يخلق.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤)، معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، هو: سنفرغ من إفتاء مدة (٥) الأجل الذي جعلناه أجلاً لإمهالككم وتأخيركم، فإذا أفئنا هذه المدة وفرغنا منها، أتى كلا ما قد (٦) أوعدناه عند فناء مدته، وانقضاء مهلته وإمهاله، من موت، أو حلول نقم، فهذا معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، و﴿الثَّقَلَانِ﴾ فهما: الجن والإنس، وقد يكون المعنى الذي ذكر الله أنه يفرغ منه هو: مدة الدنيا، التي جعلها ووقَّتها، ويكون عند فراغه منها، وإفئائه لما يكون من الجزاء في يوم الدين، جزاء المثابين وجزاء المعاقبين.

﴿يَتَمَعَّشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ... إِلَى قَوْلِهِ: إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٧)، هذا إخبار من الله سبحانه وتوقيف للثقلين على عجزهما، وأنها غير خارجين من قدرة الله ولا إرادته، ولا ما جعلها مسكناً من الأرض والهواء، ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، والسلطان فهو: السبب من الرحمن، يقول: لا تنفذونه، أي: لا تقطعونه (٨) ولا تجوزونه ولا

(١) سقط من (أ): معنى .

(٢) سقط من (أ): مدة .

(٣) في (ب): كل . وسقط من (ب): قد .

(٤) كمال الآية: ﴿... إِنْ أَسْأَلْتُمْهُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ لَحَاطِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَيَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ...﴾ .

(٥) في (أ): لا تستطيعونه .

تخرجون منه، إلا إن يشاء الله ذلك، فيقدركم على ما يشاء، وينقلكم إلى ما يحب من الأشياء، فهذا معنى السلطان الذي ذكره العلي الأعلى.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ الشواظ فهو: اليسير من النار، وهو: اللهب، ﴿وَنُحَاسٌ﴾، فالنحاس هو: الدخان، ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾، يقول: إن نزل بكم ما ذكرنا، وأرسلناه عليكم كما قلنا، لم يكن عندكم لأنفسكم انتصار ولا امتناع، ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، هذا: يوم الدين عند تبديل السماء، فحينئذ تنشق للبود والفناء، ثم تعود وردة كالدهان، والوردة فإنها هي: مثلُ مثله الله تبارك وتعالى، يخبر أنها تكون عند تمحقها وتقطعها، كاصفرار الوردة ﴿كَالدِّهَانِ﴾، يقول: يكون لونها كلون الوردة، وتكون بعد هذا التجسم ﴿كَالدِّهَانِ﴾، والدهان فهو: المهل، شبه الله به في غير هذا الموضع وهو ماء القطران وصفوه، فأخبر سبحانه أنها تكون كهذا الدهن عند رجوعها إلى الدخان الذي منه خلقت، بعد ما هي عليه اليوم من العظم والجسم الذي عليه جعلت، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، معنى ﴿لَا يُسْأَلُ﴾ هو: لا يسأل لاستفادة<sup>(١)</sup> أمر مجهول، وإنما يسأل للتفريع والإخزاء، لا على أن يُعلم منه شيء من الأشياء.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾، السيماء الذي يعرف به المجرمون فهو: خلقهم وشناعتهم، واسوداد وجوههم في ذلك اليوم، مع آيات كثيرة يبدىها الله فيهم، ويجعلها علامات عليهم، يعرفهم بها خزنة جهنم، فحينئذ تأخذهم بنواصيهم وأقدامهم، والنواصي فهي: شعور رؤوسهم

(١) في (ل): عن استفادة.

وأرجلهم، حتى تلقىهم في جهنم وبئس المصير، ﴿مَذْمُومٌ مَتَّبِعُهُمُ الْيَهُودُ يُكَذِّبُ بِهَا  
الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٣٠﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ غَنَاءً مُّقْتَصِدًا  
وَقَدْ أَنشَأْنَا رِجْلاً شَدِيداً كَالْجُرُثِّمْ، والآن فهو: الشديد الحمى الحار (١)  
جدا، الذي قد انتهى وبلغ في الحرارة كل مبلغ.

(٣٣٥) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قُنُصِرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ  
قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ؟

فقال: ﴿قُنُصِرَاتُ الْظُرْفِ﴾ من: غوَاض الطرف عن غير أزواجهن، عفة  
وطهارة وكرما، ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، يقول: لم يدن منهن إنس  
ولا جان، والجان فلا تدنوا، وإننا هذا على مجاز الكلام كما تكلم العرب، تقول: ما  
قال هذا القول جني ولا إنسي، فقال: جني، والجن فلا تقول ذلك المقال، وإننا هذا  
على مجاز الكلام.

(٣٣٦) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿مُذَهَّمَاتُ الْغَنَاءِ﴾ ؟

فقال: هما الجحشان، فهما ذواتا الأشجار والأنهار، والمدهامتان فهما: الريانان  
اللذان قد رويت أشجارهما حتى إدهامت، ومعنى إدهامت فهو: علاهما السواد  
لرهبها، وشدة خضرتهما، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا﴾ ﴿٣٣٧﴾، فهاتان العينان فهما: (الماء  
المنبثق الذي يشج من الأرض فحاجه منهما، حتى يتطاير ويخرج من ينبوعه (٢)  
خروجاً، ﴿نَضَّخَتَا﴾ فهما: (٣) اللتان ينضخ ماؤهما، لكثرة خروجه منهما، حتى

(١) في (أ): الحارة.

(٢) في (أ): نبوعه. وما أثبت اجتهاد.

(٣) سقط من (ب): ما بين القوسين.

يتطاير عند انسكابه تطايراً، يقع منه النضج على ما حواليهما، وإننا أخذ ذلك من نضج الشيء، تقول العرب: أنضج وأنضخ بالحاء والحاء جميعاً، فالجاء<sup>(١)</sup> أفصح اللغتين.

(٣٣٧) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾؟

فقال: الخيرات فهي: كل خير مجتمع، من حوريات أو طعام أو شراب أو فواكه، أو شيء من النعم، فجمع الله ذلك كله في ما يسمى من الخيرات، و﴿حِسَانٌ﴾ فهي: فاضلات في معايتتهن<sup>(٢)</sup>، كاملات في شبابهن، ﴿حُورٌ مُّقْصُورَاتٌ﴾ في الْخِيَامِ<sup>(٣)</sup>، فالحور هن: النساء الحور العين، والحور فهو: نعت من صفات الأعين، وهو حورٌ يكون في العين دعج حسن، يحسن به الأعين، إذا كان فيهن، وتفتخر من كان فيه منهن، ﴿مُّقْصُورَاتٌ﴾ فهو: محبوسات مصونات محجوبات، لَسْنٌ بدوارات ولا خارجات، بل هن مثافئات<sup>(٤)</sup> لمساكنهن خفورات، و﴿الْخِيَامِ﴾ فهي: خيام الدر والياقوت المنضود والمنسوج، وهي: القباب المعمولات المرفوعات، في قصور الحوريات.

(٣٣٨) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾؟

قال: الرفرف فهو: اللين من الفرش، والعبقري فهو: اسم صنف من قرش

(١) في (ب): العرب أنضج بالحاء والحاء جميعاً، وبالحاء.

(٢) في (أ): معايتتهن. مصحفة.

(٣) يعني: ملازمات. قال ابن منظور: نفى الشيء بثفته نقنا: لزمه. ورجل مثفن لخصمه: ملازم له...

والمثافن: المراتب. لسان العرب، مادة ثفن.

الجنة، وقد تقول العرب لما كانت حرته غالبية على غيرها من الألوان: عبقري.

(٣٣٩) وسالت عن قول الله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، وعن قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فقلت: لم يذكر في أول هذه السورة اثنين كذا فمن هذان؟

فقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فهو: ذو الرحمة والإحسان، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فقد يكون تعليمه له هو تنزيله والحض على قراءته وتعلُّمه، بها جعل في ذلك من الثواب لمن كان له من القارئ، وبه في الليل من المتجهدين، وقد يكون معنى ذلك هو: الدلالة منه سبحانه على تأويله، والتسديد والتوفيق لعلم غامض سنته، والمن بذلك على عباده المؤمنين، والإحسان به إلى أوليائه الشاكرين.

فأما قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، فخلقه: إيجاده له، وتعليمه إياه البيان فهو: تركيبه فيه ما به يميز بين السواية<sup>(١)</sup> والإحسان، ويفرق به بين الخير والشر، ويتقلب به فيما يحتاج إليه من الأمر، وينال به الطاعات، وينحرف به عن المهلكات، من المعقول المفطور عليه، المركب بفضل الله فيه.

ومن البيان ما جعله فيه من استطاعة القول والكلام باللسان، وما ينال به من الحاجة لمن حاجه من الإنسان.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، فالحسبان هو: الحساب بالأيام والشهور والسنين والأزمان.

(١) السواية، من سوء.

﴿وَاللَّجِّمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، فسجودهما هو سجود من سجد لعظمة خالقهما، ممن تفكر في عجيب أمرهما وتصويرهما، وما في خلقهما من العبر والآيات، من ارتفاع النجوم ونورها، ومجاريها وسيرها، واعتدالها في فللكها وتقويمها، وغير ذلك من عجيب حالاتها.

وكذلك الشجر في اختلافه وثمره، وما نرى فيه من تدبير خالقه، واختلاف ألوانه وطعمه، وعجيب فعل الله في تغذيته، وتنقيه من حال الصغر والفساد، إلى حال الانتهاء ومنافع العباد.

فلما أن كان سجود من يسجد لله من المؤمنين، العارفين بالله المعترين، المستلدين عليه بما خلق من المخلوقين، من أجل ما يرون من آيات الله في خلق البشر، وعجيب ما فعل في النجوم والشجر، جاز أن يقول: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وإن كان الساجد غيرهما من الإنسان، كما جاز أن يقال: إن الله زين للكافرين أعمالهم، وأغفل عن ذكره قلوبهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ [النمل: ٤]، والتزيين من الله فهو الإملاء والتأخير، والنظرة والتعمير، وكذلك الإغفال فهو ترك التوفيق لهم والتسديد، والعون من الله والتأييد.

فلما أن كان من الله السبب الذي كان به غفلة قلوبهم واكتسابهم، لذلك جاز أن يقول أغفل الله قلوبهم، وكذلك التزيين لأعمالهم، لما أن كان من الله السبب الذي كان به التزيين، جاز أن يقال: زين الله لهم أعمالهم، لا أن الله فعل التزيين للكفرة ولا شاء<sup>(١)</sup>، ولا أرادهم منهم ولا ارتضاه، ولا أغفل سبحانه عن ذكره قلوبهم، بل نهاهم

(١) يعني: شاء. وإنما حذف المزة لأن لغته حجازية.

عن ذلك، وعاقب من كان من الخلق كذلك، فعل هذا المثال، والمجاز من قول الله، جاز أن يقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، وإن كانا في أنفسهما لعدم استطاعة التخيير لم يسجدوا، ولكن لعجيب تدبير الله وصنعه فيها إذ أسجدا عباده المعتبرين، وأخشعا من كان ذا خشية لرب العالمين.

وأما قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿١﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾، فإنخبار منه جل جلاله بارتفاع السماء بلا عمد، ودلالة منه على قدرته لكل أحد، وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فهو: جَعَلَ الميزان ودل عليه، وجعله <sup>(١)</sup> حكما عدلا بين عباده لا حيف ولا ظلم فيه، ثم نهاهم عن الظلم فيه، وأمرهم باتباع القسط فيه، والوزن بالحق والإحسان، ونهاهم عن البخس والعدوان.

ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾: فِيهَا فَنَكِهَتْ، يقول: دحاها وللأنام مهدها، وأخرج لهم ما ذكر من فاكهتها، تفضلا عليهم بها، وإحسانا منه إليهم فيها.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، فالأكمام: قشر الطلعة والغلاف الذي يكون فيه الشاربخ قبل اتساق أكمامها، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، والحب فهو: الحنطة والشعير، وغير ذلك مما جعله اللطيف الخبير، والعصف فهو: قصب الحب الأجوف الذي لا حشو فيه، ولا صلابة لديه، وذلك [قول] الواحد الجليل، فيما خبر من فعله في أصحاب الفيل، حين يقول: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ﴿٢﴾ [الفيل: ٥].

ثم قال: ﴿فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فعنى بذلك: مَنْ خلق من الإنسان والجان، والمناجيان في سورة الرحمن فيها الثقلان، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٢).<sup>(١)</sup>

٣٤٠) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥)؟ فقال: معنى الحسبان فهو <sup>(٢)</sup>: بحساب وعدد، ومعنى بحساب وعدد فهو: للحساب والعدد، يقول سبحانه: خلقنا الشمس والقمر، وجعلناهما يُعرف بهما ويسيرهما عدد الشهور، والأيام والسنين والدهور، وبحسب يسيرهما عدد الأيام والليالي، فيكون ذلك دليلا على حساب الدهور والأزمان.

٣٤١) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿سَنَقَرُكُمْ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ﴾ (فَيَايَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن: ٢١-٢٢)؟

فقال: معنى ﴿سَنَقَرُكُمْ لَكُمْ﴾ هو سنفرغ من إفناء مدة الأجل الذي جعلناه أجلا لأمهالكهم وتأخيركم، فإذا أفئنا هذه المدة وفرغنا منها، أتى كلا ما قد أوعدناه عند فناء مدته، وانقضاء <sup>(٣)</sup> مهلته وإمهاله، من موت أو حلول نقم، فهذا معنى ﴿سَنَقَرُكُمْ لَكُمْ﴾.

(١) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾؟

وقد أجاب في ذلك أبو الحسين، بما فيه كفاية إن شاء الله. هذا السؤال موجود هنا في (أ) فقط.

(٢) في (ب) مهو: الحساب، ومعنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ يقول: خلفها للحساب، يعرف بها السنون والشهور والأزمان.

(٣) في (أ): وقضاء.

والثقلان فهما: الجن والإنس، وقد يكون المعنى الذي ذكر الله أنه يفرغ منه هو: مدة الدنيا التي جعلها ووقَّتها، ويكون عند فراغه منها وإفنائها لها، ما يكون من الجزاء في يوم الدين، جزاء المثابين، وجزاء المعاقبين.





# تفسير سورة الواقعة





## ومن سورة الواقعة

(٣٤٢) وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾؟

فقال: الواقعة فهي: السابقة النازلة، والقيامة الواقعة بأهلها، ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يقول: ليس لوقوعها ونزولها بهم كاذبة، والكاذبة فهي: الباطلة، الدافعة لما يحجم منها، زائلة عن من تقصد بهولها، تقول العرب للشيء المصمم الواقع بالشيء: أتى غير مكذب حتى وقع به، وتقول: ما كذب<sup>(١)</sup> حتى أصابه، أو حتى ضربه، تريد: ما أنصرف ولا ألثوي، ولا عوج ولا عرج، حتى وقع بمن أراد أن يقع به، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، الخافضة فهي: الخافضة لمن تخفض من الخلق عن محل الثواب، فتصيرهم بخفضها لهم إلى أليم العقاب، والخفض هاهنا فهو: من باب الإطراح والقلّة والذلة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾ فهي: رافعة للمؤمنين إلى مراتب الصالحين، مصيرة لهم إلى رضى رب العالمين، ﴿إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾، هو: زعزعت للبورار والقضاء فارتمت، وقلقت للتبديل وزعزعت، ومعنى ﴿رَجَّتِ﴾ فهو: تحريكها وقلعها، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ معنى ﴿بُسَّتِ﴾ هو: أبيدت وأفنيت حتى انبست

(١) في (أ): أنا غير مكذب حتى وقع به، وتقول: ما أكذب.

بغيرها من الأشياء واختلطت، فصارت بعد العظم كالبيس، والبيس فهو: الشيء المايح، كالطعام المسكوب فيه الماء، وهو: الدهن من السمن والزيت، وإنما أراد الله بذلك أن يخبر أنها تعود بعد ما هي عليه من العظم إلى الدهان والبياد، والاختلاط بغيرها من الأشياء التي تبس<sup>(١)</sup> ها بسا، أي: خلط بها<sup>(٢)</sup> خلطا، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُثْبَتًا﴾ والهباء فهو: الغبار الخفي الذي يدخل مع الشمس من الكوى، والمنبت فهو: الكثير المتشر، فأخبر سبحانه أنها تعود بعد ما هي عليه من الهباء، للذهاب والفناء، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ... إلى قوله: وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ<sup>(٣)</sup>، معنى ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ فهي: أصناف ثلاثة، ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ فهم: أصحاب اليمين والبركة، والإيمان والطاعة، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ فهم: أصحاب الشؤم واللعة، وَالسَّاقُونَ<sup>(٤)</sup> فهم: الذين سبقوا إلى الله بالطاعة، وقدموها إليه في الحياة الدنيا، ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾<sup>(٥)</sup>، يخبر أنهم عند الله في القيامة مدنون، من كراماته، ومن جزيل ثوابه، مدخلون في جنات نعمته، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ<sup>(٦)</sup>، الثلاثة فهي: الجماعة الصالحة، فأخبر أن المتقين يكونون ثلة من الأولين، ويكونون قليلا من الآخرين، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾<sup>(٧)</sup>، السرر فهي: السرر المعروفة باسمها، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ فهي: مفسوحة معمولة، وهي سرر تنضد للمؤمنين بالذهب

(١) في (ب): بس.

(٢) في (أ): التي يختلط بها. وفي (ب): أي خلط خلطا. ولقت النص منها معا.

والجواهر، ﴿مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ﴾، معنى ﴿مُتَكِّينَ﴾ فهو: مضطجعون على جنوبهم، متقابلون فهو: بعضهم حذاء بعض مقابل له، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْ مُخَلَّدُونَ﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٤﴾ والولدان فهم: الوصفاء، والمخلدون فهم: الباقون الذين لا يفنون ولا يزالون في الآخرة، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾، فالأكواب فهي: ضرب من آنية الشرب تكون من الجواهر، من الدرر والياقوت، يشرب فيها المؤمنون في الآخرة، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ فهي: الأباريق المعروفة في الدنيا، من الصفر ومن الفضة والذهب، يعملها المتجبرون فتكون في الآخرة من الدرر والياقوت، وأنواع الجواهر، ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ فهي: الخمر خمر الآخرة، التي ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾، كما يصدع شراب خمر الدنيا منها، و﴿يُنْزِفُونَ﴾ والنزف فهو: القيء، وغير ذلك مما يكون من شراب الخمر، في ما ذكر لنا عنها، الله أعلم بأمرها، فقد ذكر أنهم ينزفون من طرفيهم، من فوق ومن أسفل، إذا شربوها، ومعنى ﴿يُنْزِفُونَ﴾ فهو: يخرج منها<sup>(١)</sup> وينزف ما في بطونهم، فأخبر الله تبارك وتعالى أن خمر الآخرة لا ينزل بشاربها ما نزل بشارب خمر الدنيا من الآفات، بل خمر الآخرة فيها اللذات والطيبات، والصحة والسلامة، والنعمة الكاملة. تم والله الحمد.

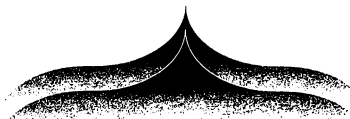
(١) سقط من (ب): منها.

﴿٣٤٣﴾ وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٣٤٣﴾

[الرواقعة: ٤٨٢؟]

فقال: معنى قوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول: تجعلون شكرنا على ما رزقناكم تكذيباً منكم لقولنا، وجمحدانا لحقنا، فقال سبحانه: لذلك إذ كان شكرهم له على نعمته التكذيب بآياته، وهذا لا يكون شكراً للمنعم على نعمه، إلا لتعرض لحلول نعمه.





# تفسير سورة الحديد





هو الذي

هو الذي

هو

هو

## ومن سورة الحديد

(٣٤٤) وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]؟

فقال: إن الاستقراض لا يكون إلا عن حاجة من المستقرض (إلى ما استقرض، فما معنى هذا القول؟

قيل له: إن الاستقراض <sup>(١)</sup> خارج على معنيين:

فأحدهما: يكون للإنسان، ولا يكون للرحمن، والآخر يجوز للإنسان وللرحمن، ويجوز بذلك القول في الإنسان، فأما الوجه الذي يكون للإنسان، ولا يجوز في الرحمن، فهو: استقراض المحتاج لما يحتاج إليه، مما يقيمه ويحييه، من قوته المضطر إليه، وهذا فلا يجوز القول به في الرحمن.

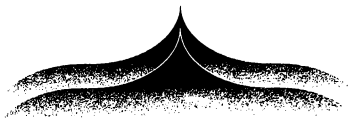
وأما الوجه الذي يجوز أن يقال به في الرحمن وفي الإنسان، فهو: ما يكون من طاعة المطيع لمن يطيعه، وذلك موجود في اللغة والكلام، عند أهل الفصاحة والعلم والتهام، وذلك قول العرب لمن اصطنع خيرا أو أسدى إلى صاحبه يدا: إن لك عند فلان قرضا حسنا يجزيك به، وكذلك <sup>(٢)</sup> إن كان سوء قيل له: إن لك عنده لقرض

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) النص في (أ) من هنا إلى نهاية الفقرة هكذا: ( وذلك إن كان سرا فإداله إن لك عنده لقرض لله لمن أقرض الله قرضا، وقدم إليه عملا حسنا أعطاه على ذلك من الله فضلا وثوابا وخلودا في جنته ).

سوء قدمته إليه وأقرضته إياه فأحذره، وكذلك، وعلى ذلك، يخرج معنى القرض  
 لله، فمن أقرض الله قرضاً، وقدم إليه عملاً حسناً، أعطاه على ذلك من الفضل  
 ثواباً حسناً، لأنه يجزي بالحسنة حسنات، ويعطي من أقرضه بطاعته، ثواباً وخلوداً  
 في جنته.





# تفسير سورة الحشر





## ومن سورة الحشر

(٣٤٥) مسألة: قلت فقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِهُمُ﴾ [الحشر: ١٩]. كيف النسيان من الخلق؟ وكيف النسيان من الله جل ذكره؟

قال: النسيان منهم هو تركهم لأمره، وإضاعتهم لفرضه، وإقامة حقه، فلما تركوا ذلك وأعرضوا عنه، تركهم من رشده ورحمته ونصره، وتوفيقه وتسديده، وإحسانه وعونه.

فهذا معنى النسيان من الله عز وجل، وقد تأول غير هذا من جهل التأويل، ولم ينظر في قولهم، ولا ما تأولونه من باطلهم وكذبهم.

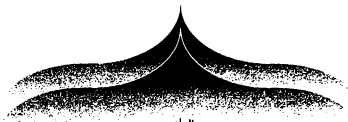
(٣٤٦) قلت: فالاستهزاء من الله ما هو؟

قال: الاستهزاء من الله لهم هو: الذم والتصغير لهم، والعيب بقبيح أفعالهم<sup>(١)</sup>.



(١) سقط من (ب): السبعة الأسئلة السابقة وجواباتها.





# تفسير سورة الممتحنة





## ومن سورة الممتحنة

(٣٤٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ٦]؟

يريد ما أنفقوا من المهور، وما أخرجوا لنسائهم اللواتي هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤمنات، راغبات في الحق مسليات، وهن: أم الحكم ابنة أبي سفيان، كانت عند عياض بن شداد الفهري، وامرأة من ربيعة، يقال لها: بزوع كانت تحت شماس بن عثمان المخزومي، وعمرة ابنة عبد العزيز بن نضلة<sup>(١)</sup>، ويقال: هند ابنة أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل السهمي، فهؤلاء اللواتي هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهور، وكان ما أعطاهم فيهن<sup>(٢)</sup> من الغنيمة.

ولم يرد منهن أحدا إلى المشركين، لأن الله حرم ذلك عليهن وعلى المؤمنين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا

(١) قال أبو القاسم: هبة الله بن سلامة أبي النصر في قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ ... ثم نزلت

في عياض بن غنم ولي زوجته حيث ذهبت منه إلى الكفار، فارتدت ولحقت بأهلها، ولم أم حكيم بنت أبي سفيان، فأمر الله تعالى أن يعطوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر. الناسخ

والمنسوخ بها حش أسباب النزول للواحد/ ٣٠٩.

(٢) في (ب): فيه.

تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكَفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴿١٠﴾  
 [المحنة: ١٠]، وكان ممن أعطي في ذلك عمر بن الخطاب، كانت عنده قريبة ابنة أمية بن  
 المغيرة المخزومي، فلما هاجر أدارها على الهجرة فأبت عليه، فأعطاه رسول الله صلى  
 الله عليه وآله وسلم ما أنفق عليها، ولم تكن آمنت ولا هاجرت، وتزوجها معاوية  
 بن أبي سفيان وهو كافر يومئذ وأعطاه رسول الله أيضاً ما أنفق على مَـرَّتِهِ أم كلثوم  
 ابنة جروول الخزاعي، حيث أبت أن تهاجر معه <sup>(١)</sup>.



(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن شهاب رضي الله عنه قال: بلغنا أن المحتنة أنزلت في المدة التي ماد فيها  
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفار قريش من أجل العهد الذي كان بين رسول الله صلى الله  
 عليه وآله وسلم وبين كفار قريش في المدة، فكان يرد على كفار قريش ما أنفقوا على نساءهم اللاتي  
 يسلمن ويهاجرن ويعولتهن كفار، ولو كانوا حراً لست بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم  
 وبينهم مدة عهد لم يردوا إليهم شيئاً مما أنفقوا، وقد حكم الله للمؤمنين على أهل المدة من الكفار  
 بمثل ذلك الحكم، قال الله: ﴿وَلَا تُنْكِرُوا بِرِيسِمِ الْكُفَّارِ وَنَسُوا مَا آتَيْنَاهُمْ وَأَنْفَقُوا نَيْلَكُمْ حَتَّى آتَوْا  
 بِكُمْ بِنَتْنِكُمْ وَأَقْرَبَ إِلَيْكُمْ حِكْمَةٌ﴾ فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته بنت أبي أمية بن المغيرة  
 من بني مخزوم فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وبنت جروول من خزاعة. الدر المنثور ٨ / ١٣٥.  
 وأخرج ابن أبي حاتم، عن طلحة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَلَا تُنْكِرُوا بِرِيسِمِ الْكُفَّارِ﴾ طلق  
 امرأتى أروى بنت ربيعة، وطلق عمر قريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت جروول الخزاعية. الدر  
 المنثور ٨ / ١٣٨.



# تفسير سورة الصف





## ومن سورة الصف

(٣٤٨) سألني عن قول الله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْلَكْتُمْ عَلَىٰ بَجْرَةِ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ... إلى قوله: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤٩﴾  
[الصف: ١٠-١١] (١)

فقال: المؤمنون - والله الحمد - عند الله من العذاب فمبعدون، ومن غيرهم يوم القيامة فمميزون، كما قال الله الرحمن الرحيم، في ما نزل على نبيه الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۚ﴾ [الروم: ١٦-١٧]. وفي ذلك من تمييزهم ما يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۚ﴾ ... إلى قوله: الَّذِينَ كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٣٤٩﴾ [السجدة: ١٨-٢٠] (٢).

فأخبر تبارك وتعالى بالفرق بين المؤمنين والفاسقين، وقص علينا ما يكون في

(١) كمال الآية: ﴿... تَزْمِنُ اللَّهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ [الحمد: ١١١].

(٢) كمال الآيات: ﴿... وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ...﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

عباده يوم الدين، والحمد لله العدل في كل أفعاله، المتفضل بالإعذار والإنذار إلى خلقه، مُعينُ الطيعين، ومذل الفاسقين، المصدق بقوله لقول الموحدين، الشاهد لهم في ذلك بالحق واليقين، المكذب للفسقة المبطلين، من المشبهة المجبرين.

قيل له: إنها <sup>(١)</sup> أراد الواحد الأحد، المتقدس الفرد الصمد، لما عنه <sup>(٢)</sup> سألت من قوله، الدلالة على فضل الجهاد، والقيام بالحق في الخلق والبلاد، فدلهم بها قال، وبها ضرب لهم من التجارة في الأمثال <sup>(٣)</sup>، على أنه لا شيء عنده يعدل الجهاد، من جميع ما افترض على العباد، فنبههم للخطر <sup>(٤)</sup> والفضل المبين، وأخبر أنه أعظم وأجزل ما يلقبونه يوم الدين.

وكيف لا يكون - يا بني - ما ذكر الله من الجهاد كذلك؟! ولا تكون نجاة <sup>(٥)</sup> عند الله سبحانه للعباد من العذاب والمهالك؟! وبه تقوم أحكام رب العالمين، ويحیی دين <sup>(٦)</sup> خاتم النبيين، ويعز المؤمنون، ويذل الفاسقون، وتشيع الأمجاد الجائفة، وترفع الرقاب الخاضعة، وتظهر حجج الحق الدامغة، وتموت البدع السائفة <sup>(٧)</sup>، وتعلو وتظهر الخيرات <sup>(٨)</sup>، وتغاط وتنفي الفاحشات، ويُعمل في كل

(١) في (أ): وإنما أراد.

(٢) في (أ): لطاعته. مصحفة. ولعل الصواب ما أثبت. وسقط من (ب): لما عنه سألت من قوله.

(٣) في (ب): الأموال.

(٤) في (ب): للحفظ.

(٥) سقط من (أ): يا بني.

(٦) في (أ): تجارة. لعلها مصحفة، والصواب ما أثبت. وسقطت من (ب).

(٧) في (أ): سنن.

(٨) في (ب): الشائعة. أو الشائفة.

(٩) في (أ): الحسنات.

البلاد بالصالحات، ويُنصر المظلومون، ويُردع الجاثرون وتُكسب الظهور والجنوب العاريات، ويُنات الظلم والشرور، وتقضي الغرامات عن الغارمين، وينصر الله به المستضعفين، ويُعز به الإسلام والمسلمين.

فيا لها تجارة ما أربحها! ودعوة ما أنورها! لو كان لها من الأنام مجيئون، أو في هذا الأمة المخدولة طالبون، ولكن<sup>(١)</sup> لا طالب لها، ولا تاجر<sup>(٢)</sup> فيها، ولا مقبل إليها، تعلقوا بالشبهات، وتسلوا بالأمنيات، وتكرهوا الوفاة، واستطابوا<sup>(٣)</sup> تافه الحياة، ومالوا إلى غرور الدنيا، وجرؤا واستبقوا في ميادين الهوى، وزهدوا في دار الخلد التي تبقى، التي لا نصب فيها ولا تعب ولا شقاء، كأن لم يسمعوا الواحد العلي الأعلى، يقول في ما نزل من الوحي على نبيه المصطفى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (التكوير: ٦٤)، فلعمري إنه الفرة<sup>(٤)</sup> من القتل، ليلقي<sup>(٥)</sup> من الموت ما هو أشد وأبلى، وأطول نكدا، وأعظم هولاً، وما عن الموت لهم من مهرب ولا<sup>(٦)</sup> مصدر، وما ينجو منه من أحد، كما قال رب العالمين: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (التكوير: ٥٧)، فما عسى من فر من القتل والقتال، أن يُمتع، وإن

(١) سقط من (أ): ولكن.

(٢) في (أ): ولا تاجر لها فيها. زيادة من النسخ.

(٣) في (أ): واستطالوا.

(٤) في (أ): إنها الفرة من القتل. وكتب فرق القدرة (كذا). ولعلها مصحفة، وفي (ب): القررة، ولعل

الصواب ما أثبت.

(٥) في (ب): لتلقى.

(٦) سقط من (أ): مهرب ولا.

جمع<sup>(١)</sup> في الاغترار وطول الآمال<sup>(٢)</sup> [ما جمع]، أيام<sup>(٣)</sup> يسيرة، وحياة غير كثيرة، ثم إلى الله المصير، كما قال في ذلك اللطيف الخبير، ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ قَرَرْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ: وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٦-١٧)<sup>(٤)</sup>.

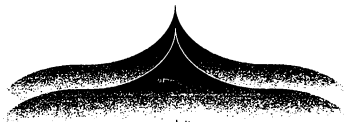


(١) في (ب): حق.

(٢) في (ل): الأيام.

(٣) في (ب): أياما.

(٤) كمال الآية: ﴿...مَرَبِّ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ نَزَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة...﴾.



# تفسير سورة المناققون





## ومن سورة المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، هذا خبر من الله تبارك وتعالى أنزله إلى رسوله صلى الله عليه وآله وأخبره بضمير المنافقين، عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه، وهو رأس المنافقين، فكان هو وأصحابه - عليهم لعنة الله - يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله، فيقولون إذا حضروا المجلس وسمعوا ما يتلو من آيات الله وبراهين نبوته: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ رياء منهم ونفاقا، ومراية للناس وشقاقا، فأخبره الله أنهم كاذبون في قولهم، وما يعلنون من تصديقهم بنبي الله، والإقرار به، وأعلمه أنهم يضمرون ما لا يبدون، ويقولون غير ما يعتقدون، فقال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ﴾ يريد بقوله: ﴿جَاءَكَ﴾ أنك، ﴿الْمُتُنَفِّقُونَ﴾ فهم: الذين يقولون غير ما يضمرون، وينافقون رسول الله فيما به يتكلمون، فـ ﴿قَالُوا﴾ معناها: تكلموا، وذكروا، ﴿نَشْهَدُ﴾ معناها: نقر ونعلم، ونعتقد ونفهم، ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ معناها: أنك أنت رسول الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ يقول: الله أعلم ما أرسلك به، وحقيقة بعثه لك إلى خلقه، واحتجاجة برسالته على بريته، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ فهو: الله يعلم إن المنافقين الذين زعموا أنهم يشهدون أنك رسول الله كاذبون في قولهم، وما ذكروا من إقرارهم بك وتصديقهم، فأخبره أن ضميرهم

واعتقادهم، خلاف ما يبدونه بالسنتهم، وأنهم في قولهم ينافقون، وفيما زعموا أنهم يشهدون به كاذبون.

ثم قال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، هذه الآية وما ذكر قبلها من نفاق المنافقين، فيها شهدوا به من الشهادة التي كانوا في ادعائها مبطلين - نزلت وما ذكر في السورة كلها من ذكرهم، فنزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله في غزوة عسفان، وفيما كان من كلام الكافر عبدالله بن أبي وأصحابه، وكان أصل ذلك أن خدع العسكر كانوا يتقدمون إذا بلغوا المناهل فيستقون الماء لأصحابهم، فتقدموا عند رجوع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من غزوته كما كانوا يفعلون إلى الماء، فاجتمع على الماء خدع المنافقين عبدالله بن أبي وأصحابه، وخدم المؤمنين من المهاجرين والأنصار، فازدحموا عليه، وتطارحوا الكلام حتى تضاربوا، فطرد خدم المؤمنين خدع المنافقين، فلما نزل العسكر وجد عبدالله بن أبي بن سلول خدمه لم يستقوا بعد، فسألهم فأخبروه بما كان من خدم المهاجرين، فقال: آويناكم وقويناكم حتى قووا علينا، والله ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [التوبة: ٨]، ثم قال لأصحابه: لا تشاوروا أصحاب محمد، ولا تبايعوهم، ولا ترشدوهم ولا تعينوهم، ولا تنفقوا عليهم حتى ينفصوا<sup>(١)</sup>، فلما أن بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخبر همَّ بقتله، فأثاب ابن

(١) أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا سافر كان مع كل رجل من أخصياء المؤمنين رجل من الفقراء يحمل له زاده وماءه، فكانوا إذا دنوا من الماء تقدم الفقراء فاستقوا لأصحابهم، فسبهم أصحاب عبد الله بن أبي، فأبوا أن يغفلوا عن المؤمنين، فحصرهم المؤمنون، فلما جاء عبد الله بن أبي نظر إلى أصحابه فقال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الذل، وقال: امسكوا عنهم البيع لا تبايعوهم. فسمع زيد بن أرقم قول ابن أبي: لئن رجعنا إلى

لعبدالله بن أبي بن سلول، وكان مؤمناً مخلصاً، فقال: يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أنا فأتيك برأسه، فوالذي بعثك بالحق نبيناً ما قولي هذا لشك فيك، ولا معارضة لك في شيء تراه، غير أنني أخاف أن تأمر به غيري فيقتله، فيقع في قلبي خشونة على قاتله، فينقص ذلك عجلي من إسلامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: بل نبه لك، بل نبه لك، ثم وهبه له.

فيروى أن العسكر لما وردوا المدينة أخذ ابن عبدالله السيف ثم أتى إلى أبيه به مسلولاً، ثم قال: والذي بعث محمداً بالحق نبيناً لتقولن: إن رسول الله الأعز وأنت الأذل، أو لأضربن رأسك بالسيف، فلما رآه مزمعا على قتله إن لم يقل ما أمره به، قالها صاغراً داخراً مكرهاً، فلما أن بلغ عبدالله بن أبي أن رسول الله قد علم بقوله أتى إليه في جماعة من المنافقين، فحلف له بالله مجتهداً جاهداً إن كنت قلت: ما بلغك

---

المدينة، وقوله: لا تنفخوا على من عند رسول الله، فأخبر عنه فأخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن أبي وأصحابه. الدر المنثور ٨/ ١٧٣.

وأخرج عبد بن حيد، وابن المنذر، من طريق الحكم، عن عكرمة، أن عبد الله بن أبي بن سلول كان له ابن يقال له: حباب، فسأه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبداً لله، فقال: يا رسول الله إن والذي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك»، ثم جاءه أيضاً فقال له: يا رسول الله إن والذي يؤذي الله ورسوله فذرني حتى أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك»، ثم جاءه أيضاً فقال: يا رسول الله إن والذي يؤذي الله ورسوله، فذرني أقتله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقتل أباك».

« الدر المنثور ٨/ ١٧٤ - ١٧٥.

وأخرج الطبراني، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: لما رجع رسول الله ص من بني المصطلق قام عبد الله ص عبد الله ص أبيه السيف، وقال: الله علي أن لا أغمدته حتى تقول: محمد الأعز وأنا الأذل. فقال: وبلك محمد الأعز وأنا الأذل. فبلغت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعجبه، وشكرها له.

« الدر المنثور ٨/ ١٧٧ - ١٧٨.

عني، ولا تكلمت بهذا الكلام، وحلف إخوانه المنافقون ما قاله، ولا تكلم به، ولقد كنا حاضرين للفظه ولجميع قوله، فأنزل الله فيهم على نبيته صلى الله عليه وعلى آله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

معنى ﴿اتَّخَذُوا﴾ فهو: جعلوا ﴿أَيْمَنَهُمْ﴾، معناها: قسم وحلفهم بالله، ﴿جُنَّةً﴾ فمعنى ﴿جُنَّةً﴾ أي: تقية يتقون بها، وسترا يستترون به من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويدفعون بها ما يجب عليهم في فعلهم من العقوبة، التي تجب عليهم في قولهم ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: إنهم صدوا عن الحق، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أهله، حين زالت عنهم العقوبة، لعفو رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم، عندما كان من أيمانهم وحلفهم له، فصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وصدوا غيرهم، ومعنى ﴿صَدُّوا﴾ فهو: أعرضوا وتركوا سبيل الله التي أمرهم بسلوكها، من أبواب طاعته، وأنواع فرائضه.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: إنهم بشس ما كانوا يعملون، فمعنى ﴿سَاءَ﴾ أي: قبح ما كانوا يعملون، ومعنى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فهو: يفعلون ويصنعون، من صدهم عن سبيل الله، ودعائهم إلى غير الله، وتكذيبهم لرسول الله.

ثم أخبر سبحانه من أين نزل بهم خذلان الله، حتى فضحهم الله في كتابه، وأطلع المؤمنين على عوراتهم في فرقانه، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فأخبر سبحانه أنهم آمنوا في أول أمرهم، ثم حلتهم الحمية الجاهلية، والعصية والأنفة والباطل، عن أن يكونوا هم وغيرهم في الحق سواء، وأن يناصفوا أحدا في الحق، فكفروا من بعد إيمانهم، وأبدوا

العداوة للرسول صلى الله عليه وآله حين ناصف بينهم وبين من هو دونهم في الحق، وسأوى بينهم في النصفة، ومنعهم من تجبر الجاهلية وتكبرها، وتعفرتها وظلمها، فرجعوا بعد أن آمنوا برسول الله كافرين به، جاحدين لنبوته، طاعنين عليه، مغتمين من جواره، كارهين لقربه، فسقا وظلما، وتجبرا وكفرا، فأخبر الله سبحانه أن الذي أنزل بهم في كتابه من اللعن والتنقص، وما افترض على المسلمين من البراء منهم، ومنعه لنبيته من الوقوف على قبر من مات منهم، وما أمر به نبيته من مجاهدتهم، والغلظة عليهم، وغير ذلك مما أمر به فيهم، هو لكفرهم بعد إيمانهم، ولتنقضهم العهود بعد توكيدها، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿قَطُّعَ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول سبحانه: شهد على نفوسهم بالطبع، والإنقفال عن الهدى، والإعراض عن التقوى، وأخبر أن ذلك كله لخذلان الله لهم، يقول: أنزل الخذلان على قلوبهم فتحيروا، وحل بهم خذلان الله فهلكوا، ورائت المعاصي على قلوبهم فعموا، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول: فهم لا يهتدون للرشد فيتبعوه، ولا يجدون من دون الله توفيقا، فيستعينوا به على أمرهم، فهم منغمسون في الضلال والعمى، زانفون عن الحق والهدى، متهادون في الحمية والردى.

ثم أخبر سبحانه نبيته صلى الله عليه وآله بصفاتهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَءٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَقَّلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾، فدل رسوله عليهم بصفاتهم، من بعد أن دله عليهم بأسمائهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يقول: إذا أبصرتهم وعانيتهم، يمشون مقبلين أعجبتك أجسامهم، يقول: أعجبتك خلق الله لأبدانهم، وعجيب ما قدر فصور من أعضائهم، وحسن من تصويرهم، وأتقن من تقديرهم، الذي لم يشكروا الله عليه، ولم يحمده فيه، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ

لِقَوْلِهِمْ ﴿يُرِيدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُوا﴾ أَي: يَتَكَلَّمُوا بِقَوْلٍ، وَإِنْ يَتَكَلَّمُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ، وَمَعْنَى ﴿تَسْمَعُ﴾ فَهُوَ: تَسْمَعُ، وَمَعْنَى ﴿يَقُولُوا﴾ فَهُوَ: لِكَلَامِهِمْ، يُرِيدُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَسْمَعُ﴾ أَي: تَسْمَعُ لِحَلَاوَةِ السُّتْهِمْ، وَتَعْجَبُكَ فَصَاحَةُ السُّتْهِمْ، وَحَلَاوَةُ لَفْظِهِمْ، حَتَّى تُصْغِي إِلَى اسْتِغَاةِ كَلَامِهِمْ، تَعْجَبُكَ مِنْكَ لِمُجُودَةِ لُغَاتِهِمْ، وَيَبَانَ أَقْوَامُهُمْ، فَهَذَا مَعْنَى تَسْمَعُ، لَا عَلَى أَنَّهُ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ اسْتِغَاةً تَصْدِيقًا، وَلَا قَبُولَ تَحْقِيقٍ، بَلْ هُوَ عَالَمٌ بِكَذِبِهِمْ، وَإِنَّمَا اسْتِغَاةُهُ وَإِصْغَاؤُهُ إِلَى قَوْلِهِمْ، تَعْجَبُ مِنْهُ لِحَسَنِ كَلَامِهِمْ، وَفَصَاحَةِ السُّتْهِمْ، الَّذِي لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، كَمَا تَعْجَبُ مِنْ خَلْقِ أَجْسَامِهِمْ، فَهَذَا مَعْنَى ﴿تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾.

ثُمَّ شَبَّهَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْخَشَبِ الْمُسْتَدَةِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَكَّنَهُمْ خُشْبَ مُسْتَدَةٍ﴾ يُرِيدُ سُبْحَانَهُ: الذَّمُّ لَهُمْ بِذَلِكَ، يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ عَنْ عَظَمِ أَجْسَامِهِمْ، وَتَمَامِ خَلْقِهِمْ، وَعَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ مِنْ جَهْلِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِعْمَالِهِمْ لِمَا رَكِبَ فِيهِمْ مِنْ عَقُولِهِمْ، فَلَمَّا أَنَّ لَمْ يَسْتَعْمِلُوا عَقُولَهُمْ، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا أُمُورَهُمْ، مَعَ عَظِيمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْخَلْقِ الْكَامِلِ السَّوِيِّ، الْحَسَنِ النَّيِّرِ الْبَهِيِّ، شَبَّهَهُمْ بِمَا لَا عَقْلَ فِيهِ، إِذْ لَمْ تَنْفَعِهِمْ عَقُولُهُمْ، فَضَرَبَ لَهُمْ بِالْخَشَبِ مَثَلًا، فَشَبَّهَ عَظَمَ أَجْسَامِهِمْ فِي الطُّوْلِ وَالْغُلْظِ وَالْجِسْمِ، بِالْخَشَبِ الْمُسْتَدَةِ، خَشَبِ النَّخْلِ الْكِبَارِ، فَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّ مَنْ عَظَّمَ جِسْمَهُ، وَحَسَنَ خَلْقَهُ، وَقَلَّ عَمَلُهُ، وَعَدِمَ اسْتِعْمَالُ عَقْلِهِ، وَعَزَبَ فَهْمُهُ، كَانَ فِي الْمَعْنَى كَالْخَشَبَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي تَعْجَبُ مِنْ نَظَرِ إِلَيْهَا، طَوْلَهَا وَعَرْضِهَا، فَهِيَ لَا تَنْفَعُ نَفْسَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالِهَا، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِذْ عَظَّمَتْ أَجْسَامَهُمْ، وَحَسَنَتْ صُورَهُمْ، وَعَدِمُوا اسْتِعْمَالَ عَقُولِهِمْ، بِالْإِعْرَاضِ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ خِذْلَانُهُ، وَأَحَاطَ بِهِمْ انْتِقَامُهُ، وَرَأَتْهُ الْمَعَاصِي عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَصَارُوا فِي قِلَّةِ النَّظَرِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَالْإِعْتِبَارِ بِآيَاتِ خَالِقِهِمْ، كَالْخَشَبِ الْمُسْتَدَةِ، الَّتِي لَا تَنْفَعُ أَنْفُسَهَا، وَلَا

تعتبر بشيء من أمر خالقها، واستوى عندهم الحق والباطل، كما استوى عند الخشب المسندة، فكل لا يفهم رشد، ولا يميز أمره، فبعدا لأصحاب السعير.

ثم أخبر سبحانه نبيته صلى الله عليه وأهله <sup>(١)</sup>، بما يلقون من الفزع من الحق وأهله، وما يخشون من سطواته على عدوه، فقال سبحانه: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يَدْخُلُونَ فِي لِيْسِهِمْ فَان كُنُوا لَهُمْ شُرَكَاءُ فِي كَذِبِهِمْ﴾ معنى ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ هو: يظنون أن كل دعوة دعوتها، أو وثبة وثبتها، ونهضة نهضتها، أنها عليهم وإليهم، وأنك تريد بهم بها وتقصدهم، وأنك لا تريد غيرهم، ولا تفعل ذلك إلا للبطش بهم. والصيحة فمعناها: الوثبة والنهضة، ودعاء الرعية، وجمع الرجال، فكانوا كلما تحرك رسول الله صلى الله عليه وآله لمواثبة عدو توهموا أنه يقصدهم، وأنه بذلك يريدهم دون عدو من غيرهم، وذلك لما في قلوبهم من الرية والبلاء، والكفر بالله العلي الأعلى، والمعادة لرسوله المصطفى، فأعلمه الله بذلك من أمرهم، وأطلعهم بما أخبره به سبحانه عن سوء ضميرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ ومعنى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: أولئك الذين يفعلون هذا هم أعداؤك حقا، وحريك دون غيرهم صدقا، والعدو فهو: المحارب، والمبغض والمناصب، والمدغل المداخل <sup>(٢)</sup> لرسول الله صلى الله عليه وآله بنوع من أنواع الفساد كائن ما <sup>(٣)</sup> كان. معنى ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: اتق شرهم ومكرهم، وكن على حذر، ولا تأمنهم في شيء من أمرك، ولا تتق بهم في سبب من

(١) في (١) ثم أعلم سبحانه بها...

(٢) في (١) والمبغض والمدغل والداخل.

(٣) في (١) من.

أسبابك، ﴿فَتَعْلَهُمُ اللَّهُ﴾ معناها: لعنهم الله، ﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ معنى ﴿أَنْتَى﴾ هو: كيف يؤفكون؟ ومعنى ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ فهو: يعرضون، ويتركون سبيل رشدهم، وقد يرون الحق في ذلك باديا لهم، ويؤفكون هاهنا فليست في معنى يكذبون، وإنما هي في معنى: يعرضون ويفرطون، ويتركون ويقصرون، وليست من جنس قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٧]، لأن الأفاك هاهنا هو: الكذاب، وإنما ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ في هذه السورة في معنى قوله سبحانه: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]، معناها: يستل عنه من قُرْطٍ وَقَصْرٍ، في يوم الجزاء بمن قصر، ويعرض في ذلك اليوم عمن أعرض في الدنيا، كما دعي إليه من الهدى فأفك في قبول الهدى، وفي تعلقه بضده من الردى، وسلوكه في طريق الخيرة والعمى.

ثم أخبر سبحانه بعثوهم واستكبارهم، وإعراضهم عن الله سبحانه وإدبارهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازٌ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، معنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ متى قيل لهم، ﴿تعالوا يستغفر لكم﴾ معنى ﴿تَعَالَوْا﴾ هو: اتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واسألوه يستغفر لكم ربكم، ومعنى ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فهو: يسأل الله المغفرة لكم، والتوبة عليكم، ﴿لَوَّازٌ رُءُوسَهُمْ﴾ هو: أعرضوا عن الحق، وهو شيء يفعله الكاره للشيء إذا دعي إليه لوى رأسه في شق، وأعرض أعراضا عن المكلّم له بما لا يهوى، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يقول: أبصرتهم يعرضون عن الحق إعراضا، ويعتدون عن الله عنودا، و﴿يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، ومعنى ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متجبرون لا يعرفون الله، ولا يبتدون، ولا له سبحانه يتذللون.

ثم أخبر سبحانه نبئيه بأنه لن يغفر لثلثهم، من كان مصرا على مثل ما هم عليه مصرون، من الكفر والفجور، والفسق وارتكاب الشرور، فقال سبحانه: ﴿سَوَاءٌ

عَلَيْهِمْ أَتُغْفَرُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠﴾، معنى «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ» فهو: سواء عندهم لفسقهم، «أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» إذ هم بك مكذبون، وعلى الله مجتزون، فهم لا يوقنون بك فيطلبوا استغفارك، ولا يصدقونك فيتبعوا دينك، وقد يكون معنى «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَتُغْفَرُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»: أن يكون الله تبارك وتعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وآله أنه لن يقبل استغفاره لهم لو استغفروا، إذ هم مصرون على كبائر عصيانه، والتكذيب بآياته وقرآنه، فأخبر أن استغفاره لمن كان ضميره كذلك، وإمساكه عن الإستغفار لهم سواء؛ لأن الله سبحانه لا يغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، فأما من لم يتب، وكان ضميره فاسداً، فلن يغفر له سبحانه أبداً.

ومعنى «أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ» فهو: سألت الله المغفرة لهم، «أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» يقول: أم لم تسأل المغفرة لهم، «لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» يقول: لن يتوب الله عليهم، ولن يعفو عنهم، ولن يغفر أبداً لهم، ألا تسمع كيف يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» يقول: لا يسدد ولا يوفق ولا يغفر ولا يرشد القوم الفاسقين، والفاسقون فهم: الفسقة في الدين، والفسق في الدين فهو: التكذيب بالحق المبين، والعنود عن شرائع الدين، وفيما قلنا به من ذلك ما يقول الله: «أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠﴾» [التوبة: ٨٠].

ثم أخبر سبحانه بما يقولون ويلفظون، وبه في أنديةهم يأتمرون، فقال: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٥﴾، فهذا قول عبدالله بن أبي  
 وأصحابه المنافقين، فأخبر أن هؤلاء الذين لا يقبل استغفار الرسول لهم، لما قد علم  
 الله من سوء ضميرهم، ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾  
 ومعنى ﴿لَا تُنْفِقُوا﴾ يقول: لا تعينوا ولا تواسوا من عند رسول الله من المهاجرين  
 الواردين من آفاق الأرض عليه، ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يقول: حتى يذهبوا ويفترقوا إذا  
 سهم الضر، ونالهم البلاء، فأخبر سبحانه أن له خزانة السموات والأرض،  
 وخزائنها فمعناها: ملكها وملك جميع ما فيها، من الأرزاق، في جميع الآفاق، وأنه  
 يرزق من يشاء بغير حساب، وأن لن يضيع المؤمنين إذا أخلصوا نياتهم، وصبروا  
 على أمره في جميع أسبابهم، وأنه سيأتيهم برزقهم من حيث لا يحتسبون، ويأتيهم  
 بمحبوبهم من حيث لا يرجون، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يخبر أن المنافقين  
 لا يعلمون ذلك، ولا يوقنون به، ولا يترهون أن رزق أصحاب محمد عليه السلام  
 إلا منهم لامن عند ربهم، بل الله سبحانه هو الرزاق للصنفين المؤمنين والمنافقين،  
 نعمة منه على من آمن به، وإكمالاً للحجة على من كفر به.

ألا تسمع كيف يحكي قولهم حين يقول: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ  
 لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ  
 الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فهذا قول من عبدالله بن أبي وأصحابه - لعنهم الله  
 - معنى ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يقولون: لنن قدمناها، وصرنا إليها،  
 ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ كأنهم - لعنهم الله - يعرضون بأنهم هم  
 الأعزون، وأن أصحاب رسول الله هم الأذلون، وقد كذبوا - عليهم لعنة الله - بل  
 هم الأذلون، وأصحاب رسول الله هم الأعزون، ومعنى قولهم: ﴿لِيُخْرِجَنَا﴾  
 فهو: ليطردهن، ولينحين منها، وليخرجن عنها، ألا تسمع كيف قال الله في إكذابهم،

ودفع قولهم، وإبطال لفظهم، وإثبات العزة له ولرسوله وللمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعزة فهي: القوة والقدرة والبطش، ونفاذ الأمر والنهي، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معنى ﴿وَلَكِنَّ﴾ هو: معنى التكذيب لقولهم، وإثبات الكذب عليهم، وهي كلمة تستعملها العرب في مثل هذا، تَرُدُّ بها كذب الكاذب، وباطل المبطّل، وتوجب الجهل عليه في قوله، ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ فهم: أهل الكذب والنفاق، وقول المحال والشقاق، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يفقهون ولا يدرون، ما يأتون ويذرون.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بما فيه نجاتهم، والبعد لهم من شبه غيرهم، بمن يُنسب إلى النفاق والكفر، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، بمعنى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فهو: يا هؤلاء الذين آمنوا، بمعنى ﴿ءَامَنُوا﴾ فهو: صدقوا وأيقنوا، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ يقول: لا تشغلكم أموالكم، ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، والأموال فهي: الأموال المعروفة التي يستغنى بمعرفتها عن شرحها، من الذهب والفضة، والحرث والأنهار، والأشجار والثمار والأنعام، التي تشغل الفاسقين عن الله، وتلهي المنافقين عن ذكر الله، وتمنعهم محبتها والإشتغال بها عن طاعة الله، والأولاد فهم: البنون المحبوبون المتزين بهم، المفتخر بكثرتهم، الذين يلهون أباهم بالمحبة لهم مع الجدة في أموالهم، عن ذكر الله سبحانه إذا لم يكونوا مؤمنين، فأمر سبحانه المؤمنين بالحدّ عن الإشتغال عن الله بالأموال والأولاد، كما يفعل من لا دين له من العباد.

وبمعنى ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فهو: عن طاعة الله، والعمل بمَرْضَاة الله، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ومعنى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فهم: الذين يفعلون ذلك فهم الخاسرون.

ثم أمرهم سبحانه بالإنفاق في سبيله، فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ومعنى ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ يريد: أخرجوا وأعطوا في سبيل الله عما رزقناكم، معنى ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾: أعطيناكم ووهبناكم، وفتحنا من أرزاقنا عليكم، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾ معناها: من قبل أن يرد على أحدكم الموت، ويتزل به، ويأخذه، والموت فهو: الفناء والزوال، و﴿أَحَدَكُمْ﴾ فهو: واحد منكم بعد واحد، وواحد بعد واحد، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ معناه فهو: يتكلم ويتمنى، ويطلب ويشاء، ومعنى ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ فهو: يارب لو أخرتني إلى أجل قريب، فأدخَلَ (لا) استحسانا لها في الكلام وهو لا يريد لها، وليس لها هنا أصل، وقد تقدم شرح مثل هذا في كتابنا، ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ يقول: أبقيتني ودفعت الموت عني ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يريد: إلى أمد قريب، ووقت دان، تزيدني من هذا الوقت الذي نزل بي الموت فيه، فأكون من بعده مؤخرا، ويكون الموت عني مردودا أياما يسيرة، ﴿فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يقول: أخرج الآن عند تصديقي لما عاينت من صدق وعدك ووعدك ما كنت ضانا به من مالي، وبخيلا به من موجودي، ﴿فَأَصَّدَّقْتُ﴾ وأخرج مفروض زكاته، وأنفقه في سبيلك، وأتقرب به إليك، حتى أكون بذلك عندك من الصالحين، وبها فعلت من ذلك من المؤمنين.

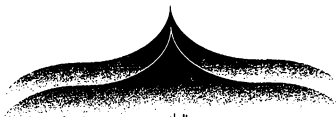
ثم أخبر سبحانه: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ومعنى قوله: ﴿وَلَنْ﴾ هو: إخبار بأنه لا يفعل، وهي في معنى (لا)، فأراد لا يؤخر الله نفسا، ومعنى ﴿يُؤَخِّرَ﴾ فهو: يعلي بعد الفناء ويعمر، ﴿نَفْسًا﴾ فهو: إنسانا وروحا وشخصا، حتى ﴿إِذَا جَاءَ﴾، ومعنى ﴿إِذَا جَاءَ﴾ فهو: حل ودنا، وأجلها فهو: موتها وفناء ملتئها، التي أجلت لها، وجعلت حية إلى بلوغها،

وهو المدة التي جعلها الله لها عمرا من الأيام والليالي الخاليات، والأوقات والساعات الفانيات، التي بانقضائها ينقضي الأجل، وبكاملها ينقطع الأمل، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى ﴿خَبِيرٌ﴾ فهو: عليم محيط بحافظ غير ناسٍ، لا يعزب عنه شيء من الأشياء، قاصيا كان في الأرض أودانيا، فعلمه بكل شيء محيط، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: بما يفعلون ويصنعون.

قال يحيى بن الحسين رحمة الله عليه ورضوانه وضاعف له أجره وإحسانه: تالله ما رأيت أشبه بالذين ذكرهم الله، وقص خبرهم في هذه السورة من المنافقين، من أهل دهرنا، وسكان دارنا، هؤلاء الذين نحن معهم في نفاقهم وقبح أفعالهم، وسوء صنيعهم، وقلة شكرهم، وكثرة كفرهم، وميلهم إلى الدنيا الغارة لمن كان قبلهم، المهلكة إلى من ركن إليها من نظرائهم، فنحن من نفاقهم في أمور كقطع الليل المظلم، المائل الخندس المدلهم، لا همة له في الحق ولا يقين، ولا رغبة لهم في معرفة شرائع الدين، همج أتباع كل ناعق، أعوان وعضد كل منافق، إن قالوا كذبوا، وإن أوعدوا أخلفوا، وإن عاهدوا نقضوا، ييغون المسلمين الغوائل، ويؤلبون على الحق القبائل، لا في ثواب الله يرغبون، ولا من عقابه يخافون، ولا منه سبحانه يستحيون.







# تفسير سورة التغابن





## ومن سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله سبحانه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ  
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، معنى ﴿يُسَبِّحُ﴾ فهو: يقدس ويعظم،  
ويجل ويكرم، ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو: كل ما أنشأ وبرأ من الخلق.

فمن الخلق ما يسبحه ويقدسه، بلسان ناطق ويذكره، وهم أهل الأمر والنهي  
من الخلق المأمورين بالطاعة، المنهين عن المعصية، من الملائكة والثقلين، من الجن  
والإنس المذكورين، فهؤلاء يسبحون له ويذكرونه بالتقديس والتكبير، والإجلال  
والتعظيم، وما كان مما في السماوات والأرض من غير المأمورين من الأشياء  
المخلوقات، والأمور المدبرات، من سائر ما خلق الله وذرا، من جميع ما أوجد من  
الأشياء، من النجوم والشجر، وغيرهما من كل ما فطر، فإنما تسبيحه وتقديسه  
تسبيح من يسبح من أجله، ولعظم ما فيه من صنعة ربه، فإذا رأى المؤمنون أثر صنع  
الله في هذه الأشياء، سبحوه بها رأوا فيها، وقصدوه لعظم ما رأوا من صنعه في  
إيجادها، فكان تسبيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل: إنها سبحت،  
لما كان التسبيح من أجلها وبها، ولما رأوا فيها من أسبابها، كما كان من السجود من  
الملائكة لآدم عليه السلام هو سجودهم لله الذي أوجد آدم، فكان سجودهم لله من  
أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده، وعظم تقديره في خلقه، فجاز أن يقال: سجدوا  
لآدم، إذ كان السجود من أجل آدم وسببه، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته،  
فعل ذلك ومثله، جاز أن يقول القائل في قوله: سبح كل شيء لربه من حجر أو  
مدر، أو نجم أو شجر، وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾، ﴿الْمُلْكُ﴾: ما جعل الله وما خلق من السماوات والأرضين، والآخرة والدنيا وما فيهما، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ معنى قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فهو: له الشكر لا لغيره، لأن الشكر الذي هو الحمد، لا يجب إلا للمستحمد إلى خلقه، بنعمه وآلائه، وفضله ونعمائه، وذلك الله رب العالمين.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر سبحانه أنه على ما أراد مقتدر، وله فاعل.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، فأخبر سبحانه بأنه الذي خلق الخلق كافراً ومؤمناً، وبرهم وفاجرهم، فكان سبحانه المتولي لخلق جميع الخلق من أهل الباطل والحق، خلق أبدانهم وصورها، وركب خلقهم وقدرها، كيف شاء، وعلى ما شاء، ولم يخلق سبحانه أفعالهم وكفرهم، ولا إيمانهم ولا صلاحهم ولا ضلالتهم، بل كان من ذلك برياً، وعن إيجاد شيء من أفعالهم متعالياً عليها، فأفعاله باينة عن أفعالهم، كما ذاته غير مشابهة لذاتهم، فأخبر سبحانه بقوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ بأن من خلقه المؤثر لمعاصي ربه، المختار للكفر به، ومنهم مؤثر للإيمان، مطيع للرحمن، فوصفهم بأفعالهم، من كفرهم وإيمانهم، ولم يصف نفسه بخلق شيء من أفعالهم، وكيف يخلق أفعالهم أو يوجد أفعالهم؟ وأفعالهم المنكرات من الأمور؟ من المظالم والشور؟ فتعالى عن ذلك الواحد الرحمن! وتقدس أن يكون كذلك ذو المن والإحسان.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦﴾، فأخبر سبحانه أنه بكل ما يعمل العاملون بصير، ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾ فهو: عالم خبير.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، معنى ﴿خَلَقَ﴾ فهو: أوجد وفتح، وابتدع وخلق، ﴿السَّمَوَاتِ﴾ فهن: السماوات المبنيات، المرفوعات المقدرات، ﴿وَالْأَرْضَ﴾ فهي: الأرض المدحوة الذي جعلها سبحانه لخلقه فراشا، وقدرها سبحانه لهم مهادا، ﴿بِالْحَقِّ﴾، فهو: بالعدل والصدق، ومعنى بالعدل والصدق، فهو: جعلها وأجعل ما فيها على الحق والصدق، ومعنى على الحق والصدق فهو: أمر من فيها به، وافترض عليهم اتباعه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يقول: خلقكم وقدركم، فأتقن ما خلق من صوركم، ومعنى ﴿فَأَحْسَنَ﴾ هو: فأجاد وأتقن ما برأ من بريحتكم، ودبر من أمركم، وقدر من نباتكم.

﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ يقول: إليه المرجع والمعاد، وإليه مصير كل العباد.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، ومعنى قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ فهو: يحفظ ويخبر، ولا يسقط عنه شيء صغر ولا كبر، ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يخبرهم أنه عالم بكل ما في السماوات والأرض، من كل شيء من الأشياء من جسم أو عرض، من فكر أو خاطر في قلوب المخلوقين، وأنفس المربويين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في أنفسهم فيخفونه أو يظهرونه من أمرهم فيعلنونه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فأخبر سبحانه أنه عالم بكل ما تكنه صدور العالمين، وتخفيه سرائر المخلوقين، ومعنى قوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فهو: بها في الصدور من جميع الأمور.

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم، وتنبها لهم بما كان من أمر القرون التي كانت من قبلهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾، معنى ﴿أَلَمَ﴾ فهو: أليس، و﴿يَأْتِكُمْ﴾ فمعناها: يبينكم، ويصل بكم ويبلغكم، فأراد بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أليس قد جاءكم؟ فطرح (قد) لأن (ألم) تقوم مقام (أليس)، وقد جُمعنا في لغة العرب، وكذلك ﴿يَأْتِكُمْ﴾ تقوم مقام جاءكم في اللغة العربية، ﴿تَبَوَّأُوا﴾ فمعناه: خبر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومعنى ﴿كَفَرُوا﴾ فهو: كذبوا وصدوا، وأنكروا وجحدوا، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فهو: من أول الأمر، ﴿فَذَاقُوا﴾ فمعناها: فوجدوا وعانوا عقوبة صنعهم، وواقعوا جزاء فعلهم، ومعنى ﴿وَيُنَالُ﴾ فهو: نكال عقوبة أمرهم، و﴿أَمْرِهِمْ﴾ فمعناه: فعلهم، ومعنى فعلهم فهو: ما كان من اجترائهم وكفرهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: في الآخرة عذاب أليم، والعذاب فهو: التعذيب بالنار، والنكال من الله لهم والتنكيل، فأخبر سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أن الذي ذاقوا، أي: بما عملوا من وبال كان في الدنيا، وأن في الآخرة لهم من العذاب ما هو أنكى، وأشد وأبلى.

ثم أخبر سبحانه بما ذاقوا ذلك كله من عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة التي تبقى، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ نزل ذلك العذاب بهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه كانت تأتيتهم رسلهم بالبينات، ومعنى ﴿بِأَنَّهُ﴾ فهو: لأنه، ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ فهو: إخبار عن فعل الرسل صلوات الله عليهم، وإتيانها بالنذر إليهم، وإشهادها الله سبحانه عليهم، ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ فمعناها: تحييتهم، وتصير إليهم، ﴿رُسُلُهُمْ﴾ معناها: الرسل المرسلة إليهم، فلما أن كانت مرسلة إليهم، شاهدة عليهم، جاز أن يقال: رسلهم، وإنما هي رسل الله لا رسلهم،

فنسبها سبحانه إليهم؛ إذ كانوا مرسلين إليهم، شاهدين عليهم، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ومعنى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فهي: بالآيات القاهرات الظاهرات، والعلامات الظاهرات النيرات، التي كانت الرسل صلوات الله عليهم، تأتيهم بها من عند ربهم، ﴿فَقَالُوا﴾ أبشرونا، ومعنى ﴿فَقَالُوا﴾ أي: فنطقوا وتكلموا بالمحال والإستكبار، والجرأة على الله الواحد الجبار، ﴿أَبَشِّرْ يَهُدُونَنَا﴾ يريدون أي: بشر مثلنا يدعوننا إلى الله ويأمرونا، فلم يطيعوا الله فيما أمرهم، واستكبروا عن طاعة بشر مثلهم، إذ كانوا رسلا لربهم، ومعنى ﴿يَهُدُونَنَا﴾ فهو: يعلمونا ويأمرونا، ويوقفونا على سبيل الله ويهدونا، ﴿فَكَفَرُوا﴾ معناها: كذبوا وعصوا، وجحدوا فلم يطيعوا، ومعنى ﴿تَوَلَّوْا﴾ فهو: أعرضوا عن الحق وأبوا، وتركوه وعتوا، ﴿وَأَسْتَفْنَىٰ﴾ اللَّهُ، فمعنى ﴿أَسْتَفْنَىٰ﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه باستغناؤه عن الخلق، وقلة حاجته إلى من أعرض عن الحق؛ لأنه إنما دعاهم لحاجتهم ومنفعتهم، لا لمنفعة له في شيء من إجابتهم، ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ فالغني هو: المستغني المكتفي بنفسه في جميع أموره، النافذة إرادته في كل خلقه، والحميد فهو: المحمود على نعمه، المشكور على آلائه.

ثم أخبر سبحانه بقول الكافرين، وجحدانهم لوعيد رب العالمين، الذي جاءت به إليهم رسلهم، وأدته إليه أنبياءهم، من بعثهم وحشرهم، ومجازاتهم على ما كان من فعلهم، فقال سبحانه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، معنى ﴿زَعَمَ﴾ فهو: قال وذكر، وتكلم وأخبر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهم: الذين كذبوا بما به أخبروا، وعليه من الله أطلعوا، من البعث والحساب، والثواب والعقاب، ﴿أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ معناه: أنهم لن يبعثوا، ومعنى ﴿لَنْ﴾ فهو: لا، فأراد سبحانه زعم الذين كفروا أنهم

لا يبعثون، فلما أن طرح لا، وأثبت مكانها لن، ولن حرف ينصب ما بعده، ذهبت النون من يبعثون علامة للنصب، فبقي يبعثوا، ومعنى «يُبعثُوا» فهو: يحيوا ويمشروا، ويردوا بعد الموت أحياء وينشروا<sup>(١)</sup>.

ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وعلى آله بإكذاب قولهم، والرد في زورهم عليهم، فقال: «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»، معنى «قُلْ» هو: أمر من الله بقول ذلك لهم، وإيقاعه في أسباعهم، «بَلَىٰ وَرَبِّي» فهو: قسم أمره أن يقسم بربه على بعثهم إنه لكائن، ومعنى «بَلَىٰ» فهو: إيجاب لقوله، وإكذاب لقولهم، وهي كلمة تستعملها العرب يوجب بها التكلم إذا قالها قوله، ويكذب بها قول محاجه، ويدفع بها قول مناظره، «وَرَبِّي» فهو: خالقي، ومعنى «وَرَبِّي» فهو: وحق ربي، «لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ» معناها: لتخرجن من قبوركم، ولتخشن إلى ربكم، ولتبعن أحياء بعد موتكم، «ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ» معنى «ثُمَّ» فهو: معنى الواو، وينسق بها كما نسق بالواو، يريد: لتبعن ولتنبئن، ومعنى «لَتُنَبَّؤُنَّ» فهو: لتخبرن ولتحاسبن، ولتجدن جزاء فعلكم، ولتجازون بما عملتم، ومعنى الباء، التي في «بِمَا» هو: على؛ لأن الباء من حروف الصفات، وعلى من حروف الضمات، فقامت الباء مقام على؛ لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضاً، وأراد: لتجازن على ما عملتم؛ ومعنى قوله: لتخبرن بما عملتم فهو: في هذا الموضع لتعرفن جزاء ما عملتم من كذبكم وكفرانكم، وظلمكم وجحدانكم، فأراد الله تبارك وتعالى بقوله: «لَتُنَبَّؤُنَّ» في هذا الموضع لتجازن، ولتعاقبن على فعلكم، ولم يرد لتخبرن عن فعلكم الذي تقدم منكم؛ لأنهم عالمون بما تقدم من فعلهم،

(١) حذف النون من الأفعال الخمسة باعتبار أن مفرها منصوب بـ «لن».

وليس التذكرة لهم بأفعالهم هو المعنى الذي قصده الله في هذا الموضع، وإنما قصد الجزاء، يقول سبحانه: ﴿لَتَنْبِئُنَّ أَيُّ لَتَعْلَمْنَ وَلَتَجِدَنَّ عِقَابَهُ كَفْرِكُمْ، عندما يكون من بعثكم في يوم حشركم، ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ معنى ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: البعث والحساب والجزاء، وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يقول: على الله سهل هين حقير.

ثم أمرهم سبحانه بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزل، احتجاجا منه عليهم، وتثبيتا لحجته فيهم، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، معنى ﴿فَتَأْمِنُوا﴾ فهو: أمر من الله لهم بالإيمان، والإيمان فهو: التصديق، يقول: صدقوا بأمر الله وبرسوله، يقول: وصدقوا بالنور الذي أنزلنا، والنور فهو: الحق الذي جاء به رسوله إليهم، من أمره ونهيه، وإعذاره وإنذاره، وكلما ذكر لهم من خبره، من بعث أو حساب، أو نشر أو ثواب، ﴿الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يقول: أوحينا وجعلنا لكم، وأمرنا الرسل بتبليغه إليكم، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يخبر أنه سبحانه بكل ما يفعلون عليهم، فخير معناها: عليهم، أي: لا يسقط عنه من ذلك صغير ولا كبير، يسير كان ولا كثير.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾، معنى ﴿يَوْمَ﴾ فهو: يوم القيامة، ومعنى ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ فهو: يحشركم ويبعثكم، ويأتي بكم من آفاق الأرض إلى هذا المقام، الذي جعله لكم محشرا، ولجميعكم موقفا، ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ لهم، فمعنى ﴿لِيَوْمِ﴾ فهو: إلى يوم، ﴿الْجَمْعِ﴾ فهو: الحشر للخلق، والجمع لهم إلى موقف الحق.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامِ﴾ معنى ﴿ذَلِكَ﴾ فهو: دلالة على ذلك اليوم، ألا تسمع كيف يقول: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامِ﴾ يخبر سبحانه أن ذلك اليوم هو يوم التغابن، و

التغابن فهو: التفاضل، معنى التفاضل فهو: حين يفضل بعض الناس بعضا، ويغبن بعضهم في ذلك اليوم بعضا، بما يستأهله بعض الناس دون بعض، من الثواب العظيم، و العطاء الجسيم، جزاء على ما كان من فعلهم، في دار دنياهم وعملهم، يغبن بعضهم في عطاء الله بعضا، بما يستأهله من ثواب ربه جزاء على فعله، فشبّه الله سبحانه تفاضلهم في الآخرة في ثواب الله، بتفاضلهم، فيما يتفاضلون ويتغابنون به في دنياهم، ألا ترى أن من نال حظا في الدنيا ولم ينله صاحبه، قال: غبستي، أي: فضلتني واستأثرت به وفيه علي، فكل من كان له فضل في شيء فهو: غابن للمفضل، والمفضل مغبون، والفاضل غابن، فضرب الله مثلا لهم تفاضل الآخرة وتغابنها، بتفاضل الدنيا ومغابنة من فيها، حضا لهم على العمل بطاعته، وتحذيرا للتغابن في عطاياه في دار آخرته، في يوم الحسرة والندامة، وطلب الإقالة حين لا إقالة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، معنى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فهو: الذي يؤمن بالله، ومعنى ﴿يُؤْمِنْ﴾ فهو: يصدق، ويقر بالله سبحانه ويرسله، وبكل أمره، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ معنى ﴿يَعْمَلْ﴾ فهو: يفعل ويصنع، ومعنى ﴿صَالِحًا﴾ فهو: حقا مرضيا، ﴿نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾، معنى ﴿نُكَفِّرْ﴾ هو: نغفو، ﴿عَنْهُ﴾ معناها: له، ﴿سَيِّئَاتِهِ﴾ ومعناها: ذنوبه وخطاياها، و ﴿نُدْخِلْهُ﴾ معناها: نصيره إلى جنات، والجنات فهي: دار الرضى والخيرات، ودار الثواب والعطايات الجزيلات، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فهي: تسيل من تحتها، و تحتها فهو: أسفلها، ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فهي: أنهار الجنة الجارية، ومياهها العذبة الطيبة الهنية المريّة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ معناها:

مقيمين فيها، ﴿أَبَدًا﴾ أي فهو: دائم سرمد لا انقطاع له ولا فناء، ولا غاية لمدته ولا انقضاء، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ معنى ﴿ذَلِكَ﴾ هو: ذلك الفعل الذي فعلناه، لمن أدخلناه جنتنا وأعطيناه ثوابنا وأتينا، ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول: ذلك العطاء هو الفوز العظيم، والخير الكثير الجسيم.

ثم أخبر سبحانه بمحل الكافرين، ومصير المكذبين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهو: خالفوا وعصوا، ولم يشكروا ما أولوا وأعطوا، من إرسال المرسلين إليهم، وإثبات حجج الله سبحانه بالتبليغ فيهم، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معناها: كذبوا بأمرنا، وجحدوا رسلنا، ولم يقروا بشيء من آياتنا التي بعثنا بها رسلنا، والآيات فهي: المعجزات، وما جاء به الرسول، وأراه الخلق من آيات الله التي لا تكون إلا منه، ولا تأتي إلا عنه، ومن الآيات ما أرسل به الرسل من الأمر والنهي، فكذب الكافرون بذلك كله، وجحدوا ما جاء به عن الله من نوره، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ معنى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فهم: الذين فعلوا ذلك، هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾، ومعنى ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فهم: سكانها وأهلها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ معناها: مقيمين فيها أبدا، لا يخرجون منها إلى غيرها، ولا يزالون حالكين طول الدهور فيها، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ معنى ﴿بِئْسَ﴾ فهو: شر موئل ومصير، ومكان وقرار، والمصير فهو: المكان الذي يصار إليه، ويقام فيه، ومعنى يصار إليه فهو: يحل فيه، ويرجع إليه.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، معنى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ فهو: كل ما أصاب من مصيبة، ومعنى ﴿أَصَابَ﴾ فهو: وقع ونزل، ومعنى ﴿مُصِيبَةٍ﴾ فهو: نازلة من عنة أو نعمة، أو

فعل غير ذلك من فعل الله سبحانه أو فعل غيره، من مصائب الدنيا، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا القول فيخرج على معنيين، ثم يتفرع كل معنى منهما على معنيين:

فأما أحدهما فهو: ما كان من فعل الله عما يكون الله المتولي له من المصائب النازلة بالخلق، ويكون ذلك على معنيين: إما مصيبة أصابت من الله على طريق الجزاء والإنقاذ، من أحد أعدائه ذوي المعصية والإجرام. وإما مصيبة نزلت من الله على طريق المحنة بمن يمتحن من عباده الصالحين، وأوليائه الصابرين، فهذا معنى ما كان من الله، وهو يتفرع على هذين المعنيين. ومعنى قوله في هذا المعنى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو: يحكم الله وإرادته ومشيته.

والمعنى الآخر من المصائب فهو: ما ينزل بالخلق بعضهم من بعض، ثم هذا المعنى يتفرع على معنيين فأحدهما: ما ينزل من المصائب بالمؤمنين من الفاسقين، فهذا لم ينزل إلا بعلم الله أنه سيكون ويتخلّيته.

ومعنى قول الله فيه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو: بتخلية الله وعلمه.

والمعنى الثاني فهو: ما ينزل من المصائب بالفاسقين من المؤمنين، وعلى أيدي عباد الله الصالحين، من إقامة الحدود عليهم، وإظهار الحكم من القتل وما دونه، ومعنى قول الله في هذا المعنى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو: بأمر الله وحكمه، وإذنه لأوليائه في أعدائه. فافهم ما فسرنا من معاني المصائب، وما شرحنا في معانيها كلها، ومخرجها من تفسير قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقد ميزنا لك ذلك كله، وشرحناه وفسرناه وأثبتناه، وبيننا مغانيه، وشرحنا تأويله، على أصله وفرعه، بما فيه كفاية ونور، لمن كان ذا معرفة باللغة والعلم.

ثم أمر سبحانه بها فيه النجاة لمن قبله فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

فَبَاتَ تَوَلَّيْتُمْ فَأَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا أَلْبَلَعُ أَلْمُيِّنُ ﴿١٠﴾، معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فهو: اتباعوا أمر الله في كل ما يأمركم به فافعلوه، وما ينهاكم عنه فاتركوه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيها يأمركم به من أمرنا، ويبلغكم من رسائلنا، ويفترض عليكم من فرضنا، ﴿فَبَاتَ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقول: فإن أعرضتم وكذبتم، ولم تُقبلوا على الرسول، ولم تأمروا بما أمركم به من أمرنا، ﴿فَأَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا أَلْبَلَعُ أَلْمُيِّنُ﴾ يقول: فإنما عليه أن يبين البلاغ لكم، ويبلغكم ما به أمركم ربكم، وليس عليه أن يجبر قلوبكم، ويصلح سريرتكم، كما عليه أن يصلح علانيتكم، إنما عليه صلى الله عليه وعلى آله أن يضربكم بالسيف حتى تسلموا لما بلغكم عن الله، وأمركم به من دين الله، وليس عليه صلاح قلوبكم؛ إذ كان غير قادر على ذلك منكم؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يطلع على السرائر إلا الله، و﴿أَلْبَلَعُ أَلْمُيِّنُ﴾ فيقول: البلاغ الظاهر النير، الذي لا يخفى منه شيء ولا يستتر.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فأخبر سبحانه أن المرسل بالبلاغ المبين هو الله، الذي لا إله إلا هو، ومعنى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو: لا إله غيره، ولا خالق سواه، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومعنى قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فهو: أمر منه سبحانه للمؤمنين، أن يكونوا عليه متوكلين، وبه في كل أمرهم واثقين، ومعنى ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ هو: فليعتمد وليتكمل، ومعنى يتكل فهو: يثق به في كل أمره، ويتكل على كفايته له في كل شأنه، قوله: ﴿أَلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهم: عباده المنقطعون إليه، والمتوكلون عليه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأخبر سبحانه عباده المؤمنين، بعداوة أهل المخالفة في الدين، من الأزواج والأولاد، والبنات والبنين، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ فأخبر سبحانه أن من خالف الدين، وتأدب بأدب غير رب العالمين، وكان عند الله من الفاسقين، كان عدوا بذلك الفعل لأبائه المؤمنين، وكذلك من كان من زوجات المؤمنين على غير طريق الحق، ولا متعلقات بعروة الصدق، كن أعداء لأزواجهن المؤمنين، وكذلك فقد يخرج المعنى في العداوة من الرجال الفاسقين للأزواج المؤمنات، فتكون عداوة الفاسق من الأزواج للزوجة المؤمنة على إيمانها وتقواها، كما تكون العداوة من الزوجة المخالفة في الدين لزوجها، فالآية قد تحمل المعنيين، ويستظم جميع الحالين؛ إذ كان لا يمتنع أن تكون الزوجة تقية مؤمنة، ويكون الزوج فاسقا فاجرا، فتكون العداوة منه لها على الدين، كما تكون العداوة من المخالفة من الزوجات للزوج المؤمن في الدين، كما تكون العداوة من الأولاد للوالدين كليهما، وللوالد والوالدة، فكل الزوجين قد تكون منه العداوة، وحيث كان الإيمان والهدى من الزوج والزوجة فالمخالف للذهب الحق هو المذموم بالعداوة، المخصوص في كتاب الله باللائمة، والمؤمن فهو: المحذر لعداوة الكافر، وليس الكافر بمحذر لعداوة المؤمن؛ لأن المؤمن لا يعادي مؤمنا، ولا يستجيز فيه غثا، فافهم ماقلنا به في قوله الله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ فدل بذكره بعضا دون بعض على أهل الخلاف والمعصية، كائنا من كان من بعض الأزواج، أو بعض الأولاد، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ فَحَذَّرَهُمْ أَمْرَهُمْ، وَخَوَّفَهُمْ

كيدهم، وَبَنَّهُمْ عَلَى اتِّقَاءِ شَرِّهِمْ، وَلَنْ يُحْذِرَ وَلَنْ يَنْبَهَ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَنْ يُحْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مِنَ الْفَاسِقِينَ الْمُخَالِفِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُ بِمَكْرِهِمْ، وَلَا بِوَأْتِهِمْ، فَافْهَمِ رَحِمَ اللَّهُ مَا قُلْنَا، وَمِيزْ بِقَلْبِكَ تَفْهَمِ مَا شَرَحْنَا، وَتَقِفْ عَلَى جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَا.

ثم قال: ﴿وَأِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ فضض سبحانه على العفو، والصفح والغفران لهم، لما بينهم من وشائج الخلطة، من الولادة والنكاح، وأراد بذلك يأمر المؤمنين بالتعطف على من ذكر من الأولاد والأزواج، ما لم يخرجوا إلى البايئة بالمشاقة في العداوة لأوليائه المؤمنين، من أبنائهم وأزواجهم، ثم قال: ﴿فَبَارِئُ اللَّهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأخبر أنه غفور لمن استغفره بعد التوبة النصوح البيئة، واسترحمه بعد الرجعة عن المعصية.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، يقول: إنها تفتن كثيرا من الجهال عن طاعة الله، وتدخله في المعصية لله، ومعنى ﴿فِتْنَةٌ﴾ فهي: عنة امتحنت بها، ليعلم الله أيكم يثبت معها على أصل دينه، وأيكم تفتنه وترده عن حقه.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يريد: أن عنده سبحانه لمن لم تفتنه الأموال والأولاد، فيخرجه الإعجاب بها عن الهدى، ويدخله في بحر الهوى، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والأجر العظيم فهو: الثواب الكريم، والعتاء الجسيم.

ثم قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾، فأمر باتقاء الله، ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هو: خافوا الله وراقبوه، في سرهم وعلايتكم، وكونوا له خائفين، ولثوابه متنجزين، قوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يقول: ما أطقتم، وعليه قوتهم؛ لأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، كما قال جلا جلاله، عن أن يحويه قول أو

يناله: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ معنى ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ فهو: اتسمروا إذا أمرتم، وانتهوا إذا نهيتم، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ معناها: أطيعوا الله في إقامة فرضه، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من ذلك به.

﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ يقول: أنفقوا من أموالكم ما يتكفون به الخير لأنفسكم، والخير فهو: الأجر.

﴿وَمَنْ يُّوقْ شَحٌّ نَفْسِهِ﴾ فمعنى «يُوقِ» فهو: يوقى، ومعنى يوقى فهو: يصرف عنه، ويكفى شح نفسه. ومعنى «شَحٌّ نَفْسِهِ» فهو: شر الشح وبلاؤه، ونازلته وشقاؤه، وأثمه ولؤمه وآذاه؛ لأن من كان ذا شح ولوم، كان عند الله مدحورا مأثوما، وعند الناس مقبحا ملوما، فأخبر سبحانه أن من يوق شح نفسه وشره، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فطرح بلاه وشر نفسه، وهو يزيده، والمعنى لحق ذلك كما قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، وإنما المعنى: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حب، وهو يزيده، والعرب تفعل هذا، تطرح ما كان مثل هذا في المعنى وهي تريد، وكذلك قال الله سبحانه: ﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، أراد أهل القرية، وأهل العير، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

ألا إنني أسقيت أسود حالكا      الأبجلي من ذا الشراب الأبجل<sup>(١)</sup>

وإنما أراد: إني سقيت سم أسود حالك، يعني: سم الحية السوداء، فطرح السم

وهو يريد، فعلى ذلك يخرج قول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ يريد: ومن يوق شر شح نفسه، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول سبحانه: من وقى شر شحه، وسوء عاقبته، بالتوفيق للسخاء والتسديد، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معنى المفلحين هم: الفائزون الناجون من عواقب أفعالهم، والسالون من تواب أعمالهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾، معنى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ فهو: إن تخرجوا لله، وتنفقوا في سبيل الله، شيئا تقصدون به وجه الله، ولا تريدون به شيئا غير الله، يكون ذلك قرضا حسنا، ومعنى ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: فعلا جيلا، لا يتبعه من ولا أذى، ﴿يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي: يضاعف لكم أجره، ويسط لكم عليه رزقه، في الدنيا والآخرة، بالعطاء الجزيل، والثواب الجليل.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ معنى ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يقول: يقبل منكم نفقاتكم، فيغفر لكم ذنوبكم، ويقبل توبتكم، ومعنى ﴿شَكُورٌ﴾ فهو: شاكرا الحسانات، ومعنى الشكر لله فهو: الإيجاب منه للقبول ممن فعل فعلا يريد به سبحانه مخلصا، ﴿حَلِيمٌ﴾ فمعناها: المتأنى بخلق، الذي لا يعاجلهم عند زلتهم، ولا يأخذهم عند عثرتهم، ليعودوا ويرجعوا، ويتوبوا ويبتدوا، ذو الصفح والأناة العظيمة، والرحمة والمغفرة الجزيلة الكثيرة.

﴿عَلِيمٌ أَلْفَيْبٌ وَالشَّهَادَةُ﴾، بمعنى ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو: خبير بما يكون، ﴿أَلْفَيْبٌ﴾ فهو: ما غاب من الأشياء فلم يظهر، وأسر مما قد أسره مُبَيَّرٌ، وما سيكون ولم يكن، فالله عالم بذلك كله، كعلمه بالظاهر المشاهد، ألا تسمع كيف

يقول: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فالغيب هو: ما غاب عما ذكرنا، والشهادة فهو: ما أعلن وشهد، وعُلم فلم يستتر، فأخبر سبحانه أن علمه بالغيوب المستجنة، كعلمه بالشهادة الظاهرة.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فالعزیز فهو: القوي القاهر، الغالب الظاهر، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فهو: ذو الحكمة المتقنة، والأفعال المحكمة، التي لا تفاوت في تدبيرها، ولا تفاوت في تقديرها، فتبارك الله ذو الحكمة والقدرة، والعزة الظاهرة، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، خالق كل شيء وفاطره، ومدبره ومقدره، رب العرش الكريم، الواحد الفرد العليم.





# تفسير سورة الطلاق





## ومن سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الْيَبْيُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، معنى ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ فهو: نداء من الله سبحانه لثبته عليه السلام، وأمر ودلالة منه على ما فيه الرشد له وللمؤمنين، ولجميع من معه من أوليائه الصالحين، ومعنى ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ فهو: أيها، و﴿الْيَبْيُ﴾ فهو: الرسول المنبي، بها يأتيه من وحي الله العلي، ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ يقول: إذا فارقتم ﴿النِّسَاءَ﴾ ومن: الأزواج ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ معناه: فارقوهن لعدتهن، والعدة فمعناها: الطهر من غير جماع، والعدة المذكورة المجمولة من القروء الثلاثة، أو الثلاثة الأشهر هي التي جعلت عدة للمطلقات، ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ فيقول: عدوا الأيام واحفظوها، والأقراء والعدة فهي: ثلاث حيض للتي تحيض من النساء، وثلاثة أشهر مع التي لا تحيض من صغر أو كبير.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ يقول: اتقوه في احتصاء ذلك كله، والإحاطة به، لا تعجلوا عن اتمامه، ولا تحبسوه بعد وفاته، يقول: لا تعجلوا من أجل النفقة فخرجوهم من قبل أن يستتمن العدة، ولا تحبسوه بعد انقضاء عدتهن لتضاروهن بالحبس لمن.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَحْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَتَّيَّنَ

بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**، معنى **﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾** يقول: لا تخرجوهن من البيوت اللواتي طلقن فيها، وكن مع الأزواج حالات بها، **﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾** معناها: لا يسدى إليهن قبيح يخرجن به من ضيق، ولا عسر ولا قبيح من المرأة، **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾** معنى **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾** فهو: إلا أن يفعلن فاحشة، والفاحشة فهي: المعصية لله في كل شيء من كبائر معاصيه، اللواتي حرم فعلها، وقد قيل: إن الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة، وليس ذلك بشيء، بل هو أمر مما حرم الله عليهم من ذلك ومن غيره.

معنى **﴿مُبِينَةٍ﴾** فهو: مبينة لنفسها، مظهرة لما جاء من صاحبها، **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾** ومعنى **﴿تِلْكَ﴾** فهو: هاتيك، ومعنى هاتيك فهي: هذه الشروط والمعاني، والأمر والنهي الذي حد لكم من أمر الله، وأوقفكم عليه من فرض الله، من شروط الطلاق والحدود، ومعاني العدة وأسبابها، **﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** فمعنى **﴿يَتَعَدَّ﴾** هو: يتجاوزها، ويتخلى عنها ويتركها، ويفعل غير ما أمر به منها، **﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾** فهي: فروض الله التي جعلها، وحدوده التي أوقف سبحانه عباده عليها، **﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** يقول: ظلمها بما أدخلها فيه مما أوجب عليها عذاب ربها.

**﴿لَا تُدْرِي﴾** يقول: لا تعلم ما يكون **﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾** يقول: لعل الله يأتي بعد الفراق، بأمر من المراجعة والإنفاق، ومعنى **﴿يَتَعَدَّ ذَلِكَ﴾** فهو: بعد ما كان من الفراق، وما جاء بينها من الطلاق، **﴿أَمْرًا﴾** يريد: مراجعة وصلاح.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾، يقول: إذا بلغن آخر عدتهن، وقضين ما أوجبنا عليهن من مدتهن، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يقول: راجعوهن بالأمر المعروف عند الله، وعند المسلمين، الذي تجوز به مراجعتهن، ويحل بكيנותه الإفضاء إليهن.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فمعنى ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾ يقول: أتموا لهن ما قد أوقعتم عليهن من طلاقهن، وعزمت عليهن من فراقهن، بالتخلية لهن، والإشهاد بذلك من أمرهن، ومعنى قوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ فهو: بأمر حسن مفهوم، وأمر من المفارقة معلوم، ومعنى معلوم فهو: مشهود عليه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ فمعنى ﴿ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ فيها: صاحبا العدل في فعلهما وقولهما، وما يكون من حكمهما، والعدل فهو: الحق والقسط، يقول: أشهدوا على ما يكون من الفراق، وانقضاء العدة والطلاق، عدلين من عدولكم، ليكون ذلك أنفع في العاقبة لهن ولكم، وأنجز مما يخاف في ذلك منهن ومنكم، من التعنت والأذى، والإدعاء لغير ما كان من الأشياء.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ معنى ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾: أدوا ما استشهدتم عليه على وجهه، وأتوا به على صدقه، والشهادة فهي: ما استودع الخلق من شهاداتهم على ما علموه، مما استرعوه من الأمر واستودعوه، ﴿لِلَّهِ﴾ يقول: اصدقوا بإقامتكم للشهادة، وتأديتكم لما عندكم من الأمانة لله رب العالمين، الذي افترض ذلك عليكم، وجعل إقامة الشهادة بالحق ديانة فيكم.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾ معنى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ فهو: الأمر الذي جعل فيكم، وافترض بحكم الله عليكم، من إقامة الشهادة، ﴿يُوعَظُ بِهِ﴾ فهو: يؤمر، ويخوف به ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فأخبر أنها يوعظ به الموعدون من ذلك،

ويخوف به المخوفون، ويؤمر به المأمورون، لا ينفع إلا من كان بالله مؤمنا، وباليوم الآخر مصدقا موثقا، ومعنى «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» فهو: يصدق بالله ويتقيه، في كل ما يفعله ويأتيه، «وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فمعناها<sup>(١)</sup>: يوقن باليوم الآخر، ويصدق بها فيه من العقاب والثواب.

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا» ﴿٢٢٦﴾ «يَتَّقِ اللَّهَ» فهو: يؤمن بالله ويخافه ويتقيه، «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا» معناها: يجعل له بقبول التوبة من ذنوبه مخرجا، مع ما يجعل له من المخارج والتوقيق والتسديد، والمعونة والتأييد، الذي من ناله ورزقه اتسع عليه أمره، وتفسح عليه شأنه.

«وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» ، يقول: يسبب له رزقه من حيث شاء سبحانه، من الوجوه التي لم يحتسب العبد التقي، ولم يرجها فيها كان يرجو.

«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ، معنى «يَتَوَكَّلْ» فهو: يعتمد، ويتوكل على الله في أمره، ويسند إليه بالثقة به مهيات أمره، «فَهُوَ حَسْبُهُ» يقول هو: غايته وكفايته، ومتتهى بغيته، ورأس حاجته، وأقصى إرادته. معنى «بَلِّغُ» فهو: قادر، ومعنى «أَتَمُّهُ» فهو: إرادته، فأخبر سبحانه أنه يبلغ ما أراد وشاء، ولا راد لحكمه، ولا صارف لأمره.

«قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» ﴿٢٢٧﴾ معنى «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ» فهو: قد فعل الله وركب وميز وعيّن، «لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» يقول: لكل شيء مقدارا ركه وأوقعه سبحانه بقدرته فيه.

(١) في (أ) و(ج): فمعنى.

﴿وَالَّتِي يَسْنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾، معنى ﴿وَالَّتِي﴾ فهن: اللواتي، ﴿يَسْنُ﴾ فمعناها: أيسن من المحيض، ومعنى ﴿يَسْنُ﴾ فهو: أيقن أنهن لا يحضن لكبر السن، وارتفاع الحيض منهن، فقد أيست كل واحدة منهن أن ترى حيضا من نفسها، بعد مبلغها ما بلغت من سنها، و﴿الْمَحِيضِ﴾ فهو: الدم والطمث، ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ معناها: من أزواجكم ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ يقول: إن شككتم هل في أرحامهن ولد أم لا، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ يقول: يعتدودن عند الطلاق، ويستبرين أرحامهن بوقوف ثلاثة أشهر، ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يقول: اللواتي لم يحضن، واللواتي لم يحضن فهن: الصبايا الصغار اللواتي لم يرين حيضا، ولم يعرفن بعد دما، فجعل سبحانه عدة الكبيرة التي قد أيست من الحيض ثلاثة أشهر، وكذلك جعل عدة الصغيرة التي لم تحض أيضا ثلاثة أشهر، إذا مضت هذه الثلاثة الأشهر عن الأيسة الكبيرة، والصبية الصغيرة، فقد انقضت عدتهما، وحل للرجال تزويجهما.

ثم أخبر سبحانه بعدة الحامل وأمرها، وما جعل سبحانه من الأجل لها، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أوتيناها: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معنى ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ﴾ فهن: صواحيب الأحمال، والأحمال فهن: ما يحملن في بطونهن من أولادهن، الذي جعل الله في أرحامهن، ومعنى ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ فهو: مداهن الذي يصرن إليه، ويقفن عن التزويج حتى يبلغنه، وبلوغهن له فهو: ما ذكر الله سبحانه من وضعهن لحملهن، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَأَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول: أن يضعن ما في بطونهن إلى الأرض، ويستبرين منه، ويفصل عنهن، ويتبرا هو أيضا منهن بخروجه إلى الأرض، التي جعلت له مهادا ومسكنا، حيا وميتا.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر المطلقات، وما أمر به فيهن من البنات، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول: من يتق الله فيها شرط وذكر، وجعل من هذه الأجال وأمر، فيكون له فيها متقيا، ولأمره بالإنقاء والإستيفاء لها مؤتمرا، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول: يصنع له يفعل ويهي، ويجعل له ﴿مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول: من شأنه كله خيرا وفرجا، وأمر مستويا حسنا، ويعطيه ثوابا له على اتقائه لربه، تيسيرا من كل أمر عسير، وتوفيقا وتهوينا لما عسر عليه من أمره، واشتد عليه من أسبابه.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾، معنى ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ذلك حكم الله، ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أنزله عليكم، وأمره الذي جعله فرضا مؤكدا فيكم، من إمساكن بالمعروف، أو مفارقتهم بالمعروف، وإشهادكم على ذلك، وما جعل من العدة لمن آيسات كبارا كن أوصابيا صفارا، وحوامل لحملهن، وما جعل في ذلك من الشروط عليكم فيهن، فكل ذلك أمر الله الذي أنزله، وحكمه الذي حكم به في ذلك عليكم وفيكم.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ يقول: من يكن لله متقيا خائفا، متبها إليه راجعا، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ يقول: ثوابا وأجرا.

ثم رجع فقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾، يقول: أسكنوهم في وقت اعتدادهم، ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ معنى ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ فهو: حيث ﴿سَكَنْتُمْ﴾ يريد: حيث كنتم أوخللتم، وأمسيتم وأصبحتم، ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ فهو: طاقتكم وجدتكم، من المازلة التي تكون كفانا لكم، فأمرهم سبحانه أن

يسكنون من حيث سكنوا من جيد المنازل أوردتها، وأن لا يعزلوه من مواضعهم، وأن يكن في البيوت التي يكونون فيها، ولا تجعلوه في موضع سراها، ولا تنقلوه عنها إلى ما هو <sup>(١)</sup> أصيب منها وأردى، وأقل في السعة وأبلى، ألا تسمع كيف يقول: ﴿وَلَا تُضَاوِرْهُمْ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقول: لاتضاروهن بإخراجهن من منازلهن التي كن فيها، إلى غيرها فتضيقوا بذلك عليهن، متعمدين للتضييق عليهن، مخطئين بذلك في أمرهن.

ثم ذكر سبحانه ماجعل لأولات الحمل من النفقة، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْ أَزْلَيْتَ حَمْلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معنى ﴿وَإِنْ كُنْ﴾ فهو: إن كن الزوجات المطلقات أولات حمل. ومعنى ﴿أَزْلَيْتَ حَمْلَ﴾ فهن: صواحب حمل، أي: في بطونهن حمل، والحمل فهو: الأولاد، ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ يقول: مؤنوهن بالنفقة والكسوة والخدمة، والقيام عليهن بجميع مصالحهن، ﴿حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يريد: يلدن ويضعن ما في بطونهن، فإذا وضعن ما في بطونهن، وخرجن من عدتهن، فقد انقطعت النفقة عنكم لهن.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من أمر إرضاع الأولاد بعد مفارقتهم، فقال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُمْ أَجُورَهُمْ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يقول: إن أرضعن الزوجات لكم أولادكم، الذين ولدتهن بعد مفارقتكم لهن، ﴿فَتَأْتُوهُمْ أَجُورَهُنَّ﴾، ومعنى ﴿فَتَأْتُوهُمْ﴾ فهو: اعطوهن وأوفوهن، وأدوا إليهن، ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ فمعنى ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ فهو: الإجازات، والإجازات فهي: الأجرة والكرام التي يستأجرنها، ويكتري المروض لصبيه أبو

(١) سقط من (ج): هو.

الصبي، فيقول: ادفعوا ذلك إلى أمهات أولادكم إن أرضعن لكم، فهن أحق بذلك من غيرهن، وأولى برضاع أولادهن، إن أردن ذلك وشئته، وطلبته وبغيته، ومعنى ﴿وَأْتِمِرُوا بِئِنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾: تشاوروا بينكم، يا هذا الرجل ويا هذه المرأة في أمر رضاع هذا الصبي، والمعروف فهو: الأمر الحسن، يريد: تواصلوا بينكم في رضاعه بأمر جميل، لاتشط المرأة على الرجل في إرضاع ولده، فتزداد عليه فوق ما يجب، ويعتته فيما تطلب، ولا يعتتها بالإقلال لها، ويشط عليها في رضاع ولدها بالكس لها بما يجب لئلا.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه في تصحيح ما ذكرنا، وتفسير ما شرحنا، من قوله: ﴿وَأْتِمِرُوا بِئِنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ حيث يقول: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْعُ لَدَ أَحَرَّتَ﴾، يقول: إن تعاسرتم في أمر الشرط الذي يكون لها على إرضاعها لولدها، فلا بد أن ترضع له أخرى، يقول سبحانه: إن طلبت المرأة شططا، فسيرضع الرجل ولده غيرها من النساء، بدون ما طلبت من الأجرة والعطاء، وإن طلب أبو الصبي من أمه رضاعا بوكس من الأجرة، وعسر عليها في الإنفاق فلا أن يسترضع غيرها إن تركت الولد أمه، فينفق ويخرج، وينفق للمرضع الأخرى فوق ما أراد أن يعطي أم الصبي، فأخبر سبحانه أنه لا بد من الحق، وأن من عتد منها عن الحق، فسيوجد للصبي مرضعا بالحق، الذي عتد منها من عتد منها<sup>(١)</sup> عنه.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾، يقول: ذو الجدة من جدته، وذو المقدرة<sup>(٢)</sup> من قدرته، على النفقة من نفقته.

(١) في (ج): عند عنها من عند عنه.

(٢) في (ب) و (ج): القدرة.

﴿وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ يقول: من قدر عليه، ولم يوسع ما في يديه، فكان بذلك معسرا، ﴿فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾، يقول: مما رزقه الله على قدره وطاقته، فأزاد سبحانه بذلك الإخبار عن ذي السعة، وذو الفاقة والحاجة، والأمر لها بأن تنفقا على قدر ما في أيديها، ويخرجا من رضاء ولدتهما على قدر انقطاعهما ورزقهما، فأمر بها ذكر من ذلك للأب إذا كان ذا سعة، أن يوسع على أم ابنه إذا أرضعت له، وأمر أم الولد أن تقصد وتقبل ميسور أب ابنها إذا قدر عليه رزقه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ يريد فلينفق عليها، على قدر ما آتاه الله، ومعنى ﴿آتَاهُ اللَّهُ﴾، فهو: رَزَقَهُ وأعطاه، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ معنى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ أي: لا يجعل الله على نفس حكما فوق ما تطيق من النفقة، ولا يحكم عليها من النفقة إلا على قدر ما رزقها وآتاه، ﴿سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾: سيؤتي الله ذا العسرة بعد عسره يسرا، حتى يكون بعد اليوم موسرا، كما كان اليوم معسرا، فهذه عِدَّةٌ من الله تبارك وتعالى للمتقين باليسر والتيسير، بالرزق الكثير، ورفع المعسور.

ثم رجع سبحانه في <sup>(١)</sup> ذكر من كان فيمن عتد من خلقه عن أمره، وتخويفا لعباده، وإنذارا وإعذارا إلى خلقه، فقال جل جلاله، وتعالى عن كل شأن شأنه: ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، معنى ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يقول: وكم من قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾، ومعنى ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ فهو: من أهل قرية، ومعنى ﴿عَتَتْ﴾ فهو: قست وتغيرت <sup>(٢)</sup>،

(١) في (أ) و (ج): وذكر.

(٢) في (أ): وغيرت. وفي (ج): وتغيرت.

وظلمت وتكبرت، ومعنى ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ فهو: تكبرت عن الطاعة لأمر ربه، ﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: بالمخالفة لأمر الله، والمشاقة لرسول الله، ﴿فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: جازيناها جزاء على فعلها، ﴿حِسَابًا﴾ أي: مثلاً بمثل من صنعها، ومعنى جازيناها فهو: عاقبناها عقاباً شديداً.

﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ يقول: عذبناها بما أنزلنا عليها من العذاب الأليم، والنكال العظيم، و﴿عَذَابًا نُكَرًا﴾ والنكر من العذاب فهو: المنكر، ومعنى المنكر فهو: الأمر الذي لم ير مثله في العذاب، ولم يكن في أحد من الأمم، فأنكر شديد ما روي منه، وعوين عند وقوعه بأهله، فكان بذلك نكراً، أي: اشتد أمره، وعظم شأنه، واشتد سبيله، حتى كان نكراً عند أهله، ومن سمع به.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، معنى ﴿فَذَاقَتْ﴾ هو: وجدت، ومعنى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ فهو: عاقبة أمرها، ومعنى ﴿أَمْرِهَا﴾ فهو: فعلها وما تقدم من فسقها. ﴿وَكَانَ عَنَقِبُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، معنى ﴿عَنَقِبُ أَمْرِهَا﴾ فهو: آخر أمرها، وأمرها ما هنا فهو: حالها، ﴿خُسْرًا﴾ فهو: خسرانا وبلاء، وعذاباً وشقاء.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لهم في الآخرة التي تبقى، من بعد ما أنزل بهم في دار الدنيا، فقال سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يريد: عذاب النار في الآخرة، التي لا تنقضي، ولا تبيد ولا تنقضي أبداً.

ثم قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْآلِيبُ﴾، فمعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول: خافوا الله وراقبوه، واحذروا معاصيه، ﴿يَتَّوَلَّى الْآلِيبُ﴾ فهو: يا أصحاب الألباب، والألباب فهي: العقول.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقول: يا أهل الألباب من المؤمنين، الذين جعلت لهم أبواباً فانفتحوا بها، فأصابوا بها الرشد عندما استعملوها، دلّتهم على الإيمان واستدلّوا، ووقفتم على طريق الهدى فاهتدوا، ولم يكابروا ألبابهم فيضلّوا، ولم يعندوا عن الله فيهلكوا، بل ركبوا سبيل الحق فاهتدوا، وقصدوا ما أمروا فنجوا.

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، معنى ﴿أَنزَلَ﴾ فهو: أظهر وأرسل إليكم به، ﴿ذِكْرًا﴾ رسولاً، فهو مذكر يتذكر به من تذكر، ويؤمن به من اعتبر، ويقبل تذكرته في أمره من أبصر، ﴿رَسُولًا﴾ يقول: مبعوثاً مرسلًا مبينًا، أي: مؤديًا، يقول: أرسله بالرسالة النيرة، والحجة البالغة، التي يتلوها عليكم، ويقيمها بينكم وفيكم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَبْثُتَاتٍ﴾، يعني ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ فهو: يقرأ عليكم، ويظهر بينكم، ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾، ومعنى ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ فهو: رسالات الله وفرائضه، وما جعل عليكم، وافترض من دينه وأقام فيكم من حقه وبقينه، ﴿مَبْثُتَاتٍ﴾ فهي: ظاهرات واضحات، مكشوفات نيرات، قد ثبتت برايتها أنها من عند ربها، وصح بالمعجزات أنها من الله سبحانه، ثبت ذلك البراهين النيرات، والآيات المعجزات، اللواتي لا تكون إلا من الله، ولا تأتي إلا عن الله.

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ معنى ﴿لِيُخْرِجَ﴾ فهو: ليخلص أهل الإيمان والتقوى، بها يأتي به من الدلالات والهدى، التي يستدل بها المستدلون، ويعلم بها العالمون، صدق م آجاء به الرسول الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، من الهلكة، و﴿الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ والبيئات، معنى ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ فهي: ظلمات الكفر وشركه، وما فيه لأهله من الويل والبلاء، قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ فهو: إلى نور الحق وضياؤه، وراحته ورجائه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۖ﴾، معنى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فهو: يصدق بالله، ويوقن بآيات الله، ويوقن بالرسالات التي جاءت من الله على السنة أنبيائه، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ يقول: يكون مع إيمانه وتصديقه، عاملا بما أمر الله به من فرائضه، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ يقول: على ذلك من العمل أدخلناه جنات، والجنات فهي: دار الكرامات، التي جعلها الله للمتقين، وكرم بها عباده المؤمنين، دار السرور في المأكول والمشرب، والمناكح والملابس، التي لا يفتقر من نال ملكها، ولا يسقم من حلها، ولا يشقى من نالها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها، وبين دورها وقصورها، الأنهار، والأنهار فهي: التي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَمَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [عد: ١٥]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، معنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهم: مخلدون، ومعنى مخلدين فهو: مقيمون لا يرحلون ولا يخرجون، ولا يفقدون كرامة الله التي يعطون، فهم مقيمون أحياء لا يموتون، مسرورون لا يحزنون، أغنياء لا يفتقرون، قد صدقوا قول الله فصداقهم، وأرضوه فأرضاهم، فصاروا عنده مقربين، وفي ثوابه خالدين، أبد الأبد.

﴿فِيهَا أَبَدًا﴾، فمعنى ﴿أَبَدًا﴾ هو: أبد الأبد، والغاية التي لا انقطاع لها ولا مدى.

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ يقول سبحانه لمن كان كذلك، وصار إلى ما ذكرنا من ذلك، قوله: ﴿رِزْقًا﴾ فهو: ثوابا، وثوابا فهو: عطاء وثابلا وفضلا.

ثم ذكر سبحانه ما جعل من مساواته وأرضه، ليكون ذلك حجة له على جميع خلقه، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، معنى قول الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، فهو: دلالات منه على نفسه، بما فطر من فعله، وأظهر من صنعه، في مساواته وأرضه، فدل سبحانه بصنعه على نفسه، وأخبر أنه هو الذي خلق ما ذكر، ومعنى ﴿خَلَقَ﴾ فهو: أوجد وفطر، وابتدع وصوّر، وأوجد وقدر هذه السبع السموات، وأوجد مثلهن أيضاً من الأرضين المدحوات، ومعنى ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ فهو: في العدد سبعا كالسموات، لا أنها مثلها في الخلق والتصوير، والتجسيم والتقدير.

﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، بمعنى ﴿يَنْزِلُ﴾ فهو: يتنزل ويتردد ويهبط ويتبدد<sup>(١)</sup>، و الأمر فهو: ما جعل الله سبحانه من الأسباب والمقادير، والأرزاق والتقادير، التي قدرها من هبوط ملائكته، إلى أنبيائه بأمره، ونبيه وفرضه وجعله، وما ينزل من السماء من الماء، الذي به حياة الأشياء، وما ينزل من السماء إلى الأرض من رحمة واسعة، وكرامة شاملة للمؤمنين، ومن عذاب نازل بالفاسقين، واقع بالكافرين، فهذا تنزيل ما يتنزل بين السموات والأرضين.

﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، معنى ﴿لَتَعْلَمُوا﴾: هو: لتوقنوا إذا رأيتم وأبصرتم تنزيل هذا الأمر الذي به خبرتم، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومعنى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو: على كل شيء من الأشياء مقتدر، وله منفذ قاهر، لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته شيء، وهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء فينفذ في الأشياء فعله، ويظهر عليها في تدبيرها قدرته.

(١) في (ل): يهبط ويتردد. وفي (ج): ويتردد ويتبدد.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهذا: إخبار من الله سبحانه أنه قد أحاط علمه بكل شيء، فهو: عالم بالأشياء علما واحدا، علمه بها قبل كينونتها كعلمه بها بعد تكوينها، ﴿أَحَاطَ﴾ معناها: حفظ كل شيء، فلم يضل عنه شيء، من قعور البحور الزاخرات، ولا أكتان الجبال الشاخات، وهو السميع البصير، وبالله نستعين.





# تفسير سورة التحريم



## ومن سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا آلِيبُ لِمَحْزَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ معناها: مناداة من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى المناداة، فهو: الأمر والمناجاة، ﴿آلِيبُ﴾ فهو: الرسول، وإنما سمي: نبيًا؛ لأنه نبيًا يأتي به من الله تبارك وتعالى من الأخبار والأمر، التي جعلها الله سبحانه وحيا وديانة وفرضا، ومعنى ينبي فهو: يُعلم. ﴿لِمَحْزَمٍ﴾ معنى ﴿لِمَ﴾ هو: لأي معنى تحرم، ومعنى ﴿مَحْزَمٍ﴾ فهو: تجعله على نفسك حراما، وتعتزل ما جعل الله لك منه حلالا، ألا تسمع كيف يقول: لم تحرم الذي أحل الله لك<sup>(١)</sup>، معنى ﴿أَحَلَّ﴾ فهو: جعل وأطلق لك، ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتِ

(١) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنه الله عنها قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: من المراتن اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن مارية أم إبراهيم الفبطية أصابها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئا ما جئتني إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري، وعلم فراشي، فقال: ألا ترخين أن أحرمها فلا أقربها؟ قالت: بل، فحرمها وقال: لا تلدي ذلك لأحد، فذكرته لعائشة رضي الله عنها فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا آلِيبُ لِمَحْزَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر عنها، فأظهر الله بمنه وأصاب جاريته. الدر المنثور ٢١٤/٨.

أَزْوَاجُكُمْ» معنى «تَبْتَغِي»: تريد وتطلب، وتأتي وتسبب، لمرضاة أزواجك، معنى «مَرْضَاتٌ» فهو: عجة أزواجك ومرادهن، ومسا رهن ومبتغاهن، والأزواج فهن: الزوجات، «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فهو قبول للتوبة، مقيل للعترة، ومعنى «رَحِيمٌ» فهو: عائد بالفضل، رحيم بمن أحسن، متعطف على التائبين.

وسبب ما ذكر الله تبارك وتعالى مما ذكر من تحريم نبيته صلى الله عليه وعلى آله لما أحل له فهو: أنه صلى الله عليه وآله وقع يوما من الأيام على جاريته وسريته مارية القبطية، في بيت عائشة بنت أبي بكر، فاطلعت عليه وصاحت وألاحت، وقالت: في منزلي وعلى فراشي، وفي موضعي؟! فاغتم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واحتشم، وداخله في ذلك من الحياء ما داخله معه من الندم، فقال صلى الله عليه لها: استكي يا عائشة فإني لا أعود إليها، ثم قال عليه السلام: والله لا دنوت منها أبدا، حياء منه صلى الله عليه وتكرما، وكراهية للالتمتها وتسلمها، فعاتبه الله عز وجل فيها حرم من جاريته، وأمره بتكفير اليمين التي أقسم بها في غشيان سريته، مع ما عاتبه فيه، في تحريمها على نفسه.

ومعنى تحريمه لها فهو: قسمه بالله لا يفشاها، فسمى الله تبارك وتعالى اعتزاله لها، وقسمه فيها تحريما، من رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه؛ إذ كان بقسمه تحريم ما كان يجب من الدنو منها، الذي جعله الله له حلالا فيها، فأنزل الله سبحانه: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»، فأمره سبحانه بتحليل يمينه. معنى «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ» فهو: جعل الله لكم، وحكم بتحلة أيمانكم، معنى «تَحِلَّةٌ» فهو: كفارة أيمانكم، التي تحل لكم بالكفارة ما كنتم حرمتموه بالقسم على أنفسكم، فمعتاها: حلفكم بالله وقسمكم، «وَاللَّهُ مَوْلَانَا» يقول: والله وليكم، والفاعل لما يشاء بكم وفيكم، «وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» فهو:

العالم بسرائر القلوب، المطلع على كل مستترات الغيوب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فهو المتقن لكل ما دبر، المحكم لكل ما قدر، فأخبر تبارك وتعالى أنه جعل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله كفارة يمينه، وكفارة اليمين بالله تبارك وتعالى فهو: ما ذكر الله سبحانه من إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، أو صيام ثلاثة أيام لمن لم يجد، وذلك قوله: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْنَةِ فِيْ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ إِيَّاهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِيْنَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعِمُونَ أَهْلِيْكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فكفر صلى الله عليه وعلى أهل بيته عن يمينه، ورجع إلى جاريته، ولم يلتفت إلى ما كان من أمر زوجته.

ثم أخبر سبحانه بما كان أسر إلى بعض أزواجه، فهي: عائشة، وذلك أنه كان صلى الله عليه وآله قال لها حين صاحت والاحت، وشنعت وأشاحت: اسكتي حتى أسرك بشيء وأخبرك بأمر، فكان الذي أخبرها به أن قال لها: إن أباك يلي هذا الأمر من بعدي، ثم يليه عمر من بعده، ثم أمرها بكتمان ذلك عليه، وألا تخبر به أحدا، فيقال: إنها أخبرت به من ساعتها حفصة ابنة عمر، ثم إنها دعتا أبايها فأخبرتهما بما أخبرهما به رسول الله صلى الله عليه وآله يقال: إنه عند ذلك كان سبب إعراض رسول الله عن ذكره، فلم يكتها بشيء من أمره، فهو: الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، معنى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ السَّائِلُونَ﴾ فهو: إذ أخفى سرا، واللقاء إليها، ﴿إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾، فهي: عائشة، ﴿حَدِيثًا﴾ فهو: خبرا وسرا، ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾، معنى ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾: أظهرته وأخبرت به، ولم تحفظ فيه سره، ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، معنى ﴿أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فهو: أطلعه عليه، وأعلمه بما

كان من إفتائها له، «عَرَفَ بَعْضُهُ» فهو: عرفها بعض ما أفتت عليه، وبعض ما كان منها فيه، «وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ» ومعنى «أَعْرَضَ» هو: ترك ولم يخبر، ولم ييكت ببعض ما كان منهم في ذلك، فكان الذي عرفها من فعلها أنه قال لها: لم أخبرت أباك بما استكتمت، وأخبرت حفصة وعمر؟ وقد جعلت ذلك لي عندك سرا، وأعرض صلى الله عليه وعلى آله عما قيل: إنه كان منهم في ذلك فلم يذكر منه شيئا<sup>(١)</sup>.

﴿قُلْنَا نَبَأُهَا بَعِدُ﴾ يقول: أعلمها بأنه قد علم بأمرها، واطلع على ما كان من إفشائها سره الذي كان عندها، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ ١٩ معنى ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ﴾: من أعلمك وأخبرك بهذا الذي كان مني، من إفشاء سر، وإظهار أمر، ﴿قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿﴾ معنى ﴿قَالَ﴾ فهو: تكلم وذكر، وقال وأخبر، ﴿نَبَأَنِي﴾ يقول: أعلمني وأخبرني، ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فهو: رب العالمين، الذي

(١) أخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي هريرة قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهارية القبطية سرية بيت حفصة فوجدتها معه، فقال: يا رسول الله في بيتي من بين يوت نساك؟ قال: فإنها عليّ حرام أن أسها، واكتسي هذا عليّ، فخرجت حتى أتت عائشة، فقال: ألا أبرك؟ قالت: بإخا؟ قالت: وجدت مارية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي، فقلت: يا رسول الله في بيتي من بين يوت نساك؟ فكان أول السر أنه أحرمها على نفسه، ثم قال لي: يا حفصة ألا أبرك فأعلمي عائشة أن أباك على الأمر من بعده، وأن أبي يلي بعد أبيك، وقد استكنني ذلك فاكسمي، فانزل الله ﴿يَأْتِيهَا إِلَيْهِ لِمَحْضَمٍ إِلَى قَوْلِهِ: غَوَّورٌ وَجِيمٌ﴾، أي: لما كان منك ... إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَ الْيَتَى إِلَى بَعْضِ أَرْوَاجِهِ﴾، يعني: حفصة، ﴿حَدِيثًا قَلَمًا نُبَاتٍ بِهِ﴾، يعني: عائشة، ﴿وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي: بالقرآن، ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ﴾، عرف حفصة ما أظهر من أمر مارية، ﴿وَأَقْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عما أخبرت به من أمر أبي بكر وعمر. الدر المنثور ٢١٦/٨ - ٢١٧.

أعلمه بذلك منها، وأعلمه بها أفشت من سره عنها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بالأشياء الذي لا يسقط عنه منها شيء، ﴿الْخَبِيرُ﴾ فهو: المحيط بسرائر خلقه، الذي يعلم ما يصلحهم ويفسدهم، فليس يسقط عنه من أسبابهم، ولا أمورهم قليل ولا كثير، كبير ولا صغير.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلْحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، معنى ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ فهو: إن ترجعا وتنبيا إلى الله سبحانه، من فعلكما وتوبا، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يقول: فقد مالت عن الحق قلوبكما، وركنت قلوبكما إلى الباطل، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ فهو: إن تعاونا وتكاثفا على رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وعالميا، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ يقول هو: وليه، والدافع عنه، والمعين له، ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ فجبريل صلى الله عليه فهو: الملك الأمين، الرسول بين الله عز وجل وبين نبية المين، ﴿وَصَلْحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم: أهل الطهارة، والفضائل من المسلمين، ذو الورع والتقوى، والتجريد في أمر الله والهدى، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فهم: ملائكة الله المقربون، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، معرفة منهم بحق ربهم، وإجلالا بذلك لخالقهم، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ بعد ذلك فهو: بعد تولي ما ذكرنا من الله سبحانه وجبريل وصالح المؤمنين، ﴿ظَهِيرٌ﴾ فهو: معين لصالح المؤمنين، على مناصرة رسول رب العالمين.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾، معنى ﴿عَسَى﴾ هي: كلمة إيجاب من الله للمؤمنين، يريد سبحانه بها: الإخبار عن فعله بنبية صلى الله عليه وعلى آله إن طلق من قد آذاه، وأظهر سره، ولم يستر عليه أمره، فقال سبحانه: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ

طَلَّقَكُنَّ» ومعنى «طَلَّقَكُنَّ» فهو: فارقتك، ومعنى فارقتك فهو: أخرجتك من حباله وتركك.

«أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا» يريد: أن يجعل بدلكن له أزواجاً، ومعنى «أَزْوَاجًا» فهو: زوجات ونساء، «حَيْرًا مِّنْكُمْ» ومعنى «حَيْرًا مِّنْكُمْ» فهو: أفضل منكن، يأمن إفشاء عليه سره من أزواجه، وأظهر عليه أمره من نسائه.

«مُسْلِمَاتٍ» فمعناها: مسلمات إلى الله، ومعنى مسلمات فهو: مُسَلِّمَات أنفسهن إلى الله، ومعنى مسلمات أنفسهن إلى الله فهو: مفرغات أنفسهن في طاعة الله، غير مشغولات بشيء سوى مرضاة الله.

«مُؤْمِنَاتٍ» فمعناها: مؤمنات لأنفسهن، بصالح أعمالهن من عذاب ربهم. «قَلِيلَاتٍ» فالقلائت، فهن: الداعيات المستغفرات، الذاكرات لله، المنيات لله، وأفضل قنوتين ودعائهن فهو: ما يكون منهن في أدبار صلاة الصبح المفروضة عليهن، من القنوت بها فيه من الدعاء من القرآن، الذي نزل من عند الواحد الرحمن.

«تَطَهَّرَاتٍ» معناها: راجعات إلى الله، خارجات مما كن عليه من الدين، مصدقات للرسول المبين، مقرات بالتوحيد للمحققين.

«عَبِيدَاتٍ» فهن: المطيعات لله المتقيات، المواضبات على طاعة الله المؤمنات.

«سَبِيحَاتٍ» فالسباحات فهن: المهاجرات إلى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجدعان، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان.

«نَبِيَّاتٍ» فهن: اللواتي قد تزوجن وعقلن، وفهمن وكمل أدبهن، وباشرن

الأشياء، حتى عرفن ما يصلح للأزواج من الخدمة والقيام، والمعاشرة والإكرام، فذكر الله سبحانه تبديل نبيه عليه السلام من الأزواج الثيات؛ لما ذكرنا من فضلهن على الأبيكار بالخدمة للأزواج، والإصطبار والمعرفة بحسن العشرة، فأراد بذكرهن في هذه الحالة ما ذكرنا من منافعهن، وإجلالهن لأزواجهن، لما هن عليه من التجريد والمعرفة بها لا تعرفه البكر، بحسن القيام للبعول في كل أمر.

وأراد بذكر الأبيكار فقال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾: ما الأبيكار عليه وتشتمله من لذاذة القرب، والحلاوة على القلب، لما هي عليه من الغرة والصبا، والاستطراف من الزوج لها في كل معنى.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانُفُسَكُمُ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، معنى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: فهو: مناداة من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر منه لعباده الصالحين، ﴿قُرْءَانُفُسَكُمُ﴾ فمعنى ﴿قُرْءَانُفُسَكُمُ﴾ أي: كفوا عن أنفسكم، فادفعوا عنها وعن أهليكم، ﴿نَارًا﴾ ومعنى دفعهم للنار عن أنفسهم، وعن أهليهم، فهو: تعليمهم لأهليهم ما فيه نجاتهم، وتوقيفهم على ما أمرهم به ربهم، وتحذيرهم عما نهاهم عنه سيدهم، فإذا فعلوا ذلك بأنفسهم وبأهليهم، كانوا بها أخرجوا به أنفسهم وأهليهم من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى التقوى، واقين للكل من النار والعذاب، مستوجبين بذلك لما وعد المؤمنون من الثواب. ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فمعنى ﴿وَقُودُهَا﴾ فهو: خطبها، وما به تاجع في استيقادها، ﴿النَّاسُ﴾ فهم: الإنس ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾

فهي: الحجارة المعروفة من الصخور والجبال، وقد قيل: حجارة الكبريت<sup>(١)</sup>، وأي ذلك كان فهي حجارة كما ذكر الرحمن، وقودا لما جعل الله من النيران، ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُكُمْ﴾ فمعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: خزنة جعلت عليها، وَقَوْمَةٌ فِيهَا، تصب الحميم على رؤوس أهلها، وتعذب من صار فيها كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، فهم عليها موكلون، وتعذب من فيها من الثقلين مأمورون، وهم صلوات الله عليهم بها قائمون، ومن ألمها وحرها وعذابها سالون، لا يأنهم فيها حر ولا تعب، ولا يصيبهم فيها غم ولا نصب.

﴿غِلَاطٌ شِدَادٌ﴾ ومعنى ﴿غِلَاطٌ﴾ فهم: فظاظ، والفظاظ فهم: الذين لا رحمة في قلوبهم لمن يعذبونه، ولا رقة عندهم على من يصلونه، ﴿شِدَادٌ﴾ فهم: الأقوياء في أبدانهم، الأشداء في استطاعتهم، المقتدرون على كل أمرهم، ﴿لَا يَقْصُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ﴾ معناها: لا يخالفون الله، ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ معناها: فيما أمرهم، ومعنى أمرهم فهو: ما يأمرهم به من تعذيب المعذنين، وإيصال الوعيد إلى الفاسقين، ﴿وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ معناها: يصيرون إلى ما جعلوا له، ويمضون ما أقيموا فيه، ولا يعصون أمرهم، ولا يخالفون جاعلهم، ولا يتكلفون أمرا يأتون به من أنفسهم، فهم لأمر الله مسلمون، وبه في كل الأسباب مؤتمرون.

ثم ذكر سبحانه اعتذار الكافرين في يوم الدين، عند وقوع الحسرة والندامة بالفاسقين، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا آيَتُنَا﴾، معنى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهو: نداء من الله وتوقيف، لأهل الكفر من الناس

(١) جن ابن مسعود، وابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهُمَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ هي حجارة الكبريت لأنها أحر شيء إذا أحميت. مجمع البيان للطبرسي ١/ ١٣٨.

وتعريف، والذين كفروا، فهم: الذين أساءوا وظلموا، ﴿لَا تَعْتَدِرُوا﴾ ولا تحدثوا توبة، فلن تقبل لكم، ولا تبدوا من القول ما لا ينفعكم، ﴿أَلَيْسَ﴾ فهو: يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معنى ﴿تُحْزَنُ﴾: تعطون وتدانون، فأخبر سبحانه أنهم لن يجازوا إلا بفعلهم، ولن ينالهم عذاب إلا بعملهم، وذلك قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: جزاكم ما كنتم تعملون.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين، وأمرهم بها أمر به من كان قلبهم من المتقين، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُبَوَّأُ إِلَىٰ آلِهِ تَبَٰرَكَ نَصُوحًا﴾، معنى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ﴾ فهو: أمر من الله للمؤمنين، يريد يا أيها الذين، ومعنى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهم: الذين اتقوا وأحسنوا إلى أنفسهم، حتى آمنوا عقاب ربهم، ﴿تُبَوَّأُ إِلَىٰ آلِهِ﴾ معنى ﴿تُبَوَّأُ﴾ أي: أخلصوا التوبة إلى الله، والعمل الصالح لله، ﴿تَبَٰرَكَ نَصُوحًا﴾ يقول: أخلصوا لها إخلاصا، ﴿نَصُوحًا﴾، ومعنى ﴿نَصُوحًا﴾ فهو: خالصا ثابتا، يقول: أخلصوا له.

﴿عَسَىٰ رِيكُكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾ معنى ﴿عَسَىٰ﴾ فهو: إيجاب من الله لمن تاب توبة نصوحا أن يقبل منه توبته، ويكفر عنه سيئاته، وهي كلمة تشبه الشك، وهي كلمة تستعملها العرب في إيجابها للشيء، وتصحيحها له، ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾ معنى ﴿يُكَفِّرَ﴾ فهو: يغفر ويصب، ويصفح عن سيئاتكم، والسيئات فهي: الخطايا الموبقات.

﴿وَيُنْذِرُكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: إذا كفر عنكم سيئاتكم

أدخلكم جنات، والجنات فهي: دار النعيم والكرامات، والحالات القيات، ذوات الثمار والأنهار، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: تجري من تحت الأشجار - أشجارها وثمارها، ودورها وقصوها - الأنهار، فهي فوق الأرض سائلة، ومن تحت ما ذكرنا جارية، والأنهار فهي: الغُدر والمياه المتفجرة، بعضها من بعض.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهَ أَلْبَسِيُّ﴾، واليوم الذي لا يخزي الله فيه النبي، فهو: يوم القيامة، ويوم الحشر للمؤمنين والسلامة، والشقاء للكافرين والندامة، ﴿لَا يُخْزِي﴾، فهو: لا يفضح ولا يسوء، بل تفلح حجته، وتظهر فيه كرامته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يقول: والذين آمنوا أيضا مع رسولهم، لا يخزون ولا يرون ما يسوؤهم ولا يردون، بل يرون السرور في ذلك اليوم من ربهم، ويتنجزون مواعيدهم من خالقهم، ﴿مَعَهُ﴾ فهو: مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله.

﴿ثَوْرُهُمْ يَسْقَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ﴾ معنى ﴿ثَوْرُهُمْ﴾ فهو: برهانهم، وما جعله الله سبحانه من حجة الإيمان لهم ومعهم، ومعنى ﴿يَسْقَىٰ﴾ فهو: تظهر بين أيديهم، ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ فهو: يتبين براهين الدلالات، وكرامات البشارات، فهو: ظاهر لا يخفى على الناظرين، ولا يتغيب عن المبصرين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، معنى ﴿يَقُولُونَ﴾ فهو: يسألون ويطلبون، ﴿رَبَّنَا﴾ يعني يقولون: يا إلهنا، وخالقنا ومالكنا، ﴿أَتِمِّمْ لَنَا ثَوْرَنَا﴾ يريدون بذلك: أتم لنا ما قد أعطيتنا من هذا النور، وظهور الحجة، وكرامات البشارة، بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك، والخلاص من موقف حسابك، ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ هو: ارحمنا، وتجاوز عما كان منا،

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، معناها: إنك على كل ما تريد مقتدر، ومعنى مقتدر فهو: قادر فاعل، فكان ذلك من قولهم اقرارا لربهم بالقدرة وتقديسا منهم وإجلالا، وتجيلا وتعظيما، وهيبة في كل حال.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وعلى آله بجهد من عَنَدَ عن الله من الكفار والمنافقين، وبأن يتدبى الغلظة على جميع الفاسقين، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا آلِئِي جَهَنَّمَ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾، معنى ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ فهو: أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله بما أمره به من جهد عدوه، معنى ﴿آلِئِي﴾ فهو: المنبي عن الله سبحانه بوحية الرضي، ﴿جَهَنَّمَ الْكُفَّارُ﴾ فهو: نابذ الكفار وقتلهم، وبسط يدك بالسيف عليهم، والكفار فهم: الذين كفروا بالله وأشركوا، وكذبوا بآياته وأنكروا، والمنافقون فهم: المدغلون في الدين، الذين يفسدون عليه صلى الله عليه وآله، ويعطونه من ألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويبدون له الإسلام، ويفسدون عليه ضعفة الأنام، فأمره سبحانه بالجهد لمن نابذه من أولئك، وأظهر له ما يخفيه من المعصية والعداوة في ضميره، ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: اشتد عليهم، وكن بهم قظا غير رحيم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ يريد: مصيرهم ومعادهم، ﴿جَهَنَّمُ﴾ وجهنم فهي: النار، ﴿وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ يقول: بسر المرجع والقرار، والمصير والدار، ومعنى ﴿يَسَّرَ﴾ فهو: شر مصير، ومصير فمعناها: الموضع والمنزل والمرجع الذي يرجع إليه، ويُنْصَر فيه.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكافرين، فأخبر بأمرهم وحالهم، وأنه لا يغني عنهم الأولياء الصالحون، من الأزواج والأولاد، والآباء والأبناء، في عصر رسول الله

صلى الله عليه وآله، كما لم يغن ذلك عمن كان كذلك في عصر نوح ولوط صلى الله عليهما، فضرب في ذلك مثلاً لأزواج الرسول صلى الله عليه، الذين ذكر عنهم في أول السورة ما ذكر، يخبرهن أن نكاح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لمن لا يغني عنهن من الله شيئاً، إن عدلوا عن الحق، ولم يتيبن عما كان من تظاهرها على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وأنه لا منجاة من ذلك، إلا بالتوبة عن تلك المهلك، وأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لا يغني بنكاحه لمن، ولا مقاربتة إياهن، وأنه لا نجاة لهما مما فعلتا إلا بالتوبة عما كانتا صنعتا، وإلا كانت حالهما كحال غيرهما من امرأة نوح وامرأة لوط صلى الله عليهما، فقال سبحانه في ذلك: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (١)، فضرب الله هذا المثل لجميع الكافرين، الذين لهم أولياء صالحون، من قريش وغيرهم من الناس أجمعين، فأخبر بما ضرب من ذلك أن الولي الصالح، لا ينفع عند الله غداً وليه الطالح، وأن ليس من الله نجاة إلا بالعمل الصالح، وبالتوبة النصوح، وبالرجوع إلى الله في كل فعل أو قول، سرا وعلانية، وأن حال من كان كذلك كحال امرأتي نوح ولوط صلى الله عليهما، لما خانتا نوحاً ولوطاً صلى الله عليهما، فصارتا بخيانتهم إلى النار، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، معنى ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ فهو: عند عبيد، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول: من عبيدنا، ﴿صَالِحَيْنِ﴾ فهما: مؤمنين تقين، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فهو: عصتاها<sup>(١)</sup>، وصارتا إلى مضادتهما، ومعاندتهما

(١) في (ب): عصيائهما. وفي (ج): عصيائهما.

في ماحرمة الله عليها، من مخالفتها فيما عصتا ربهما، بخيانة ولبه استحققتا النار، بعصيانها الجبار، ﴿فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلم يغنيا معناه: فلم ينفعاهما، ولم يدفعا منها شيئا عما نزل بهما من عذاب ربهما، ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ﴾ معنى قيل فهو: حكم عليهما، فأوجب العذاب، ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ يقول: صيرا إليها، وحلا فيها، وادخلا مع الداخلين، وكونا من سكانها يوم الدين.

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للمؤمنين، الذين يكونون مع الأولياء الفاسقين، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَمَرِّمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهَا﴾، معنى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ فهو: جعل مثلا ضربه للمؤمنين، الذين هم مع الأولياء الطالحين الفاسقين، ليخبرهم أن ضلال أوليائهم ليس بضار لهم، إذا أخلصوا الله نياتهم، وقدموا التوبة إلى ربه، كما لم يضر امرأة فرعون ضلال فرعون، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾، فمعنى ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي﴾ فهو: دعت وسألت ربهما بأن يجعل لها في دار الآخرة عنده منزلا، أفضل من منزل فرعون وأكرم، ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فهو: منزلا في الجنة، والجنة فهي: جنة المأوى التي جعلها الله تبارك وتعالى للمؤمنين ثوابا، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ﴾ تقول: خلصني من فرعون، ومعنى خلصني فهو: أرحني منه، وانقلني منه إليك، ﴿وَعَمَلِهِ﴾ تقول:

أرحني مما أرى من عمله، الذي لا أقدر أن أغيره عليه، ﴿وَتَجَنَّبَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ معنى ﴿تَجَنَّبَنِي﴾ فهو: تخلصني وتجنبي، وتنفذي من قرب القوم الظالمين، والقوم الظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بعصيانهم لربهم، وهم قوم فرعون وأهل ملته، الساعون في طاعته.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾، فأخبر أيضا أنها ضُربت مثلاً للمؤمنين، كما ضربت امرأة فرعون، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ فهي: أم المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ معنى ﴿الَّتِي﴾ فهو: هي، ومعنى ﴿أَحْصَنَتْ﴾ فهو: حفظت وصانت عن معاصي الله فرجها، ولم تصرفه إلى شيء مما يسخط ربها، وفرجها فهو: قبلها ﴿فَتَقَفَّخْنَا فِيهِ﴾ يقول: جعلنا فيه، وجعلنا في رحمها، وصورنا، ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ فمعنى ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ فهو: الروح الذي خلقنا فيه، هو عيسى بن مريم صلى الله عليه، وإننا نسبه إليه فقال: ﴿رُوحِنَا﴾، لأنه خلقه وفعله، مثل قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ (ص: ٤١)، فقال: عبدنا؛ لأنه من فعله، كما قال: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ لأنه روح خلقه وصوره، فنسبه إليه؛ إذ هو فعله، كما نسب العبد إليه؛ إذ كان من خلقه وفعله، فقال: ﴿فَتَقَفَّخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ يقول: جعلنا في عبدنا المسيح، وخلقناه، وفطرناه وصورناه، من غير ذكر، كما خلقنا غيره في غير مريم عليها السلام من الذكر، فكان إيماننا في رحم مريم من غير ذكر كإيماننا غيره من عبادنا من الذكور، وكان ذلك شيئا سهلا هينا حقيرا، ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ فهو: آمنت وأيقنت، وقبلت وأقرت، ﴿بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا﴾ فكلمات ربها هي: وحيه الذي أوحى إليها حين تمثل لها جبريل عليه السلام بشرا سويا، فدقالت إني أعوذُ

بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٢٣٦﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٣٧﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٣٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلْنَجْعَلَنَّ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحِمَهُ مِثْلًا وَكَانَ آثَرًا مُقَضًيًا ﴿٢٣٩﴾ (مريم: ١٨-٢١)، فلما أن قال لها جبريل صلى الله عليه ما قال من قوله، وجاءها بها جاءها من أمر الله به، فصدقته في ذلك وأيقنت به، وعلمت أنه من عند الله، ولم تنكر قدرة الله فسلمت لأمر الله، فهذا الذي كان من كلام جبريل عليه السلام، فهو: الكلمات الذي صدقت بهن وقبلتهن، ولم تكذب جبريل في شيء منهن، ولم يدخلها شك في أنه رسول من الله ولا ارتياب، وأن الأمر الذي جاء به إليها هو من عند الله، فذكر تصديقها بالكلمات التي وجه جبريل بها إليها، فألقاها إليها واحتج بهن عليها، فصدقته فيهن، وقبلت ما جاءها به منهن، ﴿وَكُتِبَ﴾ فالكلمات التي صدقت بها، فهي: كتب موسى وصحف إبراهيم صلى الله عليه عليهما، فكانت بذلك مصدقة، وبأنبيائه مقرة عارفة، وبشرايعهم متعلقة، ﴿وَكُنَّ مِنَ الْفَاتِنَاتِ﴾ والقاتنون فهم: الداعون إلى الله، المسلمون لأمره، القائلون بحكم الله، فكانت كما ذكر الله سبحانه قاتنة، وله عز وجل بالنجاة سائله، فأجاب الله قنوتها، وشكر عملها، وتقبل سعيها، وجعلها مثلاً للمؤمنين، خصهم بالإقتداء بها، وأخبرهم أنه لم يرزأها كفر أهل زمانها، وأن كلا مأخوذ بعمله وقوله، ومجازى بسعيه، وأنه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، طاهر: ١٨، الزمر: ٧، النجم: ٢٨]، وأن الله يجزى كلا بالجزاء الأوفى.

٣٤٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَكُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤،

والناس هم: أهل المعاصي من الأدميين، والحجارة فقد قيل <sup>(١)</sup>: إنها حجارة الكبريت، وقد يمكن أن تكون هي وغيرها من الحجارة والصخور، وليس في ذلك على الحجارة ألم ولا وجع، فتكون بالألم والوجع مظلومة، وإنها هي شيء جعلها الله لذلك، لا تألم ولا تشكع <sup>(٢)</sup>، وليس حال الصخور والإيقاد بها <sup>(٣)</sup> في الآخرة، إلا كحال الحطب والإيقاد به في الدنيا، فإن كان ذلك ظلماً للحجارة، فهو: ظلم للحطب والخشب في الدنيا، وإنها يقال: ما ذنب الشيء فيما يفعل به؟ إذا كان يدري ويعلم ما يعمل به، ويتألم ويشكع مما يصنع به <sup>(٤)</sup>، فأما ما لا يشكع ولا يعلم، ولا يألم ولا يفهم، فلا يجوز ذلك القول في مثله، ولا يجوز أن <sup>(٥)</sup> يقاس بغيره.



(١) في (أ): وقد قيل في الحجارة. ..

(٢) شكع: كفرح، كثر أنبته.

(٣) في (أ): لها.

(٤) في (أ): فيه.

(٥) في (أ): بأن.



# تفسير سورة الملك





## ومن سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)، معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ هو: تعالى وتقدس، وجل وعظم، من كل ما يقول فيه المشركون، وينسب إليه الملحدون، ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ معنى ﴿الَّذِي﴾ فهو: من يده، معنى ﴿الْمُلْكُ﴾ والملك فهو: الخلق كله، ما خلق الله وذراً ويراً، من جميع الأشياء، من السماوات كلهن، والأرضين بأسرهن، وما فوقهن وما تحتهن، وما خلق الله فيهن وبينهن، فكل ذلك فهو: الملك، والملك فهو: عرشه، وعرشه سبحانه: فملكه، وملكه فهو: ما جعل وفطر، وما خلق سبحانه من الأشياء فصَوَّرَ، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول سبحانه هو: على ما يشاء فعله، فهو قادر أن يفعله، لا يمتنع منه شيء فيفوته، كل شيء في قبضته، وكل شيء فهو: لاحقه، ما شاء أن يفعل فعل، وما أراد أن يجعل جعل، فهو قدير على ذلك مقتدر، قوي على ما شاء أن يدبر.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، معنى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ يقول فهو: الذي جعل الموت وقدره، والموت فهو: الفناء والذهاب من الإنسان، وخروج النفس كلها من الأبدان، ﴿وَالْحَيَاةَ﴾ فهي: حياة البشر، وحياة البشر فهي: جعل الأرواح في أبدانهم، وتقريرها في <sup>(١)</sup> جميع أعضائهم، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾

يقول: ليختبركم مما جعل في ذلك لتعملوا في حياتكم بما أمركم به، وتقوموا فيها بما افترض عليكم، ألا تسمع كيف يقول:

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ يقول سبحانه: ابتلاكُم بالموت والحياة، فجعل الحياة الأولى، وقت اكتساب وبلوى، والحياة الثانية التي بعد الموت وقت الحساب والجزاء، على ما تقدم من العمل في الحياة الأولى، فجعل الحياة الأولى بلوى ابتلى خلقه فيها أمرهم به من طاعته، ونهاهم عنه من معصيته، ليعلم سبحانه أيهم أحسن عملاً، ومعنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أيهم أشد لطاعتنا اتباعاً، ومن معاصينا امتناعاً، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ فأخبر سبحانه أنه العزيز الغفور، فهو: المقيِل للعترة، بعد التوبة عند الزلة، المتجاوز عن خطايا التائبين، القابل من المحسنين.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، فدل عز وجل على نفسه بما أظهر من فعله، وأبان من قدرته لخلقه، يريد بـ﴿الَّذِي﴾ أي: هو ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يريد: خلق، أي: أوجد وفطر، وابتدع بعد العدم وصور، ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فهن: السماوات السبع المجموعات المقدرات، ﴿طِبَاقًا﴾ أي: المجموعات لبعضهن فوق بعض، ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ فهو: طبقة فوق طبقة، ومعنى طبقة فوق طبقة فهو: سماء فوق سماء، حتى ينتهي إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء.

﴿ثُمَّ تَرَكْتَ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَنُّوتٍ﴾ معنى ﴿ثُمَّ تَرَكْتَ﴾ هو: نفي من الله تبارك وتعالى، من أن يكون في خلقه اختلاف ولا ردى، ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ فمعناه: فيما جعل الرحمن، ﴿مِنْ تَفَنُّوتٍ﴾ والتفاوت فهو: الاختلاف، والاختلاف الذي ذكر الله أنه لا يرى في خلقه فهو: اختلاف الأشياء عما جعلها الله فيه، وقدرها

من التركيب سبحانه عليه، فأخبر سبحانه أنه لا يوجد ولا يرى في خلقه اختلاف أبداً، عما جعله عليه وركبه فيه تركيباً، فأخبر سبحانه بذلك أن كل شيء من خلقه، ثابت على ما جعل فيه من تركيبه، لا يزيد على ما جعله الله عليه، ولا ينقص عنه، فالكبير كبير على حاله كما جعل، والصغير صغير كما فعل، والبعيد بعيد قاصي، والقريب قريب دان، والجميل جميل لا يتغير أبداً، والسمح فعل ما جعل عليه يكون من الأشياء، ليس من خلق الله خلق يحول عما خلق عليه<sup>(١)</sup>، ولا يتفاوت فيما ركب فيه، فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾.

﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ معنى ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ﴾ يقول: ارجع في النظر، وأدر وأقلب ما جعل لك من النظر، في خلق الله العزيز الأكبر: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ يقول: هل ترى من اختلاف، أو تفاوت عما جعل من الإلتلاف، فلن نجد أبداً فطوراً ولا اختلافاً، بل ترى كل ما خلقنا على ما جعلناه من النسوية والإلتلاف والتركيب.

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، أي: مرتين، يقول: ارجع البصر، وأجد استيعال النظر، ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين ليثبت لك أمرك، ويتبين لك غير ما قصد بصرك، وأنت إن فعلت ذلك وأجدت التمييز والبصر استعملت<sup>(٢)</sup> في ذلك العقل والفكر، لم تر في شيء مما خلقنا تفاوتاً، فيما ركبناه عليه من تقديرنا.

﴿يُنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ معنى ﴿يُنْقَلِبُ﴾ يقول: يرجع إليك - بعد تثبتك في النظر في مجموعلاتنا، وتقليبك لبصرك في مخلوقاتنا - بصرك

(١) في (ب): خلق يجوز ما جعل عليه.

(٢) في (ج): التمييز استعملت.

﴿خَاسِبًا﴾ والخاسىء فهو: الدليل المتصاغر لنفسه الموقن بصحة ما نظر إليه، ووقف من جليل أمر الله عليه، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ والحسير: المنقطع الذي قد جهد فلم يعرف<sup>(١)</sup>، فأنحسر عن طرح ما أراد بلوغه، وشاء تناوله ودركه.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾، قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ فهو: إيجاب منه لذلك، يقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ فهو: جعلنا وحسنا، ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح، والسماء الدنيا فهي: السماء القريبة منا، معنى الدنيا فهي: القريبة من الناس. لأن العرب تقول: ذلك الأدنى، تريد: الأقرب إليها، وتلك الدار الدنيا، تريد: الدار التي هي إلى المتكلم أقرب وأدنى، فهذا معنى سماء الدنيا، ولذلك سميت: دار الدنيا؛ لأنها أدنى إلى الخلق وأقرب؛ إذ كانوا فيها سكنوا أولا، فسميت: الأولى؛ لأنها أول الدارين المسكونتين من الآخرة والدنيا، وسميت: دنيا؛ لأنها أقرب إلى أهلها وأدنى، والمصابيح فهي: النجوم التي تشرق وتلوح، وتضيء وتثير في مواضعها، وتوقد في أفلاكها.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾، معنى ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ هو: قدرناها وأعدناها، ﴿رُجُومًا﴾ فهي: مرامي يُرمون بها، ومرام يُرمون بها، والشياطين فهم: الأبالسة منردة الجن المستجنين.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ يقول: اعتدنا لمن كان مرجوما منهم عذاب السعير، فهو عذاب الجحيم، والجحيم فهي: جهنم، ويش السعير.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ الصَّاعِرُ﴾،

(١) في (ل) و (ج): يفزع. مصحفة.

يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، كل كافر من الجن والإنس، و﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ فهو: أغلالها وسعيرها، وسلاسلها وحريقها، وبلاؤها، وجهنم فهي: النار، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ معناها: شر موئل يؤول فيه، ومصير يُصار إليه.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ بمعنى ﴿أُلْقُوا فِيهَا﴾ هو: طرحوا فيها وصبروا إليها، ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ يقول: سمعوا لها زفيرا، والزفير فهو: الشهيق، والشهيق فهو: الزفير، والحنين والتأجج العظيم الكبير، الذي يهول سامعه ما يسمعه من حنينه، فضلا عن مقارنته ومباشرته، ﴿وَهِيَ تَقُورُ﴾ معنى ﴿تَقُورُ﴾ هي: تغلي بأهلها، وتقلبهم في أعالي لهبها، ترفعهم تارة وتضعهم، وتشويم تارة وتفسخهم.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، معنى ﴿تَمَيَّزُ﴾: تكاد تنقطع قطعا من الغيظ على من عصى، وتولى عن أمر الله وأبى، ومعنى ﴿الْغَيْظِ﴾ فإنها هو: مثل من الله تبارك وتعالى ضربه فيها، يريد جل ذكره أن فعلها بأهلها، من أكلها لهم وإحراقها، وعظيم ما جعل الله فيها، وركبها عليه من الفوران والإتقاد، وسرعة الإحراق؛ لما يقع فيها بالمتغيظ المحسر الغضبان، الذي قد داخله من الغيظ أمر، فَشَبَّهَ الله سبحانه أمر جهنم وتأججها وحركتها وحسها، وفعلها بمن طرح فيها، بفعل المتغاط الغضبان؛ لا أن جهنم تغتاط ولا ترضى، ولا تميز بين من أطاع ولا بين من عصى، غير أن الله عز وجل قد ركبها وجعلها نقمة عرقة لمن وقع فيها، فصار بحكم الله سبحانه إليها.

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ معنى ﴿كُلَّمَا﴾ هو: إذا، ومعنى ﴿أُلْقِيَ﴾ فهو: طرح فيها، ورمى إليها، والفوج فهو: الجماعة الكثيرة، ﴿سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمْ﴾ معناه: استخبروهم عن أمرهم، وسألوهم عما

كانوا فيه في حياتهم، و﴿حَزَنَتْهَا﴾ فهم: ملائكة الله الذين يَحْزَنُونَهَا، ومعنى يَحْزَنُونَهَا فهو: يحفظون من فيها، ويعذبون أهلها، ويمنعونهم من الخروج منها، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فهو: سؤال من الملائكة لهم على طريق التقرير والتوبيخ منهم لهم، لا على طريق الشك في أن النذير قد جاءهم، فقالت الملائكة صلوات الله عليها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ١٩ ينذركم هذا اليوم، ويحذركم هذا العذاب.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾، فأقر أهل النار بأن النذير قد جاءهم، في قولهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا﴾، ومعنى ﴿بَلَىٰ﴾ فهو: نعم، ومعنى ﴿جَاءَنَا﴾ فهو: أتانا وكلمنا، وأعذر وأنذر إلينا، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ يقول: صددنا عن ربنا، ولم نصدق رسولنا، ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معنى ﴿قُلْنَا﴾ أي: تكلمنا وذكرنا، واعتقدنا وأضمرنا، أنه لم ينزل الله مما جاءت به الرسل شيئا، وأن ذلك كان منهم كذبا وعُتْوًا.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فآخبروا الملائكة خزنة جهنم صلوات الله عليهم، بما كانوا يقولون للرسول المرسلين من قولهم لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ والضلal الكبير فهو: الكذب والخطأ، والعدول عن الحق والهدى، والكبير فهو: العظيم الكبير.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فهذا قول من الكافرين أهل النار المعذنين، ومعنى ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ فهو: لو كنا في حياتنا نسمع قول الأنبياء، ومعنى نسمع قولهم، فهو: نطيع أمرهم، ونصير إلى أمرهم، وقولهم: ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ معنى ﴿نَعْقِلُ﴾ أي: لو كنا نعقل ما جاؤا به، ومعنى

﴿نَعْقِلُ﴾ فهو: نفقه، ومعنى نفقه <sup>(١)</sup> فهو: نصدق به ونقبله، ألا تسمع كيف يقول قائل العرب لمن يكلمه ويخاطبه: اعلم ما أقول لك. يريد: افهم ما أكلمك به واعقله، واعرف معانيه وافهمه، ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يقولون: لو كنا سمعنا قولهم، وآمنا بما جاؤا به من ربهم، لم نكن في أصحاب السعير، معنى ﴿مَا كُنَّا﴾ أي: ما صرنا ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، والسعير فهي: جهنم، وأصحابها فهم: أهلها، المعذبون الصائرون إليها.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾، معنى ﴿فَاعْتَرَفُوا﴾ فهو: أقرؤا بذنوبهم، أي: لم يجهلوا شيئا من أفعالهم، ومعنى ذنوبهم فهو: سيئاتهم، وما كان من عصيانهم لربهم، ﴿فَسَحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿فَسَحَقًا﴾ معناها: فبعدا، ومعنى بعدا فهو: بعدا لهم، ومعنى بعدا لهم فهو: بعدا من الثواب، والرحمة في كل الأسباب، ﴿لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يقول: لأهل النار.

ثم يرجع سبحانه إلى صفة المؤمنين، وذكر من ذكر من أوليائه الصالحين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، معنى ﴿يَخْشَوْنَ﴾ فهو: يتقون ويخافون، ﴿رَبَّهُمْ﴾ فهو: خالقهم وسيدهم، ومالكهم ومقدرهم وجاعلهم، ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فمعناها: في الغيب، ومعنى في الغيب فهو: في سرهم، وما تَغَيَّبَ من أمرهم، واستتر عن الناس من أفعالهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يقول: لهم غفران من الله ورحمة، وعائدة منه سبحانه وكرامة، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يقول: ثواب عظيم كثير، كبير خطير.

(١) في (أ) و (ج): نفهمه. ومعنى نفهمه.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، ومعنى ﴿وَأَسِرُّوا﴾ فهو: اخفوا، ﴿قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ يقول: أو اظهروه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يريد: عالم بضمير الصدور، وما يستجن فيها، وفي كل الجوانح من الأمور، فأخبر سبحانه بها ذكر من ذلك أنه سواء عنده، وفي علمه ما أسره وأظهره أحد من خلقه، وأن علمه بالغيب المكتوم، كعلمه بالظاهر المعلوم، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآيَاتِنَا وَسَاءَ بِالنَّهَارِ﴾، يقول سبحانه: إنه عالم بكل ما يكون من سر أو علانية، وإنه لا يخفى عليه من الأمور خافية.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، يريد بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: كيف لا يعلم سبحانه ما قد خلقه، ويطلع على سر من فطره؟! وهو أعلم به من نفسه! وأعلم بسرّه وعلانيته! ومعنى ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فهو: سر من خلق، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ واللطيف فهو: البر بخلقه، المتفضل عليهم برزقه، المآن عليهم بمراقبته، والخبير فهو: العليم بالخابر بكل أمورهم، العارف بكل أسبابهم، الذي لا يغيب عنه شيء من أفعالهم.

ثم دل سبحانه على نفسه، ونبه الخلق على معرفته، لما فطر من فطره، وجعل من جماعته وصنعه، فقال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾، تفسير ﴿الَّذِي﴾ فهو: دلالة عليه سبحانه دون غيره، ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: هو سَوَى لكم، وجعل لكم، ﴿الْأَرْضَ﴾ أي: قَدَّرها ودحاها وسواها، ﴿ذُلُولًا﴾ والذللول فهي: المطية الساعية، التي لا تمتنع مما يفعل بها، ولا تدفع شيئاً عن نفسها، فشبّه الله عز وجل الأرض في

انبساطها ووطائها، واستوائها بأهلها، بالذلّول من الإبل التي لا تمنع ربه، ولا تخالف في شيء عما يراد بها، ﴿فَاتَمَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ يقول: سيروا في جوانبها؛ لأن المناكب هي الجوانب والأطراف، ﴿وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ ومعنى ﴿وَكُلُّوا﴾ أي: أأطعموا وتغنموا من رزقه، أي: فهو من فضله وعطائه، وما أخرج من ثمرات أرضه، ﴿وَالْيَاقُوتُ﴾ يقول: واليه معادكم، وإليه نشوركم، فإذا أراد سبحانه أن ينشركم تنشركم، ومعنى النشور: فهو: البعث والحشر.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾، معنى ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ هو: إخبار من الله عز وجل عن قدرته، وإخبار منه أنه لا يأمن أعداؤه أخذ نقمته، ومعنى ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ فهو: أيسم أن يخسف بكم الأرض؟ ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يقول: أأمتم إلهكم أن يخسف بكم الأرض؟ وأيسم من أخذه لكم؟ معنى ﴿مَنِ فِي السَّمَاءِ﴾ فهو: الله الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء، لا يخلو منه مكان، وهو الله الواحد ذو العزة والسلطان، وقوله: ﴿يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ أي: فهو تذهب وتعيد بكم الأرض حتى تذهب بكم في بطنها، وتُصَيِّرُكم في قعرها.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ يقول: إذا هي تذهب بكم ذهاباً، وتبسط بكم في بطنها مبطاً، ومعنى ﴿تَمُورُ﴾ فهي: تنخسف وتغور.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ﴾، يقول: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ﴾ من هو في كل مكان من السماء وغيرها، وهو الله الخالق لها ولغيرها.

﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، فمعنى ﴿يُرْسِلَ﴾ أي: فهو يصيبكم، ويرمي بالخاصب عليكم، والخاصب فهي: الحجارة التي تحصيهم كما حصب قوم لوط فرماهم بالحجارة، فيقول سبحانه: أمتم أن يرميكم بها؟ كما رمى من كان قبلكم بمثلها.

﴿تَسْتَغْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ يقول: ستعرفون كيف كان إنذارني وإعذارني لكم، وتحذيري لما أنزل بكم من بعد نزوله بساحتكم، وحلوله بأهل المعاصي منكم. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾، ومعنى ﴿وَلَقَدْ﴾ فهو: إيجاب لما كان منهم، بتكذيب مَنْ قبلهم، فمعنى ﴿كَذَّبَ﴾ فهو: جحد واستهزاء، ولم يوقن فيصدق بها جاء من الهدى، ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فهم: الأمم الذين كانت قبل هذه الأمة، ﴿فَكَيفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾ يقول: قد رأيتم وأبصرتم كيف كان نكيري عليهم، ومعنى نكيري فهو: تغيير وعقوبي، وما أحدثه وما أخذوا به من نعمتي، على ما اجترأوا<sup>(١)</sup> عليه من مخالفتي.

ثم نبه سبحانه على نفسه بالطير الذي لا تكون إلا منه، ولا يقدر عليها أحد إلا هو، احتجاجاً بذلك عليهم، وتأكيذاً لحجته فيهم، ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِيضٌ مَّا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا أَلْ رَّحْمَنُ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ معنى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ فهو: ألم ينظروا ويبصروا؟! ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ الطيارة، ذوات الأجنحة، التي تطير في الهواء، وتصف فوقهم، فهي في الهواء فوق رؤوسهم، و﴿صَفَّتْ﴾ فمعناها: صافات أجنحتهن، وصفها لأجنحتهن فهو: نشرها وتسكينها حتى تهدأ وتسكن، حتى تكون كالشيء المنشور في الهواء، لا يتحرك منها أسفل ولا أعلى، فحيثذ يسمى ما فعل ذلك من الطير: صافاً، ﴿وَبَقِيضٌ﴾ فهو: يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن، ويخففن بها تحريكا في طيرانهن، ﴿مَّا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ أي: ما يلزمهن في الهواء، ويمنعهن إلا الله العلي الأعلى، ومعنى امساكه إياهن فهو: بما جعل وقدر لهن من الريش الذي جعلهن به طائرات،

(١) اجترأوا. هي: اجترأوا. وإنما سهل الهمزة لأن لفظة حجازية.

وفي الهواء واقفات صافات، ودبر فيه وبه طيرانهن، وجعله حاملا لأبدانهن، وموقفا في الهواء لأعضائهن، فلما كان ذلك منه وبه فيهن، ذكر أنه سبحانه هو المسك لمن، و﴿الرَّحْمَنُ﴾، فهو: الرؤوف المتفضل ذو الإحسان.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، معنى ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ معناها: لجميع الأشياء من فعل أو جسم، ﴿بَصِيرٌ﴾ فهو: عليم.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾، معنى ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾: فهذا تقريع من الله لهم وتوبيخ وإعلام أنه لا جند من دونه لهم ينصرونهم منه، والجند فهم: الأعوان، من الأنصار والإخوان، ﴿يَنْصَرُّكُمْ﴾: يمنعونكم، ويقومونكم.

﴿مَنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ يعني: دون أمر الرحمن، يريد: مَنْ هذا الذي ينصركم، من دون أمر الرحمن إن نزل بكم؟

﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ يقول: ما الكافرون إلا في اغترار وباطل، وخديعة من الشيطان لهم، وتماذٍ في باطلهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾، يريد: أمن هذا الذي يرزقكم؟ ومعنى ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ فهو: يسبب لكم رزقكم، ويخرج لكم من الأرض معاشكم، ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ يقول: إن منعكم الله رزقه وأمسكه عنكم، فلم تخرج الأرض نباتها، ولم تسكب السماء منها ماءها، حتى تموتون جوعا، فمن ياتيكم بالرزق إن أمسكه؟ فلن يأتي به أحد بعده.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، معنى ﴿بَلْ﴾ فهو: قد، و العتو فهو: العنود والتكبر، والإعراض عن الله والتحير، والنفور فهو: الإعراض والصدود وقلة الإقبال على الحق، والتهاذي في الفسق.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، يقول: يمضي على جهل، ومعنى  
﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ يقول: يمضي على جهل من أمره، ويعمل في غير  
صواب من عمله.

﴿أَفَدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿يَمْشِي سَوِيًّا﴾  
معناها: يمضي معتدلاً مستوياً، ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معناها: على طريق  
مستقيم، أراد سبحانه: التمييز بين من يمشي مكباً على وجهه، ماضياً على الخطأ من  
فعله، مجتنباً عن سبيل رشد، وبين من كان على هدى من ربه، وسبيل من رشد، لا  
يخطئ في أمره، ولا يعرج عن سبيل حقه، فأخبر بذلك سبحانه أن من كان من أهل  
الضلالة والردى، هم كمن يمشي مكباً على وجهه في غير هدى، وأن من كان من  
أهل التقوى، كالآخر الذي يمشي على الصراط المستقيم والاستواء، وهذا مثل  
ضربه الله العلي الأعلى، يفرق به بين أهل الضلالة والهدى.

ثم أخبر سبحانه بالدلائل عليه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ  
الْسَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، معنى ﴿قُلْ﴾: أخبر وأنذر وكلم وبيّن، أن الله هو  
الذي أنشأكم، ومعنى ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: هو خلقكم وأنبتكم، وفطركم  
وأوجدكم، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾، معنى ﴿جَعَلَ﴾ أي: ركب ريكماً ﴿لَكُمْ﴾،  
أي: فيكم، يقول: خلق لكم السمع الذي به تستمعون، وهي الأذان التي بها تسمعون،  
والأبصار فهي: العيون التي بها تبصرون، والأفئدة فهي: القلوب التي بها تعقلون.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، يقول: قليلاً شكركم، على ما أوليناكم من ذلك  
وأعطيناكم.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فأمر سبحانه أن يحتج بذلك عليهم؛ إذ

هو فعلٌ فيهم من ربهم، ومعنى ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فهو: أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم، وخلقكم وثبتكم في الأرض ﴿وَالْيَهُ تَحْشُرُونَ﴾ يقول: إليه ترجعون بعد موتكم، في يوم حشركم، وحين وقت بعثكم.

ثم أخبر سبحانه بما يقول الكافرون، ويتداعا به المكذبون، فقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، معنى ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هو: يلفظون ويتكلمون، ويمترون ويسألون، ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: متى هذا الوعد الذي به توعدوننا؟ وبأسبابه نخوفوننا؟ إنكاراً منهم لوعده الله ووعيده، وقلة إيمان بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: تقولون إئتوا به إن كنتم من الصادقين، معنى إن كنتم من الصادقين أي: إن كنتم من الوافين بوعدهم، المحقين في قولكم.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وعلى آله أن يرد العلم في ذلك إليه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فمعنى ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: علم غيب ما تستعجلون به، وتكذبوننا في ذكره، عند الله إذا شاء أنزله، وإذا شاء أمسكه، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فمعنى ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: محذر معذر، ﴿مُبِينٌ﴾ معناها: بين القول، ظاهر الإعذار، مبين للحق من الله، مبلغ لرسالات الله، لا آتيكم بعذاب، ولا أصرف عنكم عقاباً، ولا عن نفسي، أصرف ما أرادني به ربي، وإنما أنا رسول من رسله أبلغ ما أمرني به.

﴿قُلْنَا رَأَوُا زُلْفَةً﴾، معنى ﴿قُلْنَا﴾ أي فهو: حين، ﴿رَأَوُا﴾، فهو: أبصره وعاینوه، ﴿زُلْفَةً﴾ فهو: معاينة مقاربة، ومدانة مواجهة، ﴿سَبَّحْتَ وَجْهَ الْأَذَى﴾ كفروا، معنى ﴿سَبَّحْتَ﴾ أي: اسودت، ومعنى اسودت فهو: نزل بها السوء، وحل بها، وعانت وواجهت ما كانت به مكذبة، ومعنى ﴿وَجْهَ الْأَذَى﴾ كفروا

هم: الكافرون في أنفسهم، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان، بل الوجوه والأبدان، وسائر أعضاء الإنسان. وفي ذلك ما تقول العرب في أشعارها:  
إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعد الله دمر<sup>(١)</sup>

فقال: بوجه الله، وإننا أراد: الله، كذلك قوله سبحانه: ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: سيء الذين كفروا، أي: نزل بهم السوء والبلاء، عند  
معابيتهم للعذاب والشقاء، ومن ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ  
رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، أراد بقوله سبحانه: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ  
رَبِّكَ﴾ أي: يبقى ربك، فأخبر عز وجل أن كل شيء هالك إلا ربه تبارك وتعالى،  
فأراد بقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]: إلا هو، و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهم: الذين  
كذبوا وأساءوا وظلموا واعتوا، واعتدوا وعدوا.

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِمِدْعَتِكُمْ تَدْعُونَ﴾، فهذا قول من ملائكة الله لهم،  
وتوقيف منهم صلوات الله عليهم، للمكذبين على ما كانوا به يكذبون، من وقوع  
الوعد والوعيد، وما كان في ذلك من أخبار الواحد الحميد، فقالت لهم ملائكة الله  
المكرمون: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ومعنى  
﴿تُوعَدُونَ﴾: فهو: تحبسون وتعلمون، وتحفون به وترهبون.

ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم ما يقول، ويحتج عليهم بما ثبت في القول،  
فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَهُ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ  
عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، يريد بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ هو أي: أخبروني وأفهموني، كيف

(١) لم أقف على هذا البيت.

القول عندكم إن أهلكني الله ومن معي أورحنا، فله القدرة علينا، فإذا عليكم في ذلك أولكم ١؟ وما يضركم أو ينفعكم ١؟ بل هذا ما لا يضركم ولا ينفعكم، أي: ذلك كان من عند ربنا فينا، ولن يكون منه إلينا، غير الرحمة والرفقة، والفضل والإحسان والمنة والعاطفة، ولكن أخبروني ونبؤني من يجيركم أيها الكافرون من عذاب أليم إذا واقعتهم ١؟ في يوم حشركم وعايتموه ١؟ فلن تجدوا لأنفسكم مجيراً من الله، ولا ناصراً من دون الله، فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَهُ وَنَ مَعِيَ أَرْحَمَتَا مَنِ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٢﴾، ومعنى ﴿يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ فهو: يمنع الكافرين، ويدفع عنهم العذاب في يوم الدين.

ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم ما أمره به من التسليم والإقرار به، والتوكل عليه والإخلاص له، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ أَرْحَمُكُمْ بِأَمْنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٣﴾، معنى ﴿قُلْ﴾ هو: كلمهم وانطق لهم، واحتج عليهم ويثّن لهم، أن الذي يجير ولا يحار عليه هو الرحمن، ذو المن والإحسان، وإنا به آمنة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ أَرْحَمُكُمْ بِأَمْنًا بِهِ﴾ يريد: آمنة بأمانه أنفسنا من عقابه، باتباع طاعته، والإعراض عن معصيته، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يقول: وعليه اتكلنا، ومعنى اتكلنا فهو: عليه اعتمادنا، وبه اكتفينا، لا نريد غيره، ولا نتوكل على سواه، ﴿فَتَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعرفون وتفهمون، وترون وتوقنون، ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يقول: من هو في باطل من أمره، وحسرة من صنعه، وفساد من دينه، أنحن أم أنتم ١؟ والمبين فهو: الظاهر المستبين، الواضح للمتوسمين.

ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله بتوقيفهم على ما هو عليهم حجة، مما تبين له فيه القدرة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ١٤﴾، معنى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ هو: قل ما تفعلون إن أصبح ماؤكم غوراً ١؟ يعني:

إن غار ماؤكم في الصباح، والصباح فهو: أول النهار عند ادبار الليل وخروجه، فيقول: إن غار ماؤكم في وقت الصبح فأصبحتم لا ماء لكم، ومعنى ﴿غَوْرًا﴾ أي: غار ذاهبا مغيبا في الأرض سائحا، ﴿فَمَنْ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ﴾ يقول: فمن يجلب لكم ماء، ويأتيكم به، ويرده في يياركم وأنهاركم، ﴿مُعِينٍ﴾ فالمعين فهو: الظاهر، فيقول سبحانه: إن غار ماؤكم وذهب، فمن يأتيكم بهاء غيره، هل تعلمون أحدا يأتيكم به غير الله؟ وساقيا يسقيكم الماء غيره سبحانه؟ الذي ينزله من السماء إلى الأرض، فيسكنه فيها رزقا لكم، وحياة لكم ولأنعامكم، أفلا تعقلون وتفهمون؟ ما به يحتاج الله عليكم وتسمعون؟ مما ترونه بأعينكم، وتوقنون به بقلوبكم، وتفهمونه بعقولكم، من الدلائل في كل ما ذكر ودل عليه تبارك وتعالى رب العالمين، وتقدس أحكم الحاكمين.

(٣٥٠) وسألت عن قول الكافرين في يوم الدين: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الشع: ١٠٠]؟

فمعنى ذلك من قولهم، فهو: لو كنا سمعنا الله ولرسوله وأطعنا، أو كنا عقلنا عن الله ما به أمرنا، ما كنا من المعذنين، ولا كنا من أصحاب السعير، بل كنا عند الله لو فعلنا ذلك من المثابين، وينعمته وكرامته من الفائزين.





# تفسير سورة القلم





## تفسير سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿١﴾، هذا قسم من الله سبحانه بالنون والقلم وما يسطرون، وما يسطرون، على أن رسول الله غير مجنون، كما يقول الفاسقون، ونسب إليه المكذبون، فأقسم الله بالنون، والنون فهو: الحوت، وما أحسب - والله أعلم - أن الله أقسم في هذا الموضوع بنون غير نون يونس النبي صلى الله عليه الذي التقمه، ولبث في بطنه حتى أراد الله تخليصه فخلصه، فأقسم الله به سبحانه تنبيها على عجب ما جعل فيه وركبه، وقدر له وسبب من التقاه ليونس رسول الله صلى الله عليه، ومكنه في بطنه حيا سويا، طول ما مكث في جوفه مستجنا، فبه سبحانه على عجب ما كان من قذفه له، عند إرادة الله لقذفه، فلما أن كان من تدبير الله عز وجل لذلك كله في يونس صلى الله عليه، وأمره بالحوث في سببه <sup>(١)</sup>، أقسم الله سبحانه في هذا الموضع به <sup>(٢)</sup> تنبيها على عجائب ما كان فيه من قدرته.

وكذلك أقسم بالقلم، تنبيها منه لجميع الأمم، على ما فعل فيه وَرَكَّبَ، وهدى الخلق إليه وَسَبَّبَ، من قطع القلم وبزّيه، وشقه وقطعه، وعكما ما هداهم إليه من تديبره، وَقَطَّنَهُمْ سبحانه من تقديره، حتى قدروه بقدرة الله تقديرا، ودبروا أحكامه بهداية الله لهم تدبرا، حتى صلح بعد التقدير، والتأم بعد الإحكام والتدبير، فصار

(١) في (أ) و (ج): وسبه.

(٢) سقط من (ج): به.

سبباً لما يسطر ويكتب، ويبيّن في الصحف من كل ما سبب، فبه الله سبحانه جميع العالم، على عظيم ما ألهمهم له من تدبير القلم، وعلى عجب ما ألهم الخلق من أمره، وهداهم إليه من تدبيره، حتى صلح لما جعل له، لأن آيات القلم وفعل الله فيه، وما هدى ودل الخلق عليه، فعل عجب أمره، ولطف ظاهر نوره.

ألا ترى كيف يسطر به ما لا يستغنى عنه من العلامات والدلالات، والأسرار الخفيات، والأخبار الكافيات، حتى يبلغ بها الحاجات، ويعلم بها الإرادات، ويثبت بالقلم في الصحف كل حاجة بعدت أو قربت، تبلغ بعيد البلاد وقريبها، وقاصيها ودانيها، مع ما ينال بالقلم من غير ذلك من تنفيذ حساب العالمين، وما يحفظ به من التداين بين المتدائنين، وما يسطر به من كتاب رب العالمين، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين، ويكون به أثبت علم المتعلمين والعالمين، وبسببه، وما ذكرنا من ألوانه وأسبابه، وحكمه وآياته، ما مثل الله للعباد حفظه لأفعال عباد، صغيرها وكبيرها بما يكتبونه بالقلم في صحفهم، ويثبتونه بالقلم عندهم في كتبهم، فيكون عندهم مذكوراً لا ينسى، وثابتاً صحيحاً أبداً أبداً، فقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي آلِ زُرَّارٍ ۝﴾ (النمل: ٥٢)، وقال: ﴿قَائِمًا مِّنْ أَوْتَىٰ كِتَابُهُ بِبَيِّنَةٍ ۝﴾ (الأنشقاق: ٧)، وقال فيما حكى من محاوراة موسى وفرعون حين قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْمُرُونِ الْأُولَىٰ ۝﴾ (طه: ٥١)، فأجابه في ذلك موسى صلى الله عليه عن العلي الأعلى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝﴾ (طه: ٥٢)، فتمثل له حفظ الله سبحانه لأمرها، وعلمه بصورة شأنها، وما تقدم من فعالها، بما يكون في الكتاب الذي لا ينسى، الذي هو غاية الحفظ عندهم، وأكثر ما به يحفظون

أسبابهم، فهذا كله من عجائب تدبير الله في القلم، وما هداى <sup>(١)</sup> إليه فيه من جميع الأمم، فلذلك أقسم به الرحمن، تنبيها منه لجميع الإنسان، على ما كان منه فيه من المن والإحسان.

قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فأقسم سبحانه بما يسطرون من القرآن العظيم، الذي يكتبون ويقرأون، وقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ تنبيها لهم على النعمة، وجليل أثر القدرة، فيما دبره من حروف الهجاء، من الألف واللام والواو والياء، وغير ذلك من الأشياء، وغير ذلك من التسعة والعشرين حرفا، التي جعلت للكتاب كله حكما ومعنى، فنبههم سبحانه على ما هداهم إليه منها، وعلمهم إياه من تدبيرها، وتقطيع ما تقطع منها، وتوصيله ما يوصل فيها، حتى تجتمع الأحرف في الاسم الواحد المسمى، ويفترق في غيره من الأسماء، يأتي كل شيء على معناه، ويستوي كل حرف على أصله ومستواه، ففي هذا - لَعَنُورٌ من عقل واهتدى - دليل على من إليه هدى، ومبين لقدرة من قدره، وشاهد على حكمة من دبره.

فإن يكن أراد سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يقولون ويجعلون، من تلفيق حروف الكتاب، ويؤلفون، ففي أقل من هذا ما أقسم الله به ودل عليه، ونبه أهل الجهل به على معانيه، احتجاجا من المقسم به على الشاك في قدرته؛ الضال الفهم عن حكمته.

وإن يكن سبحانه أراد بقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: كتابه الذي يقرأون، الذي ذكره، وأقسم به في أول سورة ﴿وَالْقُورِ﴾، حين يقول سبحانه: ﴿وَالْقُورِ﴾ و﴿كَتَبَ مُسْطُورٌ﴾ في رَقٍّ مَنشُورٍ، فهو: الكتاب الذي يسطرون، وهو

(١) لي (ج): هداهم.

القرآن الحكيم الذي يقرأون، وكلا الأمرين يخرج في المعنى، ويصح في قلب من كان ذا هدى، وقد أتوهم - والله أعلم - أن الذي أقسم به سبحانه لجليل أمره وعظيم خطره، وما جعل الله من برهانه وأمره، وحججه على خلقه، وحلاله وخرامه، وما تعبد به سبحانه جميع خلقه وعباده، فأقسم سبحانه بالنون والقلم وما يسطرون، من كتاب الله العظيم الذي يكتبونه، وما نبئته صلى الله عليه وعلى آله بنعمة ربه بمجنون، ومعنى قوله: ﴿مَا أَنْتَ﴾، أي: ما أنت يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يريد: بكرامة ربك، ومدافعتك لكل سوء عنك، وربك فهو: خالقك ومالكك، ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ يقول: ما أنت بزائف العقل، ولا مأفون، ولا بمخلط مجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، يقول: لك عند ربك أجر، والأجر فهو: الثواب والعطاء، على ما صبر عليه من المحن والبلاء، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ فالممنون هو يقول: غير مستكثر لك ولا ممنون عليك، يعني: بالذكر له في يوم الدين والإستقرار له، بل هو قليل لك عندنا، وإن كثرت في عينك وعين غيرك، صغير ما أعطيناك عندنا، وإن كان عظيما عندك، هذا معنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فهو: ما جعله الله عليه من الطبع الكريم، والقلب البر الرحيم، والأخلاق الحسنة، والطباع الكريمة، من الصبر والتحمل، والعفو والتحمل، وغير ذلك من الأخلاق التي جعلت فيه، وامتن الله سبحانه بها عليه، التي يعجز عن يسرها غيره، ولا يحمل القليل منها إلا مثله.

والخلق فهو: ما يتخلق به العباد بينهم، وتخلقهم فهو: فعلهم، وفعل الله في خلق نبئته صلى الله عليه وعلى آله فهو: عونه وتوفيقه وتسديده. لكل جميل من الأخلاق، فلما أن كان العون في ذلك من الواحد الخلاق، جاز أن ينسب إليه على طريق مجاز الكلام في قول القائلين، لا أن شيئا من أفعال رسول الله عليه السلام

فعل لرب العالمين، وقوله: ﴿خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ فهو: خلق جليل لا يقدر عليه غيرك، ولا يفعله سواك.

﴿فَسَتَّبِعِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، معنى ﴿فَسَتَّبِعِرُ﴾ يقول: سوف ترى ويرون، صدق ما نُخَبِّرُ به ونُحِبِّرون، ونذكر لك ونعدك ونعدهم، ونخوفك ونخوفهم، ونشرح لك من أمر القيامة ونشرح لهم، من العذاب والثواب، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَسَتَّبِعِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْمَقْتُونَ ﴿﴾، يقول: فستعلم ويعلمون ﴿بِأَيِّكُمْ أَلْمَقْتُونَ﴾ فهو: المذهب المغبون، ومعنى ستبصر ويبصرون هو: تعلم ويعلمون، والعرب تجعل تبصر في معنى، تعلم، وتعلم في معنى تبصر، تقول العرب: فلان بصير بالحلل والحرام، تريد: عالم بهما، فَيَهْمُ بِأَسْبَابِهَا، وتقول: بصير بالشعر، بصير بالنحو، تريد بقولها: بصير بها، أي: عالم بأمرهما، واقف على حدودهما، فأخبر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وعلى آله أنه سيعلم وأنهم سيعلمون في يوم الدين، من يكون من المعذبين.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَزْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، فأراد سبحانه، وجل جلاله، أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، ومعنى ﴿ضَلَّ﴾ فهو: عدل وترك، و﴿سَبِيلِهِ﴾ فهو: طريقه ودينه، التي جعلها لخلق دينا وسبيلا، ومتعبدا يعبدونه، ويثبتون عليه، لا يعدلون عن قصده، ولا يميلون عن عجته، ثم أخبر أنه أعلم بالمهتدين، والمهتدون فهم: الثابتون على سبيله، الذي ارتضاه لخلق.

ثم نبى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عن المخافة في ذاته لوعيد المكذبين، فسمى المخافة لهم طاعة لمن خافهم، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمَكْذِبِينَ﴾ وَدَوَّ

لَوْ تَذَهْنُ فَيُذْهِبُكَ (١)، معنى ﴿تُطِيعُ﴾ هاهنا في هذا المكان، بأوضح الحق والبيان، فهو: لا تخف وعيدهم إياك، فترك شيئا مما أمرنا لك به من الجهر بدعوتك، والإظهار لشرائع دينك، والإعلان بعبادة ربك، متافقة (٢) لهم، ومخافة من شرهم، والمكذبون الذي نهى الله عن خوفهم، فهم أهل التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله الذي جاء به عن الله خاصة.

﴿لَوْ تَذَهْنُ فَيُذْهِبُكَ﴾ يقول سبحانه: ودوا لو تذهبن لهم، في الإلتقاء لمخافتهم، إما برهة، وإما بمصانعة (٣)، فترك شيئا مما أمرت بإظهاره فتخفيه، مخافة لهم ومحاذرة أن تبديه، فيذهبنوا هم بأكثر من ذلك وأوفر، يقول: ودوا لو تصانعهم في شيء فيصانعوك في أكثر منه، وتدارسهم في يسر فيداروك بأعظم من مداراتك لهم، ليوقفوك بذلك عن مبايعتهم، ويحجروك بالمداورة والمداينة على مكاشفتهم، فأخبر الله سبحانه أنهم يودون بأجمعهم لو تركت شيئا من مبايعتهم.

ثم أمره: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّيْنٍ﴾، والطاعة هاهنا التي نهى الله عنها لكل حلاف ممين، فهو: أيضا ما ذكرنا من المخافة من الحلاف الممين، في شيء من وعيده، وإبراقه وإرعاده عليه، وحلفه وأيانه فيه، فنهاه صلى الله عليه وآله من مخافته، أوترك شي من اظهار أمر الله لمراقبته، وسمى تركه لشيء من ذلك لخوف شيء من وعيده طاعة منه له، والحلاف فهو: الكثير الأيمان بالله، الذي لا يفي بشيء منها، ولا يقوم بحد من حدودها، والممين فهو: الدليل الحقير.

﴿هَمَّا زِمَّ شَأْمٌ بِتَمِيمٍ﴾، فالهزاز هو: الذي يحزم الإنسان من خلقه، ومعنى

(١) متافقة: من التقية.

(٢) في (ج): رهة وإما مصانعة.

يهمزه أي: يؤذيه بلسانه ويتناوله، ويقع فيه من ورائه ويتقصه، ﴿ثُمَّ أَمْ يَنْمِيهِ﴾ معنى ﴿ثُمَّ أَمْ﴾ أي: مشاء بين الناس، ﴿يَنْمِيهِ﴾ بالنائم، والمشي بها فهو: المجيء إلى ذا الخبر عن ذا، والمجيء من ذا إلى ذا بالخبر، ليوقع بينهم الوحشة والبلاء، والعداوة والأذى، ومعنى ﴿يَنْمِيهِ﴾ فهو: يبلاغه وخبره، والنميعة فلا تكون خاصة إلا في كل خبر قبيح، يوحش بعض الناس من بعض، ويفسد المودة بينهم، ويوقع الوحشة في قلوبهم، فما كان من الأخبار المنقولة بفعل هذا فهو: نميعة، وناقلها يدعا: نهما، ومالم يكن من الأخبار يوقع الوحشة، ويوجب الفرقة، ويحدث الهجرة والغفصة، فلا يتنظمه اسم النميعة، ولا يدعا حامله وناقله: نهما.

﴿ثُمَّ أَمْ لِلْخَيْرِ﴾، يقول فهو: الممتنع من كل خير، الداخل في كل ضير، ﴿مُعْتَدٍ أَيْمِينٍ﴾، فالمعتدي هو: الظالم الغوي، ﴿أَيْمِينٍ﴾ فهو: الآثم الردي.

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾، العتل فهو: القدم من الرجال، في الخلق والفعال، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل، ولا معرفة له بما يأتي وما يعمل، الذي لا يميز بين الأمور في معانيها، ولا يعرف حسانها<sup>(١)</sup> من مساوئها، ولا يفعل شيئا بتميز أصلا، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلا، لفدامة خلقه، وقلة تميزه لنفسه. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ يقول: بعد هذه الخصال التي فيه كلها هو زنيم أيضا، والزنيم فهو: الذي له في خلقه زنمتان يبين بهما من غيره للمبصرين، يكونان في خلقه متدليتين، يعرف بهما، ويستدل على معرفته بذكرهما، كزنمتي الشاة التي يكونان في خلقها، تذكر وتوصف بهما.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَدِينَ﴾، معنى ﴿أَنْ كَانَ﴾ فهو: إذ كان، ﴿ذَا مَالٍ

(١) لي (أ) و (ج): حسانها.

وَيَسِينٌ» فمعنى «ذَا» فهو: صاحب مال، «وَيَسِينٌ» والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿إِذَا تَشَلَّى عَلَيْهِ ءَابَتُنَا﴾، يقول: إذا قرئت عليه آياتنا وذكرت عنده، «قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ» وأساطير الأولين فهي: أحاديث الأولين، وأحاديث الأولين فهي: أقاويل المكذبين، وأسار المتحدثين، فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم، ووحى العلي الحكيم، وما جاء به من النور، على لسان نبيه البشير النذير، إلى الأسفار والباطل، والقول القديم الحائل، فأخبر الله تبارك وتعالى أن من كان ذا مال وبينين، كان الواجب عليه الحمد والشكر لله رب العالمين، دون ما يأتي به الوليد بن المغيرة اللعين<sup>(١)</sup>، من الكفر بآيات الرحمن، والجحدان لفصل القرآن، فجعل الشكر على ما أولى، والمجازاة على ما أعطى، تكذيبا وكفرا، وعنودا عن الله وشرًا.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، فوسم الله على خرطومه هو: ما وسمه الله به من ذكره في القرآن وذمه، بما تسمع في هذه الآيات من ذكره، فجعل الله سبحانه ما شرح من أخباره في هذه الآيات، وفسره من صفته وخاله في هذه المحكمات، وسما ودلالات يعرف بها الذكر والوصف في كل الأسباب، كما يعرف بالوسم كل موضوع من الدوآب، وإنما ذكر الله الخرطوم دون غيره؛ لأنه شيء لا يستتر بثوب، ولا يستتر عن المتوسمين؛ لأن الوجه بارز أبدا للناظرين، والخرطوم فهو: الأنف وثنا وإلاء، وما كان منه وداناه.

ثم ذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، ذكر من سار إلى بدر من قریش لقتال النبي صلى الله عليه وآله، وما طمعوا به من الأمر العظيم فيه، فصرف الله عنه

(١) أخرج القصة باختصار أبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد، عن ابن عباس. الدر المنثور (٨/ ٣٣٠).

كيدهم، وأمكنه منهم وأذلهم، ثم ذكر ما فتنهم به وبلاهم، من ستر أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عنهم، وما كان من إيجابه من النصر له عليهم، فلم يعلموا بشيء من أمره، ولم يحسبوا مانزل بهم من ربه، فكانوا مقتدرين في أنفسهم على أخذه، وأخذ من كان معه لما رأوا قتلهم، فدخل في قلوبهم الطمع فيه وفي أصحابه، اقتدارا وكفرا وطمعا فيما لن ينالوه، ولن يطيقوه ولن يبلغوه، فقال أبو جهل بن هشام اللعين لمن معه من أوباش الكفرة الملاعين: لا تقتلوهم وخذوهم فأوثقوهم واربطوهم، فتكون تلك فضيحة على محمد صلى الله عليه وعلى آله وعليهم، فيدخلون به مكة أسيرا، فذلك أفضح لهم وأبلى<sup>(١)</sup>.

فلم ينالوا ما أرادوا، ولم يبلغوا ما أملوا، وقضى الله أمرا كان مفعولا، فأنفذ وعده لنبيه صلى الله عليه وعلى آله إنفاذا، وحياه ونصره عليهم فقتل من خيارهم سبعين، وأسر من أعداء الله سبعين، وَغَنَّمَهُ اللهُ غَنَائِهِمْ، وَقَلَّ حُدُودُهُمْ، ففصلتهم خائبة حاسرة، منهزمة هاربة طائرة.

فَمَثَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ ما كان من اقتدارهم ويغيهم على نبيه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، باقتدار أصحاب الجنة الذي أقسموا ليصر منها مصبحين، وهذه الجنة فجنة من جنات الدنيا، كانت باليمن على اثني عشر ميلا من صنعاء، صارت بواد يقال له: احربي<sup>(٢)</sup>، فلما دنا حصاها، وأينعت ثمارها، وحسنت حالها، أقسم أهلها

(١) أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج، أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذا فأربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحدا... الدر المنثور ٢٥٠/٨.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حيد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قال: هي أرض باليمن يقال لها: ضر، وإن بينها وبين صنعاء ستة أميال. الدر المنثور ٢٥١/٨.

ليصرمنها في غدهم مصبحين، اقتدارا على صرمها من الصارمين، فلم يستنوا في قسمهم، فكان ما ذكر الله من أمرهم من ذهاب جنتهم، حين طاف عليها طائف من ربهم، فهلك ما فيها من ثمرها، فأصبحت خواء من كل ما كان فيها، فذكر الله سبحانه أن أباجهل وأصحابه نزل بهم في اقتدارهم على ماكان من جنتهم ومن ثمارهم، فنزل بكفرة قريش الفسقة المقتدرين، ما نزل بالإقتدار بأهل الجنة المقسمين.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١١﴾﴾، معنى ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾ أي: اخترناهم بابتلائهم، لنعلم هل يرجعون عن اقتدارهم، فلم يرجعوا فأخذهم بأسنا بها عصوا، وهؤلاء المبتلون فهم: قريش الكافرون.

قوله: ﴿كَمَا﴾ فمعناها: مثل، وقوله: ﴿بَلَوْنَهُمْ﴾ أي: اخترنا، ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فهم: أصحاب صايد، وهي الجنة التي أقسم أهلها ليصرمنها، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يقول: إذ حلفوا، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقول: ليقطعن ثمرها، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فهو: صباحا منورين، ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ يقول: لم يقولوا: إن شاء الله، فيشتوا بذلك القدرة لله، فلما أن لم يستنوا في قسمهم، وبغوا في ذلك وطغوا، طاف عليها ما ذكر الله من أمره، حين يقول سبحانه:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٢﴾﴾، معنى ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾

أي: واقعا ونزل بها، ﴿طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والطائف فهو: الأمر الذي نزل بها وعها، وطاف فيها حتى أبادها وأفناها، وتركها كأن لم يكن فيها ثمر ولا خير، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فمعناها: وهم راقدون، أي: في الليل.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾<sup>(١)</sup>، يقول: أصبحت في ذهاب ما فيها، ويؤاد<sup>(٢)</sup> ثمرها، لما نزل بها، من طائف ربه، ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ والصريم فهو: كالشيء الذي قد صرم فذهب من أرضه، وخلت الأرض من بعده.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، معنى ﴿تَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: تصايحوا وتداعوا عندما أصبحوا، وجاء وقتهم الذي فيه اتعدوا. ﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، فتصايحوا وتداعوا بهذا اللفظ، ﴿أَغْدُوا﴾ أي: انفضوا في غداتكم، واذهبوا إلى حرتكم فاصرموا، والحرت فهو: الموضع الذي يكون فيه الزرع، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ أي: إن كنتم لزرعكم قاطعين.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾<sup>(٥)</sup>، يقول معناها: فانطلقوا أي: مضوا، وذهبوا وساروا ونهضوا، ﴿وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ يقول: وهم يتشاورون، ويُغيبون كلامهم ويتناجون، ويخفون عن غيرهم ما يقولون، ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾<sup>(٦)</sup>، يقول: ويتناهون عن إطعام المسكين، لا يقربنها، طئنا منهم بما في جنتهم من ثمرهم، قوله: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا﴾ يقول: لا يقربنها ولا يدخلن عليكم فيها مسكين، والمسكين فهو: السائل لهم، الطالب ما عندهم.

أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْثٍ قَدِيرِينَ﴾<sup>(٧)</sup>، معنى ﴿وَعَدُوا﴾ أي: خرجوا وبكروا، ﴿عَلَى حَرْثٍ﴾ فالجحد هو: القطع، يقول: على قطع الثمر، ﴿قَدِيرِينَ﴾ معناها: مقتدرين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا نَضَالُونَ﴾<sup>(٨)</sup> بَلْ نَحْنُ حَزَؤُمُونَ<sup>(٩)</sup>، معنى

﴿رَأَوْهَا﴾ أي: عاينوها وأبصروها، وصاروا فيها وأنوها، ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: لملخون، ليس هذه ضيعتنا، ولا هي بجنتنا، هذه جنة قد هلكت، وذهب ما فيها فصرمت، وحننا غير هذه الجنة، وليس هذه الجنة بتلك الجنة، ثم تعرفوا حدودها، وفهموا معالمها، فأيقنوا أنها جنتهم، وعلموا أنها ضيعتهم، فقالوا من بعد ذلك: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل هي ضيعتنا، ولكننا محرومون لشعرها، ممنوعون مما كان فيها، قد نزل بها أمر الله فأهلكها، ولم ينزل ذلك من الله إلا عن جرم كان منا، وخطأ كان من فعلنا، فحرمتنا ما كان قد أعطاناه، وصرف عنا ما كان قد رزقناه، فصرنا لذلك محرومين، ومنه بالخطيئة ممنوعين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، فأخبر أنه قد كان قال لهم عند وقت ما أقسموا: سَبِّحُوا رَبَّكُمْ واذكروا، واثبتوا القدرة له واستثنوا، فلم يفعلوا في ذلك الوقت ما أمرهم أوسطهم، ولم يحسبوا أنه ينزل بهم ما نزل بهم من عقوبة ربهم، عند ظلمهم وبغيهم، فرجعوا باللوم على أنفسهم، وأبدوا ما كانوا يخفون من تسيبهم، خوفا من أن ينزل بهم في أنفسهم، ما هو أشد مما نزل بهم في جنتهم.

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، معنى ﴿سُبْحَنَ رَبَّنَا﴾ أي: تعالى ربنا، وثروه خالقنا، وجل سيدنا عن فعلنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يقولون: نحن كنا ظالمين لأنفسنا فيما فعلنا، فأقروا بذنبهم، وشهدوا على أنفسهم بظلمهم، ثم أقبلوا يتلاومون، ويختصمون ويتعادلون، فيما كان من تفریطهم في أمرهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ مَوَازِينَ﴾، معنى ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قصد بعضهم بعضا بالتلاوم والعدل، فيما كان من خاطئ الفعل،

﴿يَتَلَوُّونَ﴾ فهم: يتعاذلون، ويقبحون أفعالهم، ويعجزون آراءهم.

﴿قَالُوا يَنْزِلَنَّا إِنَّا كُنَّا طَغِيْنَ﴾، معنى ﴿قَالُوا﴾ أي: هم تكلموا به وأظهروا، معنى ﴿يَنْزِلَنَّا﴾ فهو: يا ويحنا من هذا الأمر، الذي أدخل الويل علينا، والويل فهو: الغم، والطويل من الهم، ﴿إِنَّا كُنَّا طَغِيْنَ﴾ يقولون: المعنى الذي أدخل الويل علينا، هو ما كان من طغياننا، والطاغون، فهم: العتاة الباغون، الذين لم يستسلموا في يد الله، ولم يلحقوا بأمرهم كلهم إلى الله، فأقروا بطغيانهم، وعلموا أنه كان سبب هلاكهم.

ثم رجعوا إلى الواجب، والحق المصيب الراتب، قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا حَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾، معنى ﴿عَسَىٰ﴾ أي: لعل، ﴿أَن يُبَدِّلَنَا حَيْرًا﴾ معناها: أن يخلق علينا ويبدلنا، بدلا من الذي ذهب منا من جنتنا، ﴿حَيْرًا مِّنْهَا﴾ معنى ﴿حَيْرًا مِّنْهَا﴾ فهو: أفضل منها، ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ معناها: راجعون طالبون، قاصدون سائلون، ومعنى ﴿إِنَّا إِلَىٰ﴾ فهو: من ربنا، أي: إنا من ربنا للبدل والعرض سائلون.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك منه عذاب لهم، ونقمة أنزلها بهم على ما كان من عثرهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَلْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَشَدُّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، معنى ﴿كَذَٰلِكَ أَلْعَذَابُ﴾ يقول: كذلك نعذب بالانتقام، من أردنا عذابه من الأنام، في الدنيا بذهاب مآذبه من أموالهم، وانتقاص مانتقصه من أنفسهم وثمارهم، فجعل ماينزل بهم من ذلك في الدنيا الفانية، عذابا أدنى دون عذاب الآخرة الباقية، وفي ذلك مايقول الله سبحانه: ﴿وَلَنُعَذِّبَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَشَدِّ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الآخرة لمن عصى عن أمره، أشد وأعظم عليه مما ينزل به في حياته ونفسه، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: أجل وأعظم وأخطر، والآخرة فهي: الدار التي أول أيامها يوم القيامة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كانوا يفقهون ويعقلون.

ثم أخبر سبحانه بها أعد للمتقين، وجعل سبحانه عنده لعباده المؤمنين، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾، والمتقون فهم: المتقون لمعاصي الله الحافظون، ومعنى متقين لمعاصي الله فهم: التاركون لها، والخائفون من الله العقوبة في ارتكابها، تقول العرب: اتق فلانا، أي: احذر منه وخفه. وتقول العرب: اتقوا السلطان. أي: خافوه، ولا تفعلوا شيئا يجب عليكم فيه العقوبة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فمعناها: عند معادهم إلى ربهم، ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ فهي: جنات الخير المقيم، من الشهوات والمطاعم والمنافع والمشارب والبخارات.

ثم أخبر سبحانه أنه لن يجعل مسلما كعجرام، في الحال والحكم، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ١٩ معنى ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يقول: أنسوي ونعدل في الحكم والفعل بين من كان مسلما، ١٩ ومن كان مجرما؟ هذا ما لا يكون أبدا!! ولا يعرف من فعلنا وعدلنا!! بل لكل دار، وجزاء وقرار، والمسلمون فهم: المؤمنون بالله، المسلمون لأمر الله، والمجرمون فهم: المعتدون الظالمون لأنفسهم، المجترون على الله ربهم، الذين أجرموا في فعلهم، وعصوا في صنعهم.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ٢٠ ١٩ معنى ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما بالكم؟ ١٩ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يقول: كيف حكمكم بهذا؟ وكيف القول فيه عندكم؟ أفمن فعله فعل المحسن كالسيء؟ والفضال كالمهتدي؟ إن كان هذا صوابا ماضيا، وحكما بالحق

عندكم جاريا، فلن تروا هذا حقا أبدا، ولن تسموه حكما ولا عدلا، إن أتى وكان من أحد منكم، فكيف تسمونه؟ أو توهمون أنه يكون عند ربكم!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟! يقول: كتاب منا إليكم وعليكم، فيه ما زعمتم، من أن المجرم، كالمسلم عند الله في الحكم، فأنتم ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، ومعنى ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ فهو: فيه تقرأون هذا الحكم، وهذا الأمر الذي تفكرونه، وتجعلونه وتشرحوه وتسطرونه.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، يقول: إن لكم في هذا الكتاب إن كان عندكم بحق وصدق ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ومعنى ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ فهو: تحبون وتريدون، وتبغون وتشاءون.

﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنْ عَلَيْنَا بَلِغَةُ الْإِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، معنى ﴿آيَاتُنْ﴾ فهي: عهد، يقول: أم لكم علينا، ومعنى ﴿بَلِغَةُ﴾ فهي: لازمة واجبة إلى يوم القيامة، يقول: ثابتة علينا لكم، ومعنى ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فهو: في يوم القيامة، فقامت (إلى) مقام (في)، يريد: أم لكم أيان علينا ثابتة في يوم القيامة بالوفاء لكم، بهذا الذي ذكرتم، من أنكم غير معذبين، وأن المجرمين منكم في الحكم عندنا كالمسلمين، وأنهم سواء في الجزاء يوم الدين.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ يقول: إن كان الأمر منا عندكم كذلك، وكان لكم علينا عهد في ذلك، فالحكم حكمكم، والقول قولكم، ولكم ذلك علينا ما أردتم مما تشاءون وبه تحكمون، مما تريدون وتحبون.

ثم قال سبحانه لنبيته صلى الله عليه وعلى آله إنكارا عليهم في فعلهم، وتكذبا لهم في قولهم.

﴿سَلِّمْهُمْ إِلَهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ ١٩ يريد بقوله: ﴿سَلِّمْهُمْ﴾ أي: ناظرهم، وافتش أمرهم واستخبرهم أيهم بهذا القول والخبر زعيم؟ معنى ﴿زَعِيمٌ﴾: كفيل ضامن، يضمنه لهم حتى يأتيهم من قبيله ما أحبوا، وتكون كفالته به آتية على ما طمعوا، فلن يكون ذلك أبدا، ولن يتزعم به منهم صغير ولا كبير أصلا.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ٢٠ معنى ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ هو: هل فيهم؟ ١٩ وهل هي: معنى أم، وقامت ﴿لَهُمْ﴾ مقام (فيهم)، لأنها من حروف الصفات، أراد سبحانه هل فيهم لنا شركاء شاركونا في خلقهم؟ ١٩ وأعانونا على رزقهم فنازعونا في أمرهم؟ ١٩ فضمنوا لهم غير ما ضمننا! ووعدوهم غير ما أوعدنا! فكان لهم حكم سوى حكمنا، وأمر فيهم ماض كأمرنا! ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ يقول سبحانه: فليأتوا بهؤلاء الشركاء لنا فيهم، المتنازعين لنا في أمرهم، الحاكمين بغير حكمنا في شأنهم. إذ حكمنا بأن المسلم عندنا خلاف المجرم، وحكم ما ادعوا من الشركاء فيهم، بأن المجرم كالمسلم، فليأتوا بهم حتى ينفذوا الحكم، ويمضوا الذي ادعوا منهم، ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فمعنى ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ هو: إن كانوا قائلين حقا، أو متبعين في ذلك صدقا، والذي قال الله فيهم: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فإنما عنى المشركين من قريش وألفافها، وأهل مقاتلتها وأديانها، ممن ادعوا هذا الحكم الفاسد الباطل، وقال بهذا القول الجائر العادل.

ثم أخبر سبحانه بما يكون في يوم الدين، من شدة الأمر على المكذبين، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٢١، معنى ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ فهو: يكشف في ذلك اليوم عن أمر شديد هائل لأهله، نازل شره بمستأهله ومستحقه، والعرب تسمي الأمر الشديد: ساقا، تقول العرب: قامت الحرب على ساقها، تريد: أنها قامت على أمر

شديد أمره، وصارت إلى حال شديد ذكْرُه، فيقول: يكشف للخلق في يوم الدين، عن أمر شديد هائل للعالمين. قوله: ﴿وَيُذْعِنُونَ إِلَيَّ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، معنى ﴿وَيُذْعِنُونَ إِلَيَّ السُّجُودَ﴾ فهو: يدعون إلى إثبات حجة ظاهرة نيرة بأنهم كانوا من أهل السجود والإيمان، والطاعة لله والعرفان، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يقول: لا يستطيعون أن يثبتوا بباطل حجة، ولا أن يقيموا بأنهم كانوا من المطيعين لله بينة، فهذا أحسن ما يقال به في قول الله سبحانه: ﴿وَيُذْعِنُونَ إِلَيَّ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقد قال بعض من يتعاطى تفسير القرآن، معنى هذا الذي ذكر الله من السجود في الفرقان هو: دعاء من الله لهم في يوم الدين، إلى أن يسجدوا لرب العالمين، وأنه يمنعهم في ذلك اليوم بقسْوٍ وَيُسِّسٌ يجعله في ظهورهم من السجود، حتى لا يستطيعون سجوداً<sup>(١)</sup>. وهذا يفسد عند من عقل، من معنيين:

(١) أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والأجري في الشريعة، والدارقطني في الرؤية، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة، وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي مناد يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوّرکم وورثکم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى، أليس ذلك من ربكم عدلاً؟ قالوا: بلى، قال: فينتقل كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز، حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جنوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل وجل، فيقول لهم: ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا رباً ما رأيناه بعد، فيقول: فيم تعرفون ربكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه. قال: وما هي؟ قال: ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعاً ساجداً، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون

السجود فلا يستطيعون، ثم يأمرون فيرفعوا رؤوسهم، فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة يمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك يمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدميه بقيه مرة ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفى قام، فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف دخض منزلة، فيقال لهم: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كاتقصاص الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرجل ويرمل رملاً، يمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نورهم على إبهام قدمه يمر يداً ويعلق يداً، ويمر رجلاً ويعلق رجلاً، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أرتاك. لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً، فيطلقون إلى ضحاح عند باب الجنة فيقتسلون فيعود إليهم ريح أهل الجنة والوالمؤمنين، ويمرون من خلل باب الجنة وهو يصفق منزلاً في أجنحة الجنة فيقولون: ربنا أعطينا ذلك المنزل، فيقول لهم: أنسلون الجنة وقد نجتكم من النار، فيقولون: ربنا أعطنا، حل بيتنا وبين النار، هذا الباب لا نسمع حسيها، فيقول لهم: لعلكم إن أعطيتموه أن تسألوا غيره، فيقولون: لا وعزتك لا نسأل غيره، وأي منزل يكون أحسن منه؟ قال: فيدخلون الجنة ويرفع لهم منزل أمام ذلك كان الذي رأوا قبل ذلك عنده فيقولون: ربنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول: لعلكم إن أعطيتموه أن تسألوا غيره، فيقولون: لا وعزتك لا نسأل غيره، وأي منزل أحسن منه؟ فيعطونه، ثم يرفع لهم أمام ذلك منزل آخر كان الذي رأوا قبل ذلك حلم عند هذا الذي رأوا فيقولون: ربنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول: لعلكم إن أعطيتموه أن تسألوا غيره من فيقولون: لا وعزتك لا نسأل غيره وأي منزل أحسن منه؟ ثم يسكنون فيقول لهم: ما لكم لا تسألون. فيقولون: ربنا قد سألناك حتى استحيينا، فيقال لهم: ألم ترضوا أن أعطيكم مثل الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنتها عشرة أضعافها؟ فيقولون: أتستهزئ بنا وأنت رب العالمين؟ قال مسروق: فما بلغ عبد الله ذم المكان من الحديث إلا ضحك. وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجده مراراً فما بلغ هذا المكان من الحديث إلا ضحك حتى تبدو لهواته، ويبدو آخر خرس من أضراره، يقول: الأستاذ. قال: فيقول لا ولكنني على ذلك قادر فاسألوني، قالوا: ربنا ألحقنا بالناس، فيقال لهم: الحقوا الناس، فيطلقون يرملون في الجنة حتى يبدووا لرجل منهم في الجنة قصر درة مجوف فيخر ساجداً، فيقال له: ارفع رأسك، فيرفع رأسه فيقول: رأيت ربي، فيقال له: إنا ذلك منزل من منازلك فينطلق ويستقبله رجل فيها للسجود فيقال له: ما لك؟ فيقول: رأيت ملكاً، فيقال له: إنا ذلك

أما أحدهما: فإن هذا لعب وعبث وسبب، من معنى التفكه والطرب، أن يأمر أمر مأمورا بفعل شيء قد منعه من فعله، أو يصنع شيئا قد حال بينه وبين صنعه، بيانع لا يقدر معه عليه، ولا ينال معه الدخول فيه، فيقول له: افعله، وهو يعلم أنه لا يقدر على فعله، فهذا استهزاء وجور، وتعبث بالمأمور، والله سبحانه فبريء من

قهرمان من قهارمك عبد من عبيدك فيأتيه فيقول: إني أنا قهرمان من قهارمك على هذا القصر تحت يدي ألف قهرمان، كلهم على ما أنا عليه، فينتقل به عند ذلك حتى يفتح لما القصر، وهي دوة مجوفة سقاؤها وأغلاقتها وأبوابها ومفاتيحها منها. قال: فيفتح له القصر فتستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمرء سبعون ذراعاً فيها ستون باباً، كل باب يقضي إلى جوهرة على غير لون صاحبته، في كل جوهرة سرر وأدراج ونصاف، وقال: وصانف، فيدخل، فإذا هو بحوراء عينا عليها سبعون حلقة، يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراسة ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك، وإذا أعرضت عنه إعراسة ازداد في عينها سبعين ضعفا عما كان قبل ذلك، فتقول: لقد ازدددت في عيني سبعين ضعفا ويقول لها مثل ذلك، قال: فشرع على ملكه مد بصره مسيرة مائة عام، قال: فقال عمر ابن الخطاب عند ذلك: ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدبي أهل الجنة ما له، فكيف بأعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، إن الله كان فوق العرش والماء فخلق لنفسه داراً بيده فزينها بما شاء وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها جبريل ولا غيره من الملائكة، ثم قرأ كعب ﴿ فَلَا تَمْلِكُ نَفْسٌ مَّا أَلْقَىٰ ثُمَّ يَنْفَرُ أَهْمٌ ۝۱۷ ﴾ [السجدة: ١٧] الآية، وخلق دون ذلك جنتين فزينهما بما شاء وجعل فيها ما ذكر من الحرير والندس والاستبرق، وأراهما من شاء من خلقه من الملائكة، فمن كان كتابه في عليين نزل تلك الدار، فإذا ركب الرجل من هل عليين في ملكه لم يبق خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه حتى إنهم ليستشقون ريحه ويقولون: واهاً واهاً والريح الطيبة، ويقولون: لقد أشرف علينا اليوم رجل من أهل عليين، فقال عمر: وبك يا كعب إن هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إن لجهنم زفرة ما من منك ولا نبي إلا نجر لركبته حتى يقول إبراهيم خليل الله: رب نفسي نفسي، وحتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت أن لن تنجو منها. الدر المنثور ٨/ ٢٥٧ - ٢٥٩.

ذلك كله، متعال عن كل شيء منه، تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون!! وينسب إليه الضالكون!!

والمعنى الثاني: الذي يفسد قولهم منه: أن يوم القيامة ليس هو يوم عمل ولا ابتلاء، وإنما هو يوم حساب وجزاء، فافهموا ما قلنا من تفسير هذه الآية المحكمة، فإنه معنى يفضل جميع هذه الأمة عنه، إلا من هداه الله إليه، ودله بلطائف صنعه عليه.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذِلَّةٌ﴾، يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم، فالخاشعة من الأبصار هي: المكتوبة المرعوبة الفزعة، التي قد دخلها من الإيقان بهلاكها ما أذهل نفوسها، وأبلسها في كل أمورها، فخشعت للضعف والدمار، منها الأجفان والأبصار، ﴿تَرَهِقَهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم فهم أذلاء، في يوم الدين أخزياء، هالكون<sup>(١)</sup> أردياء.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾، فمعنى ﴿يُدْعَوْنَ﴾ هاهنا خلاف ﴿يُدْعَوْنَ﴾ ثم؛ لأن معنى ﴿يُدْعَوْنَ﴾ الأولى هو: يدعون بالحجة، وَيُسْأَلُونَ إثباتها، و﴿يُدْعَوْنَ﴾ هاهنا: أخرى، فهو: إخبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وعلى آله يدعوهم إليه من السجود والإيمان به، والإيقان بأمره، والتسليم لحكمه، في دار دنياهم، وفي حال صحتهم ورخائهم، إذ هم سالمون، ومعنى ﴿سَلِيمُونَ﴾ فهم: سالمون القوى والاستطاعة، قادرون بذلك الله على الطاعة، لم ترهقهم في ذلك الوقت من دنياهم الذلة التي ترهقهم في دار جزائهم، فكانوا عند دعاء رسول الله عليه السلام لهم إلى ذلك مستكبرين، وعن السجود لله صآدين، ولوعده ووعيده مكذبين، فهذا معنى ما ذكر الله من أنهم كانوا سالمين.

(١) في (أ) و(ج) هالكين. مصحفة.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾، معنى ﴿فَذَرْنِي﴾ أي: خلني ودعني، وأوحدي لعقوبته وأفردني، ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ فالتكذيب فهو: الإبطال والجحдан، والمكابرة للحق في كل بيان، ﴿بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ فهو: بهذا القول الذي أنزلناه عليك من الوعد والوعيد في الفرقان، وجعلناه إذارا وإنذارا وحجة لكل إنسان.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، معنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ فهو: سنأتيهم ونأخذهم، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو: من حيث لا يظنون، أنا نأتيهم منه ولا يدرون، حتى يواقعهم أمرنا، وتفشاهم نعمتنا، وهم آمنون، فيعاينون من ذلك ما كانوا به يكذبون.

﴿وَأَتْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾، معنى ﴿وَأَتْلَى لَهُمْ﴾ فهو: أؤخرهم ولا أعاجلهم، وأتركهم وقتا ولا أغانصهم، ثم إلي مرجعهم، ﴿إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ فالكيد هو: الأخذ لهم، والبطش بهم، والانتقام منهم، ﴿مَتِينٌ﴾ فهو: قوي رصين.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ١؟ معنى ﴿أَمْ﴾ فهي: هل تسألهم، وهي أن تطلب منهم، ﴿أَجْرًا﴾ فهو: جُزْءاً وعطاء، على ما جتتهم به من الهدى، وما تدعوهم إليه من التقى، ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يقول: فهم من الغرم الذي سألهم إياه، ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ١؟ والغرم فهو: العطاء والأجعال، التي يسألون إخراجها من الأموال، ﴿مُثْقَلُونَ﴾ فمعناها: مكلفون ما لا يطيقون، من الأجعال الذي يسألون، وأراد سبحانه بقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾: توقيفهم على أنهم لم يُسألوا، على ما أعطوا وأوتوا، من الأمر الذي به خلاصهم من العذاب، فكذلك رقابهم من العقاب، جعلنا، ولا عطاء ولا مالا، وأن ذلك من الله نعمة وابتداء، وعائلة وعطاء.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾، معنى ﴿أَمْ﴾ يقول: هل عندهم ﴿الْغَيْبُ﴾ هو: علم الغيب، ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: فهم يحصون ويعرفون ما يرجعون إليه، ويعودون فيعلمون بعلمهم الغيب ما يقولون، فيكونوا على بينة مما يصنعون، ويكونوا قد أحاطوا بعاقبة أمرهم، وفهم ما يلقونه في يوم حشرهم، فإن كان ذلك كذلك، فهم على بينة من ذلك، وإن كانوا لا يعلمون الغيب، فإنما يتكلمون بالكذب والريب، والمحال، في القول والفعال، فأخبر بذلك سبحانه أنهم غير عالمين بشيء من غيبه، ولا مطلقين على شيء من أمره، وأنهم فسقة كاذبون، فجرة معذبون.

ثم أمر نبيته بالصبر له وفيه، فقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، معنى ﴿فَاصْبِرْ﴾ فهو: احتمل ولا تجزع، وألزم نفسك عند الغضب والغم ولا تهلع، ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يقول: لأمر ربك، الذي حكم به عليك، من الصبر عليهم، والتبليغ لرسالتك إليهم، وإثبات الحجة بذلك عليهم، ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ يقول: ولا تفعل كفعل ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾، وصاحب الحوت فهو: يونس صلى الله عليه، الذي التقمه الحوت، فكان في بطنه إلى ما شاء الله أن يكون.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ معنى ﴿إِذْ﴾ فهو: حين، ﴿نَادَىٰ﴾ فهو: سأل وناجى، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ يقول: وهو مكروب، فأخبر سبحانه بمناجاة يونس صلى الله عليه، وسؤاله لربه وهو في حال شدته وكرهه، إذ هو في جوف الحوت مكضوم، وشدة الحال التي هو فيها مغموه مهموم، فنادى ربه وذكره، وسأله النجاة واستغفره، فنجاه من كربه، واستخرجه من موضعه، فأعاده إلى ما كان فيه من أمره.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، يقول سبحانه: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ﴾ بالإجابة له في دعائه، والرحمة له عند تسييحه، ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: لما خرج من بطن الحوت حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة، ومعنى ينبذ فهو: يخرج من البحر إلى وجه الأرض ويحشر، ويرد إلى ما كان عليه في ذلك اليوم من الخلق وينشر، فأراد الله بما ذكر من العراء عراء الأرض في يوم الدين، وعند حشر جميع المربوبين، فلم يرد عراء الأرض في الدنيا، ألا تسمع كيف يقول:

﴿فَأَلْقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿(المعاني: ١٤٢-١٤٤)﴾، فدل سبحانه بقوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ على أنه لو لا أن تداركه نعمة الله لكان لابثاً في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين، والعراء في يوم الدين هو: عراء أرض الآخرة لا عراء الدنيا، فقال: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةُ رَبِّهِمْ﴾، تداركته النعمة فخلصته من بطنه، لكان مقبياً في جوفه، حتى ينبذ بالعراء في يوم حشره، وإحيائه ونشره، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: مأثوم، عند الله غير سليم.

﴿فَأَجْتَنَّبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، معنى ﴿فَأَجْتَنَّبَهُ﴾ أي: رفعه وأدناه، وقربه واصطفاه، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والصالحون فهم: المصلحون، والمصلحون فهم: الذين أصلحوا ما بينهم وبين الله، حتى صلحت لهم عنده أمورهم، واتصلت بأسبابه أسبابهم، فعادوا له أولياء مطيعين، مختارين محسنين.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾، معنى

﴿إِنْ﴾ فهو: قد، ومعنى ﴿يَكَاذُ﴾ فهو: يريد، و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهم: الذين أشركوا وكذبوا، ﴿لَيَزِلُّنَّ لِقَوْلِكَ﴾ فمعناها: لينفدوك ويهلكوك، ويستفزونك ويقتلونك، ﴿بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: بأعينهم لشدة النظر إليك، للغبط الذي يداخلهم عليك، إذا قرأت الذكر فسمعوه، يريد سبحانه: قد يريد الذين كفروا أن يهلكوك بأبصارهم، ويجنون ذلك لو ينالوا أن يفعلوه بأبصارهم دون أيديهم؛ إذ لم يقدروا أن يبطشوا بأيديهم إليك، فأعينهم لشدة غيظهم وما في قلوبهم، تكاد أن تزلزلك لو قدرت، وتهلكك لو استطاعت، إذا سمع اللاحظون لك بها ما تتلوه من الذكر الحكيم، والذكر فهو: القرآن العظيم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، فهذا قول من الكافرين - عليهم اللعنة إلى يوم الدين - ﴿يَقُولُونَ﴾ تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتي به عن الله من الذكر المذكور، والقرآن المنير المسطور، مجنون، ينسبون في ذلك إليه الجنون، كذبا على الله واجترأ، وعداوة للحق وافتراء، فأخبر سبحانه أنهم كاذبون في قولهم، مترددون في ربهم، وأنه صلى الله عليه وعلى آله خلاف ما قالوا، مما نسبوا إليه وافتروا، فقال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، فأخبر سبحانه أنه ليس بمجنون كما يقولون، وأنه لرسول منه مبين، ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ومعنى ﴿ذِكْرٌ﴾ فهو: نور وهدى، وداع إلى الله بالحسن، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ فمعناها: للمخلوقين أجمعين، من الإنس والجان، والحمد لله ذي الجلال والإكرام والسلطان، والجبروت والبرهان، والمن والإحسان، على الخلائق بالغفران، بعد الضلال منهم والعصيان، هذا يقرب من الرحمن، ويبعد من الشيطان، ويقضي من النيران، ويفتح أبواب الجنان.





# تفسير سورة الحاقة





## تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿﴾، معنى ﴿الْحَاقَّةُ﴾ فهي: النازلة العظيمة التي تحق بأهلها، وتصيبهم وتواقعهم ولا تخطنهم؛ لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم: حَقَّه، وأصاب حاق وسطه، تريد: لم يخطئه ولم يعدل عنه، بل أصاب الذي طلب وقصد منه، معنى قوله: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ فهو: تعظيم منه سبحانه لها، وإخبار بجليل ما يحق بأهلها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿﴾، يقول: ما أعلمك ما هذه الحاقة؟ يريد: أنك لا تعلم منها إلا ما أعلمناك، ولا تطلع من شدتها إلا على ما أطلعناك؛ لأن الله سبحانه لا يقول لنبيه صلى الله عليه وعلى آله في شيء: ما أدراك ما هو؟ إلا وهو أعظم ما يكون من الداهية، وأشد ما يكون من النازلة الصائبة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالقَارِعَةِ﴾ ﴿﴾، فأخبر سبحانه بتكذيب ثمود وعاد بالقارعة، والقارعة فهي: النازلة التي تفرق الشيء وتصيبه، وتنزل به وتهلكه، وثمود وعاد فهما قبيلتان من أولاد نوح صلى الله عليه، عتا وطغتا، وكذبتا بها أنذرتا به من القارعة التي قرعتهما، وحلت بهما عند تماديها، فأهلكتهما.

ثم أخبر سبحانه بها أهلكهما به على عصيانها، فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالقَارِعَةِ﴾ ﴿﴾، معنى الطاغية فهو: ما كان من طغيانهم، بعصيان ربهم،

وقيل: إن معنى الطاغية التي أهلكوا بها هي: الصيحة التي أخذتهم فأهلكتهم، ومعنى طاغية عليهم فهو: مهلكة لهم غالبية على أنفسهم، وهذا فأحسن المعنيين، وأصوبها عندي، والله أعلم وأحكم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فأخبر سبحانه بما أهلكت به عاد، كما أخبر بما أهلكت به نمرود، فقال عز وجل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ والصرصر فهي: الشديدة المدممة، المدمرة لما أنت عليهم المخربة، والعاتية فهي: الغالبة الهائلة التي لا تذر شيئاً إلا أنت عليه، وعتت فمعناها: صعبت واشتدت به وغلبت، فلم يستر منها ستر، ولم يكن منها أي من شرها كين، فهي تذهب بما أنت عليه، وتهلك ما ارتقت فيه.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، فمعنى ﴿سَخَّرَهَا﴾ أي: هو جعلها وأذن لها، وسلطها وأنزلها، ومعنى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، يخبر عز وجل أنه بعثها عليهم باكراً، فأقامت عليهم ثمانية أيام إلى آخر اليوم الثامن، فكان هذه الثمانية الأيام سبع ليال، ليلة اليوم الثاني، وليلة اليوم الثالث، وليلة اليوم الرابع، وليلة اليوم الخامس، وليلة اليوم السادس، وليلة اليوم السابع، وليلة اليوم الثامن، فكان ذلك سبع ليال، وثمانية أيام؛ لأنها واقعتهم في أول نهار اليوم الأول، وفرغت منهم في آخر نهار اليوم الثامن، فكان ذلك سبع ليال وثمانية أيام، ثم قال ذو الجلال والإكرام: ﴿حُسُومًا﴾ فمعناها: دائمة متوالية، لا راحة فيها، ولا فترة لساعة منها، وما كان كذلك في الدوام والإستواء، وقلة الغفلة والوئي، سمي: حُسُوماً من الليالي والأيام.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾، فأخبر سبحانه بحالهم وصفاتهم بعد ما نزل بهم من إهلاكه لهم ما نزل، فمثلهم في ذلك

الحال بأعجاز نخل خاوية، وأعجاز النخل الخاوية فهي: أسافلها وما غلظ منها، ومعنى ﴿خَاوِيَةٌ﴾ فهي: خاوية من الحياة، أي: ليس فيها شيء من الحياة، فمثلهم بأعجاز النخل الميتة الخاوية؛ لأن النخل إذا ماتت وخويت كانت أضعف ما يكون من الأشياء وأوهاء، وأسمجه في الصورة وأرداه، فمثل سبحانه أجسامهم المهلكة الملقاة بأعجاز النخل الخاوية.

ثم قال سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾، يريد بقوله: ﴿هَلْ تَرَى لَهُم﴾ أي: هل تحس منهم، فقامت ﴿هَلْ﴾ مقام ﴿مِنْ﴾؛ لأنها من حروف الصفات، ومعنى ﴿مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ فهو: من أحد صغير أو كبير، إخباراً منه بذهاب الكل ودماره وانقضائه واستتصاله، حتى لم يبق منهم باق، ولم ينج منهم من عذاب الله ناج.

﴿وَجَاءَ قَرَعُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾، ومعنى ﴿وَجَاءَ قَرَعُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ فهو: أتى، وفعل واجترأ، هو ومن كان قبله من المؤتفكات، والمؤتفكات فهي: الأمم الكاذبات على الله. المجترئات الأفكات، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت به من الإفك، والإفك فهو: العجز عن حقوق الحق، والتبادي في طرق الفسق، فسمي من كان كذلك مؤتفكات، مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات، ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ فهي: الأفاعيل المخطئة العاصية، والخاطئة التي جاء بها فرعون ومن قبله والمؤتفكات، فهي الأمم المخطئات للصوصاب المذنية، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، فأخبر أن الخطيئات التي أتوا بها هي معصية ربهم في معصية رسوله عليه السلام، وما كان منهم من التكذيب برسالاته، ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ يقول: اخذهم على معصيتهم لرسوله، واجترأهم على التكذيب بآياته، ومعنى ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ فهو:

أنزل بهم من العذاب الذي لا راد له، ومعنى ﴿رَأَيْبَةً﴾ فهي: شديدة مبالغة بينة.  
ثم أخبر سبحانه بها كان منه من النعمة في حملهم في الفلك الجارية، فقال: ﴿إِنَّا  
لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، ومعنى ﴿إِنَّا﴾: إخبار عن فعله بهم،  
ومعناها: نحن، ومعنى ﴿لَمَّا﴾ فهو: إذ، ﴿لَمَّا طَغَا﴾ فمعنى ﴿طَغَا﴾ فهو: علا  
وكثر، وأتى وطى، و﴿الْمَاءُ﴾ فهو: الماء المعروف الذي يستغني بمعرفته الخلق  
له، عن شرحه وتفسيره وذكره وتأويله.

معنى ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: دللناكم على الركوب وهديناكم إلى عملها، حتى  
عرفتم ما جهلتم من بنائها، واستدللتكم بدلائلنا على تقديرها، فقدرتموها بقدرتنا،  
وثبتتموها بإرادتنا، فصارت فلكا حاملة لكم، سفنا في الماء جارية بكم، فهذا معنى  
﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، والجارية فهي: السفن المسمرة، المولفة المينة المقدرة،  
التي تجري في البحار بأهلها، وتطفو بقدرة الله على الماء بها فيها، فلما كان الله سبحانه  
الهادي لخلقها إلى ذلك، جاز أن يقول: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، معنى ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾  
هو: لنصيرها لكم تذكرة، ومعنى ﴿تَذْكِرَةً﴾ فهو: ذكر لكم، وحجة عليكم،  
لتعلموا أنا أولياء نعمتها، والمنعمون عليكم بها، لتذكروا نعمتنا فيها فتشكروا،  
وتفكروا فيما هديناكم إليه من أمرها فتؤمنوا، ومعنى ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ فهو:  
تفهمها وتعلمها، وتوقن بها وتعرفها، وهذه التي قال الله سبحانه: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾  
فهي: التذكرة والحجة، والأذن الواعية فهي: الأذن المؤمنة المصدقة بكتب ربها  
ورسله وآياته ونذره، المستدلة بظاهر آيات الله وصنعه، وما أظهر في تدبير العالم من  
قدرته، على عجائب ما حجب من علمه، وأرسل به على السنة رسله، من ذكر

الحشر والحساب، وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب، الذي يكذب به المكذبون، وينكره الكفرة المنكرون.

ثم أخبر سبحانه باليوم الذي يميز فيه العالمون، ويمحش فيه المبطلون، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ﴾، فمعنى «نُفِخَ فِي الصُّورِ» أي: فهو: جعل فيها، ورد ما يكون به حياتها من أرواحها، التي يردها الله عند بعثها في أبدانها، «نَفْخَةٌ» فمعناها: ردت الأرواح إلى الأبدان، «نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ» أي: ردة واحدة، أي: سريعة واجزة<sup>(١)</sup>، فترجع الأرواح بقدرة الله إلى الأبدان التي كانت أولا فيها، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ فمعنى حملها فهو: أخذها، ومعنى أخذها فهو: نفاذ أمر الله فيها، وإنفاذ إرادته في دكها، ودكها فهو: إذهابها، ومواقعة الفناء بهما، وزوال أمرهما، وانحلال تجسمهما، وردهما إلى ما كانتا عليه أولا من قبل خلقهما.

قوله: ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فهو: إخبار من الله عز وجل عن سرعة مضي إرادة الله فيها، ونفاذ مشيئته في إذهابها، وإنما معنى قوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ فهو: إخبار منه سبحانه عن نفاذ قدرته، وسرعة كينونة مراده، فَمَثَلُ سرعة انقضاء ذلك كله بضرب الإنسان بالشيء الذي يكون في يده على الأرض واحدة، ودكه بالشيء الذي يده دكة واحدة، فأخبر سبحانه أن إذهابه للأرضين والسموات ونفخه في جميع صور الأدميين، ورده لأرواحهم في أبدانهم، في السرعة مثل ضربة الضارب بالشيء الذي يكون في يده على الأرض ضربة واحدة، ليس معها لبث، ولا ضربة ثانية، وذلك اليوم الذي يكون فيه ما ذكر الله، فهو: يوم الحشر والحساب، وملاقاة الثواب

(١) واجزة: سريعة. يقال: وجل وجز: سريع الحركة لئلا أخلفه. لسان العرب. مادة وجز.

والعقاب. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم يكون ما ذكرنا من النفخ في الصور، ودك الأرض والجبال، ومعنى ﴿وَقَعَتِ﴾ فهو: نزلت وحلت، وكانت وأتت، فالواقعة هي: الساعة الواقعة بالناس، والساعة فهي: القيامة التي يواقع الخلق أمرها، ويلقى كلهم فيها عمله، ويقع به جزاء فعله، ويوقوع الجزاء فيها، وقع اسم الواقعة عليها.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، فمعنى انشقاقها فهو: انفطارها، وانفطارها فهو: تقطعها لما يريد الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها.

﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ والواهيّة هي: المتمزقة المتقطعة، التي قد صارت أبوابها فُرُجًا، كما قال الله سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (الباء: ١٩).

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾، فمعنى ﴿الْمَلَكُ﴾ فهو: الملائكة، فخرج اللفظ كأنه لملك واحد وهو لجميع الملائكة، كما قال الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فخرج الاسم كأنه لواحد وهو لجميع الناس، وأرجاؤها فهو: نواحيها وأطرافها وجوانبها، يريد سبحانه: أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها، منتظرين لأمر الله فيها وفي غيرها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَمَنِيَّةٌ﴾، معنى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ هو: يقوم به، ويأمر فيه، وينهى بنهي الله تبارك وتعالى، والعرش فهو: الملك، و الملك فهو: جميع ما خلق الله وبرأ في الآخرة والدنيا، ومعنى ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فهو: منهم، فقد خلفت فوق من؛ لأنها من حروف الصفات، يخلف بعضها بعضاً، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم القيامة عند وقوع الواقعة، وانشقاق السماء، وكيونة الحساب

والجزاء، ومعنى ﴿ثَمَنِيَّةٌ﴾ فقد يمكن - والله أعلم - أن يكونوا ثمانية آلاف، أو ثمانية أصناف من الملائكة المقربين، ينفذون أمر رب العالمين في ذلك اليوم، الذي تحمل الملائكة عرشه فيه، وتكون قائمة به فيه وعليه، فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إخباراً منه أن له سبحانه ثمانية أصناف من الملائكة أو آلاف، يحملون في ذلك اليوم عرشه، وعرشه فهو: ملكه، وحلهم للملك في ذلك اليوم العظيم، فهو: قيامهم فيه بأمر الرحمن الرحيم، وإنفاذهم لحكمه، ومجازاتهم بأمره لخلقهم، وإيصال أهل الثواب إلى الثواب، وعزل أهل العقاب وإنفاذهم لحكمه إلى العقاب، ومحاسبة المحاسبين، وتوقيف الموقوفين، على ما كان من أعمالهم، في مبتدأ ما كان من حياتهم، فهذا من أفعال الثمانية وشبهه، وما يكون من غير ذلك ومثله، فهو: حل منهم للملك الذي هو عرشه، فهذا معنى حملها له لا غيره.

وقد تقول العرب في ذلك، وما كان من الحال كذلك، لوزير الملك العظيم الشأن، ذي القوة والمقدرة والأعوان: حل وزير فلان عنه الأمر، تريد: كفاه إياه وقام به، وأنفذ فيه كل أمره، واحتذى فيه كله مراده وحذوه، وتقول العرب: لا تحمل على نفسك ما لا تطيق، تريد بذلك أي: لا تعمل بها لا تطيق، لأنه شيء يحمله على ظهره، ولا وزر يقله على متنه، وكذلك تقول العرب: حل فلان وعجه ما لا يطيقون، ليس تريد بذلك: أنه وضع على ظهورهم حلاً منه يعجزون، وإنما تريد: كلفهم وأمرهم بأمر لا يطيقونه، والزمهم شيئاً لا يستطيعونه، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

حملت أمر جليلاً فاضطلعت به      وقمت فيه بأمر الله يا رجل<sup>(١)</sup>

~~~~~

~~~~~

(١) البيت لجرير من قصيدة يرثي بها عمر بن عبد العزيز، بلفظ:

حملت أمراً عظيماً فاضطلعت له      وقمت فيه بأمر الله يا عمرأبى مية

فقال: حُملت، يريد: كُلفت يا رجل، ولم يرد حملت على ظهرك ثقلا به يثقلك، ولا وزرا يفدحك، وإنما أراد كلفت أمرا جسيما فاضطلعت به، أي: قمت به وقويت عليه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ليحملوا ثقل الوزر، وثقل الوزر فهو: الإثم، ويتقلدون وزرهم ووزر غيرهم، بالأمر الذي يأتونه من معاصي ربهم، وما هم يتقبلون فيه من الجراءة على خالفهم، ولم يرد أنه وزر محمول، ولا شيء ثقيل يوضع على الظهر محمول، فعلى هذا ومثله، وما كان من اللغة على شكله، يخرج حمل الملائكة لعرش ربهم، لا على ما يقول أهل الجهل بربهم، من أنه عرش تحمله الملائكة، مدبر محمول، مَرَبَّعٌ فوق أكتافها محمول، وأن الله سبحانه فوق العرش، تعالى عن ذلك الواحد العلي الكريم !! وتقدس أن يكون كذلك العزيز العظيم !!

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾، معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم قيام الملائكة بعرش ربها، وما يكون فيه من قبضها بأمره وبسطها، ﴿تُعْرَضُونَ﴾ فمعناها: يبرزون ويحاسبون، وتعرض عليكم أعمالكم، وتبين لكم أفعالكم، وتوقفون عليها، وتعينون ما يجب عليكم ولكم فيها، ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ يقول: لا يخفى من أعمالكم شيء، ولا يغيب منكم في ذلك اليوم أحد، ومعنى قوله: ﴿خَافِيَةٌ﴾ يقول فهي: مسترة وغائبة، فيقول: إنه لا يخفى من أعمالكم صغير ولا كبير، وأن ما كان يخفى من صغير وكبير، ظاهر عليكم في ذلك اليوم كبيرا كان أو صغيرا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ﴾، فالكتاب فهو: الحساب، وما أحصاه عليه ملكاؤه من جميع الأسباب، فقله: ﴿أُوْتِيَ﴾ فهو: وقف ويؤن له أمره، وأظهر عليه فيه سره، حتى يعلمه علما حقا، ويعلم أنه لم يحص عليه كتابه إلا صدقا، ومعنى

﴿يَمِينِهِ﴾ فهو: اليمين والبركة، وما يلقى به الملائكة أهل الدين والتطهرة، من البشارة من ربهم، والتبشير والتطمين لهم عند توقيفهم ومحاسبتهم، فهذا معنى قوله ﴿يَمِينِهِ﴾. وكذلك قال ذو العزة والجلال، في أصحاب الميمنة، حين يقول: ﴿فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ﴾ (الرافعة: ٨)، فأراد بقوله: ﴿الْمِئْمَنَةِ﴾: باليمين والبركة، والفضل والغفرة، لا أن ثم ميمنة قصدتها الله ولا ميسرة.

﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾ ومعنى ﴿يَقُولُ﴾ أي: هو قول من المؤمن المحاسب عند تبشير الملائكة بالرحمة، والرضى من الله والمغفرة، فيقول عند ذلك لمن يحاسبه من الملائكة: ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾، ومعنى ﴿هَؤُلَاءِ﴾ فهي: هاكم، فهو حض على أن يقرأوا، وهي تخرج على معنى: هلموا اقرأوا كتابي، ومعنى ﴿أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾ فهو: فسروا حساويه، واشرحوا أعماله، وبيّنوا أفعاليه<sup>(١)</sup>، استبشارا منه بجزاء عمله، وثقة منه بعدل ربه.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ﴾، فمعنى ﴿ظَنَنْتُ﴾ أي: أيقنت في الدنيا أني ملاق حساويه في هذا اليوم، فأخذت له أمته، وعملت له عمله في دار الدنيا، فلقيت السرور في الآخرة التي تبقى، ومعنى ﴿مُلْكٌ﴾ فهو: معانٍ مواقع مدان، ﴿حَسَابِيَّةٌ﴾ فهو: مناقشتي على فعلي، ومحاسبتي على ما تقدم مني، صغيرا قدمته، أو كبيرا عظيما فعلته.

ثم أخبر سبحانه بمكان من كان كذلك، ممن أخذ أمته لذلك، فعمل على حذر من أمره، وتيقظ في دار دنياه لنفسه، فقال في من كان كذلك من المؤمنين، المستعدين

(١) في (ج): عمله وبيّنوا فعليه. وفي (ب): عليه وبيّنوا فعليه.

في الدنيا لمحاسبة يوم الدين: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (١٥) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٦﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٧﴾، معنى قوله: ﴿فَهُوَ﴾ يريد أي: من أوتي كتابه يمينه فهو في عيشة راضية، والعيشة فهي: المعيشة، والمعيشة فهي: الحياة الرضية، والحياة الرضية فهي: الحياة الهنية، وهي المعيشة الرضية، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ والجنة فهي: دار الثواب، والعالية فهي: العظيمة الأمر، الرفيعة القدر، الجليلة الخطر، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ فالقُطُوف فهي: الثمار من فواكه الأشجار التي جعلها الله سبحانه معيشة للمؤمنين، ومتفكها للمثابين، ومعنى ﴿دَانِيَةٌ﴾ فهي: قريبة من المتناول لها، متهيئة على أحسن حالاتها.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (١٨)، هذا أمر من الله سبحانه لهم بأكل ما رزقهم، وشرب ما سقاهم، إباحة منه لهم ما تفضل به عليهم، ﴿هَنِيئًا﴾ فمعناها: سليماً من كل آفة، لا أذى فيه ولا غفافة، في أكله على أكله، لا تخالف طبايع أكله، ولا تخالف إرادة متناوله، ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ يقول هو: جزاء لكم على ما قدمتم من العمل في الدنيا، فاستوجبتم هذا أجرالكم في الآخرة التي تبقى، والأيام الخالية فهي: الأيام الفانية، أيام الدنيا التي انقضت، وفنيت فمضت.

ثم رجع سبحانه إلى صفة أهل الشمال، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُنَالِيَنِي لَمْ آؤَتْ كِتَابِيَّةٌ﴾ (١٩) وَلَمْ أَذَرْ مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾، فمعنى ﴿أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ فهو: حوسب ووقف على ما أحصي عليه من فعله، وعرف من عمله، ومعنى ﴿بِشِمَالِهِ﴾ فهو: مثل من الله عز وجل مثله لعباده ضربه لهم بالشمال، العسرة والشدة في كل حال، يقول سبحانه: حوسب حساباً شديداً، ووقف توقيف عنيفاً، ﴿فَيَقُولُ يُنَالِيَنِي لَمْ آؤَتْ كِتَابِيَّةٌ﴾ هذا قول من استحق الوعيد من ربه، عند معاينة جزاء فعله وسعيه، فحينئذ يقول: ﴿يُنَالِيَنِي لَمْ آؤَتْ كِتَابِيَّةٌ﴾، ومعنى

﴿يَلْبِثْنِي﴾ هو: وددت أني لم أوت كتابيه، ومعنى ﴿أَوْتِ كِتَابِيَّةً﴾ فهو: ألقى سبيح عملي، وأعرف ما أحصي علي من فعلي، ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةً﴾ يقول: يا ليتني كنت ميتا على حالتي، وباليا في الأرض فانيا، لا أدري ما الحساب، ولا أرى ما كنت أوعده من العقاب، وأكون ترابا في القبر، ولم أعين ما عاينت من شدة الأمر، ألا ترى كيف يقول: ﴿يَلْبِثَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ﴾<sup>(١)</sup>، والقاضية التي تمنّاها الفاسق في ذلك اليوم، فهي: القاضية التي عرف في الدنيا عند موته، فقضت عليه فأماته، وإلى القبر صيرته، فيتمنى أن قاضية الموت تنزل به في يوم الدين، فترجحه من العذاب المهين، فيكون في الآخرة التي تبقى، ميتا فانيا كما كان في الدنيا. ثم قال - خزي وردي، وقد أخزي لعمرى إذ غوي - : ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾<sup>(٢)</sup>، يقول: لم يغن عني ما كنت أجمع من المال، ومعنى يغني<sup>(٣)</sup> عني فهو: يدفع عني شيئا مما نالني، فأقر في يوم الدين بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور وتزوين، وأنه اليوم قد صار إلى الحق اليقين.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾<sup>(٤)</sup>، يقول: ضل عني تجهري في الدنيا وتسلطني، ومعنى ضل عني أي: ذهب فلم ينفعني، وبقيت اليوم خاليا فردا وحدي، ومن سلطان الحجة فردا، يقول: ضلت حجتني إذ لم تكن لي حجة ولا قول يقبل مني في الآخرة، وقد روي وقيل: إن ذلك أبو جهل بن هشام لعنه الله<sup>(٥)</sup>.

ثم أخبر سبحانه بما يكون من أمره لحملة عرشه فيه، وفي إيصال الوعيد إليه،

(١) في (ج): أغنى.

(٢) أخرج ابن المنذ، عن ابن جرير في قوله: ﴿حُلْدَوَةٌ فَحُلْدَوَةٌ﴾ قال: أخبرت أنه أبو جهل. الدر المنثور

فقال: ﴿خَذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ ① ثُمَّ آتَجَحِّمَ صَلَّوهُ ② ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ③﴾، معنى ﴿خَذُوهُ﴾ فهو: أمر من الله للزبانية بأخذه، والأخذ له فهو: البطش به والقبض عليه، ﴿فَعْلُوهُ﴾ معناها: أوثقوا يده إلى رقبته، ﴿ثُمَّ آتَجَحِّمَ صَلَّوهُ﴾ فالجحيم هي: النار، و﴿صَلَّوهُ﴾ فمعناها: اصلوه، ومعنى اصلوه فهو: حرقوه وأنضجوه، وعذبوه وأحرقوه، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ والسلسلة فهي: سلسلة من حديد، ﴿ذَرْعُهَا﴾ يعني: طولها، ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ فهو: الذراع المعروف، بالطول الموصوف، ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ معناها: في السلسلة فاجعلوه، ومعنى جعله في السلسلة فهو: معنى جعل السلسلة في رقبته، وقد قيل: إنها تنفذ من ظهورهم إلى صدورهم حتى يُنْظَمُوا فيها نظماً نظماً<sup>(١)</sup>، وقد قيل بغير ذلك، وأصح ذلك عندنا جعلها في أعناقهم؛ لأن الله سبحانه قد ذكر ذلك فقال: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ④ [نفا: ٧].

قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ⑤، يقول: إنه كان لا يصدق بأمر الله، ولا يقر بوحدانية الله، ولا يتعبد الله بما أمره، ﴿الْعَظِيمِ﴾ فهو: الجليل النافذ الإرادة، ماضي المشيئة، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ⑥ [الشورى: ١١].

(١) أخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي، في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال: تسلك في دبره حتى تخرج من منخره حتى لا يقوم على رجله.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال: قال ابن عباس: السلسلة تدخل في آسته ثم تخرج من فيه ثم ينظّمون فيها كما ينظّم الجراد في العود ثم يشوى.

وأخرج ابن المنذر عن طريق ابن جريج، عن مجاهد قال: بلغني أن السلسلة تدخل من مقعده حتى تخرج من فيه، يوثق بها بعد أو من فيه حتى تخرج من معدته. الدر المنثور ٨/ ٢٧٤.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، يقول: لا يأمر بإطعام المستطعمين من المساكين، بل كان ينهى عن ذلك جميع المطعمين، وقد يخرج معنى ذلك على أنه: لم يكن يحض على أداء الزكاة التي جعلها الله عوناً للمساكين، وتقوية على إقامة الدين، فلم يكن يؤديها ولا يحض - لعنه الله - عليها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾، يريد: أنه ليس له في يوم الدين حميم، ومعناها أي: عندنا في دار آخرتنا حميم، والحميم فهو: ما كان يغتر به من البنين، والعصبة والأقربين، فأخبر الله سبحانه أنه كان انقطع عنه في ذلك اليوم الذي كان يغتر به في الدنيا من عشائره وأقربيه، وأهل طاعته وبنيه، ففارق أصحابه وأعوانه، وضل عنه في ذلك اليوم سلطانه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ، فأخبر أنه لا طعام له في ذلك اليوم ولا معيشة ولا حياة، ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ والطعام فهو: المأكول، والغسلين فهو: صنف من طعام أهل النار يدعى: الغسلين، وهو شيء يزيد أكله بلاء، وجوعاً وشقاء، لا يهنا أكله، ولا يتنفع صاحبه، جعله الله عذاباً لأهل معصيته، ألا تسمع كيف يقول: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾، فأخبر سبحانه أن أهل الخطاء على أنفسهم، بالمعصية لربهم، يأكلون الغسلين، ويعذبون بأكله في يوم الدين.

ثم أقسم سبحانه عن صدق قول رسوله صلى الله عليه وعلى آله بما جاء به من الرسالة عن ربه، فقال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، معنى ﴿فَلَا﴾ هو: أفلا أقسم، ومعنى ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ يريد: بما تبصرون من الأشياء مما

فيه أثر قدرتنا، وعجائب تدبيرنا، من لطيف صنعنا، الشاهد بالربوبية لنا، الناطق بصدق رسولنا، من الآيات الباهرات، التي جاء بها النيرات، اللواتي هن دلائل وعلامات على أنه من المرسلين، بها جاء به من الأمر المبين ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: وبما لا ترون، مما قد علمناه، فأقسمنا به وذكرناه، من عجائب خلقنا، ودلائل فطرتنا، في الجن والملائكة، وغير ذلك من الأشياء المغيبة، التي لا ترونها بأعينكم، ولا تفهمونها لعجزكم، وقلة استطاعتكم، واستدراك ما غاب عنكم.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يقول: إن هذا الذي ذكره لكم رسولنا عما بعثناه به، وأيدناه بذكره، والإعذار فيه، والإنذار، لأحق ما يكون من القصص والأخبار، من ذكر الحاققة والواقعة، وشقق السماء إذ هي واهية، ووقوف الملك على أرجائها، عند وقت تغييرنا لها وتبديلها، وظهور خافيات صدوركم، حين تعرضون على ربكم، واستبشار من أوتي كتابه بيمينه، وحلوله فيها وعدناه من جنتنا، ونمّني من أوتي كتابه بشماله عند وقت معاينته، لما كان يوعد به في حياته، القاضية المفتية، والجائحة المهلكة، وإقراره بقلة غناء ماله عنه، وهلاك سلطانه منه، وما ذكر صلى الله عليه وآله لهم مما أمر بذكره، ووصفه لما أمر بوصفه، وشرحه لما أمر بشرحه، من الجحيم وإصلاحها لأهلها، والسلسلة وذرعها، وغل أهلها في يوم الدين بها، وما أمر بذكره فذكره، والتحذير له فحذره، من أكل الغسلين، الذي يجعل طعاما للخاطئين، فأقسم سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، أن لهذا القول كله من قول رسوله، لأحق من بعث به إلى خلقه، وأمره بشرحه لجميع بريته، وأنه لقول رسول كريم، وما هو كما يقولون، ولا كما يذكرون في كذبهم وما يسطرون، فيزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله شاعر، ومرة كاهن، ومرة ساحر، ومرة مجنون، فأخبر سبحانه أنه لقول رسول كريم، وهو صادق عليم.

ثم أقسم ما هذا القول بقول شاعر، ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾، يريد: أن إيمانكم وتصديقكم بالحق الذي جاء به رسولنا من عندنا، على ما ترون من البراهين التي لا تكون إلا منا، قليل لكفركم وعنادكم، وتكذيبكم وحسدكم.

ثم رد على القسم بالواو فقال: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾، نفى سبحانه أن يكون هذا القول قول الكاهن، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾، فأخبر أن تذكرهم قليل، ومعنى ﴿تَذْكُرُونَ﴾ فهو: تدبرون الأمور، وتفكرون فيها، فأعلمهم سبحانه أن تذكرهم وتدبرهم قليل، وأنهم لو تذكروا، أو تدبروا وتفهموا وأنصفوا، لعلموا أن هذا قول رسول كريم، وأنه ليس بقول شاعر ولا كاهن رحيم.

ثم أخبر تبارك وتعالى أن كلما أتى به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، فهو: من الله حقا، وقولا صدقا، فقال سبحانه: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأخبر أن محمدا صلى الله عليه وآله لم يبلغهم إلا ما أمر به إليهم، وأنه لم يزد ولم ينقص في شيء تلاه عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾، يقول: لو كان في شيء مما يقولون، حتى نقول علينا باطلا كما تذكرون، في بعض أقاويله، أوفي شيء من أخباره وأحاديثه، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، معنى اليمين فهو: الأمر القوي المتين، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

إذا ما راية رفعت لمجد      تناولها عرابة باليمين<sup>(١)</sup>

(١) البيت للشماخ بن هرير من قصيدة يمدح فيها عرابة بن أوس الحارثي، ديوانه / ١١٢.

ومعنى ﴿أَخَذْنَا مِنْهُ﴾ فهو: انتقمنا منه انتقاما شديدا، فهذا معنى ﴿أَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، يقول: لأنزلنا عليه نقمة تقطع وتينه، والوتين فهو: نياط القلب وعلاقته، التي تكون بقطعها مفارقتها للحياة، ومصيره إلى الوفاة.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ﴾، يخبر سبحانه أنه لو أراد به سبب، ما كان له عنه حاجز منهم، ولا عنه له مدافع فيهم، فصحيح سبحانه لنبيته صلى الله عليه وعلى آله أداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، بما ذكر من قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿١٠﴾، لأنه لما أن قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ لفعلنا به ما ذكرنا، ثم لم يكن منه سبحانه فيه شيء مما ذكر أنه يفعله به لو تقول علينا باطلا، صح له صلى الله عليه وآله بأحق حقائق التحقيق أداء الأمانة، وتبليغ حقيقة الرسالة، بصحة نصيحة وصدق، وثبتت له الحجة بذلك على الخلق، والحاجز فهو: المانع، والمانع فهو: القائم دونه والمدافع.

ثم أخبر جل جلاله، عن أن يجويه قول أو يناله، أن هذا القول الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وآله من الإعذار والإنذار، والتحذير والأخبار، تذكرة للممتقين فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَتَذَكَّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿١١﴾، فمعنى ﴿إِنَّهُمْ﴾ يقول: إن هذا القرآن، والقول، ﴿لَتَذَكَّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والتذكرة فهي: التنبيه والزجر والتحذير للمتقين، والمتقون فهم: المؤمنون المتقون لربهم، والتقي فهو: الخائف للذنب، المشفق من عذاب ربه، فأخبر سبحانه أن هذا كله لا يتنفع به، ولا يكون تذكرة، إلا لأهل الدين والتبصرة، والذين يتفكرون فيه

ويذكرونه، ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ فأخبر سبحانه أنه يعلم من نزل عليه هذا القرآن مكذبا به، غير مؤمن بغيبه، معاندا للرسول عليه السلام في قوله، مخالفا له سبحانه في حكمه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢٠٠﴾، يقول سبحانه: حسرة في يوم الدين على الكافرين، متحسرون عليه ألا يكونوا قبلوه، وألا يكونوا آمنوا به واتبعوه، والحسرة فهي: الندامة والحرقرة، والتأسف على فوات ما فاتهم، إذ كان ممكنا لهم في حياتهم، فتركوه في وقت إمكانه، فتحسروا عليه بعد فواته، والكافرون فهم: العاصون المكذبون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، يريد بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يقول: إن هذا القول الذي قلنا، والذكر الذي ذكرنا، والشرح الذي شرحنا، لحق يقين، صادق القول مبين، وآت كائن قريب من أهله واقع بهم، نازل عن قليل عليهم.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، معنى ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: كَبِّرْ وَقَدِّرْ، وَقُدِّسْ وَنَزَّهْ ربك إذا ذكرته بشيء من أسمائه، ونسبت إليه في شيء مما يرضيه، ﴿رَبِّكَ﴾ معناها: خالقك ومالكك، ﴿الْعَظِيمِ﴾ فهو: الواحد الجليل، الفعال لما يريد، الغالب غير مغلوب، الذي ما شاء من الأشياء أن يكون كان، بلا كلفة ولا أعوان، النافذ المشيئة، العظيم القدرة، الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢٠١﴾، الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ وَكَثْرَةُ تَكْبِيرِ ﴿٢٠٢﴾ (الإسراء: ١١٧).

٣٥١) وسأله عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَمَنَّةٌ

فقال: أما العرش فهو: الملك، وأما ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: يوم القيامة، وأما الثمانية الذين ذكرهم الله فقد يمكن أن يكونوا: ثمانية آلاف، أو ثمانية أصناف، أو ثمانية أملاك، والله أعلم وأحكم. وأما حملهم فهو: تأدية ما أمرهم الله بأدائه إلى من أمرهم به الله من عباده، من الكرامة والنعيم والإحسان، وفوائد الخير وما يأتيهم من الرحمة والغفران، وهذا جائز معروف في العربية والبيان، من ذلك ما يقول العرب كثيرا، فهذا معنى الحمل الذي ذكره الله، وهذا الجواب ونفس المعنى وقصده، الذي يحتاج إليه منه، فلك فيه كفاية إن شاء الله.





# تفسير سورة المعارج





## تفسير سورة ( المعارج )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾، فمعنى ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾ فهو: إخبار من الله بها سأل من العذاب، ومعنى يسأل فهو: يأتي وينهال، ويكر في كل الأحوال، والسائل هاهنا فهو: الآتي من أمر الله وحكمه بالعذاب على أعدائه، يريد به ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾ أي: أتى آت نازل من عذاب الله الواقع بالكافرين، ومعنى ﴿وَأَقِمْ لِلْكَافِرِينَ﴾، فهو: واقع بالكافرين، فقامت اللام مقام الباء؛ لأنها من حروف الصفات، وحروف الصفات يخلف بعضها بعضاً.

﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾، يريد: ليس لهذا العذاب النازل بالكافرين دافع، ومعنى ﴿دَافِعٌ﴾ أي: مانع ولا حاجز له عنهم، ولا صارف عن الوقوع.

ثم أخبر سبحانه أنه من الله فقال: ﴿مَنْ أَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾، يريد: أن هذا العذاب الواقع بالكافرين فهو: من الله ذي المعارج، والمعارج فهي: المصاعد، والمصاعد فهي: المسالك، والمسالك هي: الطرق التي تسلكها الملائكة من السماء إلى الأرض، ومن السموات بعضهم إلى بعض.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ومعنى ﴿تَعْرُجُ﴾ فهو: تسلك وتمضي، وتذهب وتأتي، و﴿الْمَلَكُوتُ﴾ فهم: ملائكة الله المطهرون، و﴿الرُّوحُ﴾ فهو: جبريل الأمين، عليه صلوات رب العالمين، ومعنى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يقول: الملائكة تعرج

في يوم واحد وتسير وتقطع بقدرة الله ما لو كان غيرها من الناس، لم تسر ما سارته الملائكة في يوم واحد في خمسين ألف سنة، فأخبر سبحانه بعظيم قدرته في ذلك، وجليل فعله فيما جعل من سرعة سير الملائكة وقطعها بعروجها لما تقطع من معارجها، وتقضيه في سيرها في مسالكها، دلالة منه بذلك لخلقها عليه، ودعاء منه لهم بها أظهر في ذلك إليه.

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۖ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۖ﴾، معنى ﴿صَبْرًا﴾ أي: انتظر ولا تجزع واحتمل، ﴿صَبْرًا جَبِيلًا﴾ يقول: احتمالا جميلا، ومعنى ﴿جَبِيلًا﴾ أي: دائما وثيقا جيدا، لا يدخله إفك ولا هلع، ولا خور ولا جزع، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، معنى ﴿بَعِيدًا يَرَوْنَهُ﴾ أي: يرونه باطلا ولا يوقنون به إيقانا، فلما لم يوقنوا به ولم يؤمنوا، جاز أن يقول: ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، لأن كل ما لم يوقن به الموقن فقد يراه بعيدا، وذلك أن العرب تقول لما لم يصح عندها، وكان غير آت ولا ممكن في عقولها: هذا أمر بعيد منا، من ذلك ما تقول العرب: زعم فلان أنه يقتل فلانا، وهذا أمر بعيد منه، تريد: أن هذا شيء لا يقدر عليه، ولا يكون منه أبدا إليه، فعل هذا المعنى يخرج قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، يقول سبحانه: يرون ما يعدهم من وقوع هذا العذاب بهم محالا لا يصح في عقولهم عندهم، ولا يقع أبدا بهم، ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ يقول عز وجل: نعلم أنه حق آت، والعرب تسمي كلما أيقنت بمجيئه: قريبا، تقول: ما أقرب الموت، وتقول: ما أقرب فرج الله، إيقانا بمجيئه، فقرنته بإيقانها بكيئوته، وتقول العرب: ما أقرب الليل، فقرنته حين علمت أنه آت لا محالة.

ثم ذكر سبحانه الوقت الذي يكون فيه العذاب للكافرين، وتنكيل أهل الوعيد من المكذبين، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ <sup>(١)</sup> وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ <sup>(٢)</sup> وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا <sup>(٣)</sup>، فأخبر سبحانه أنه إذا كان ما ذكر من أمر السماء والجبال، كان وقوع العذاب بالكافرين، ومعنى ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ فهي: تذوب بعد تجسمها، وتنحل بعد عظمها، حتى تعود إلى ما كانت عليه أولاً، من الدخان الذي خلقت منه في الابتداء، فشبهها سبحانه عند كينونها دخاناً بالمهل الجاري، والمهل فهو: صفو القطران، فأخبر سبحانه أنها تكون في الفناء والذهاب والانحلال، كالمهل حذو المثال بالمثال، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ فشبهها أيضاً بانحلالها وذهابها وتمزقها بالعن، والعن فهو: ضرب من خالص الصوف، فأخبر سبحانه أنها تعود من بعد تجسمها ويسها وصلابتها وثباتها، كالعن إذا نفش فاضمحل، ولم يَسْتَرْ بعد نفشه ما يكون خلفه ولا فوقه ولا تحته، لضعف أمره بعد نفشه، فأخبر أن الجبال بعدما هي عليه اليوم من كثافتها وصلابتها وجليل أمرها، تعود إلى الكينونة كالعن المنفوش.

﴿وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، يقول: لا يسأل نسيب نسيباً، ومعنى ﴿وَلَا يَسْتَلُ﴾ فهو: يستخبر ولا يكلم، ولا يقبل عليه ولا يسلم.

﴿يُبْصِرُ وَيُبْهِمُ﴾، معناها: يروئهم ويعرفونهم حتى يعرف القريب قريبه، والنسيب نسيبه، فيشغله هول ما هو فيه من أمره عن مسألة قريبه، والسلام على حميمه.

﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ﴾، معنى ﴿يَوْمَ﴾ فهو: يجب ويتمنى، ويريد ويشاء، ﴿الْمُجْرِمِ﴾ فهو: المسيء الظالم، ﴿لَوْ يَفْقَدِي﴾ يقول: لو

يفدي نفسه، ومعنى يفديها: أن يجعل بدلها في العذاب، ويفديها بمن ذكر الله وسمى من أقربائها، ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ﴾ يريد: من عذاب يوم الدين، ويومئذ فهو: يوم القيامة.

﴿بَنِيهِ﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿يَقُولُ سُبْحَانَهُ يَوَدُّ أَنْ أَمْكُنَ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ بِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَبَنِيهِ فَهَمَّ: وَلَدَهُ الذَّكَورَ، وَصَحْبَتِهِ﴾ فَهِيَ: زَوْجَتُهُ الْحَبِيبَةُ إِلَيْهِ، الَّتِي كَانَ يَجِبُهَا وَيَفْدِيهَا فِي الدُّنْيَا بِنَفْسِهِ، وَيَحَامِي دُونَهَا بِمَالِهِ وَمَهْجَتِهِ، وَأَخِيهِ﴾ فَهُوَ: ابْنُ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ فَهِيَ: وَالِدَتُهُ وَرَابَتُهُ الَّتِي تَرَبَّى، وَتَطْعَمُهُ وَتَسْقِيهِ لَبْنَهَا فِي صُغُرِهِ، حَتَّى فَصَلَتْهُ عَنْ ثَدْيِهَا عِنْدَ كِبَرِهِ، وَ﴿تُتَوَبُّ﴾ فَمَعْنَاهَا: تَحْضُنُهُ وَتَرَبَّى، ﴿فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يَقُولُ: أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ لَوْ كَانُوا لَهُ وَفِي يَدِهِ عَيْدًا وَخَوْلًا وَأَقْرَبَاءَ وَنَسَبًا، ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ يَقُولُ: يَوَدُّ أَنْ يَفْدِيَ بِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا وَجَمِيعَ مَا فَسَرْنَا<sup>(١)</sup> نَفْسَهُ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، وَنَجَا وَجَعَلَهُ مَكَانَهُ فِي يَوْمِ الدِّينِ، فِدَاءً يَفْدِي بِهِمْ نَفْسَهُ، وَوَقَاءً يَبْقَى بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ بَدَنَهُ، ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ يَقُولُ: ثُمَّ يَقْبَلُ مِنْهُ اللَّهُ ذَلِكَ وَيُخْلِيهِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمَجْرِمَ يَوَدُّ أَنْ يَنجَا وَسَلِمَ وَافْتَدَى، بِكُلِّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ وَسَمَّى.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يُطِئُ لِلْزَّاعَةِ لِلشَّوْثِ﴾، مَعْنَى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فَهُوَ: نَفْيٌ أَنْ يَكُونَ تَقْبَلُ مِنَ الْمَجْرِمِ فِدَاءً، أَوْ يَكُونَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ نَجَاءً، يَقُولُ: لَا نَجَاةَ لَهُ وَلَوْ افْتَدَى، وَقَوْلُهُ: ﴿لَطِئُ﴾ فَهِيَ: جَهَنَّمُ، وَإِنَّمَا سَمِيَتْ: لَطِئُ

للتظيها، والتلطي فهي: التلهب والتقلب، وأكل ما يقع فيها بأسرع سرعة، ﴿تَزَاعَةُ  
لِلشَّوَى﴾ يقول: أكلة للشوى محرقة له ولغيره من بدن صاحبه، والشواء فهو:  
الجلد، وقد قيل: غير الجلد، وأحسن ما سمعناه فيه أنه الجلد.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾، يريد بـ ﴿تَدْعُوا﴾ أي: تأخذ من أدبر عن الله  
سبحانه، وإنما مثل الله أخذها بالدعاء منها لمن تأخذ؛ لأن كل من خاز شيئاً فقد  
استدعاه إليه، ومن استدعى شيئاً إليه فقد دعاه وآواه وصار منه وإليه، فقال:  
﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ تؤويه وتحرقه وتخزيه، والمدير فهو: المدير عن الله، وعن  
حقه المتعلق بها هو فيه من باطله وفسقه، ﴿وَتَوَلَّى﴾ فهو: عدل عن الحق وأبى.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾، يقول: جمع الذنوب فأوعاها، ومعنى أوعاها فهو:  
جمعها كلها فأحصاها.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، الإنسان فهو: الناس كلهم، ﴿خُلِقَ  
هَلُوعًا﴾ يقول: طبع وفطر على الضعف، وضعف البنية والجزع مما يعظم عليه،  
ويشد أمره لديه.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾، فالشر هو: كل أمر يشتد عليه من التوازل  
النازلات، والأمور الفادحات، والمصائب الحالات، و﴿جَزُوعًا﴾ فهو: فزعا  
هلوعا، يقول: إذا أصابه ذلك جزع منه، وضعف لضعف بنيته عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، يعني ﴿مَسَّهُ﴾ فهو: أصابه وواقعه،  
و﴿الْخَيْرُ﴾ فهو: الرخاء والنعمة، والسرور والغبطة، و﴿مَنُوعًا﴾ يقول: فهو:  
مانع لخير به عنده، قليل الإنفاق في مرضاة ربه، في ما يقرب من خالفه.

ثم استثنى سبحانه من الناس الذين نسب إليهم هذا الخير أهل الإيمان والتقوى، والدين والهدى، فقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۖ﴾... إلى قوله: في جَنَّتِ مُكْرَمُونَ ﴿٢٥٦﴾، معنى ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ فهو: لصلاتهم لازمون لا يتركون منها شيئاً، ولا يفرطون في المثابرة عليها واللتزم لها.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۖ﴾، يقول: يؤدون من أموالهم الحق الذي جعله الله من الزكاة عليهم، المعلوم فهو: المعروف بكيله ووزنه للسائل والمحروم، والسائل هو: الطالب المواجه بالطلب والسؤال، والمحروم فهو: المتعفف اللازم لمنزله الذي يتوهم الناس أنه مستغن لتعفقه وقلة طلبه، فيحرمونه لذلك ما يعطون غيره ممن يمد يده للسؤال ويطلب.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَرِ الَّذِينَ﴾، فيوم الدين هو: يوم القيامة، فهو: الجزء مما تقدم من أعمال العباد، و﴿يُصَدِّقُونَ﴾ معناها: يوقنون به ويؤمنون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، هو: خائفون وجلُّون، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾، ومعنى ﴿مَأْمُونٍ﴾ فهو: غير مندفع ولا منصرف عن أهله بل هو يقينا مواقع لهم، لا يطمعون في انصرافه عنهم، ولا يشكون في هجومه عليهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، والفروج فهي: المذاكير التي جعلها الله سبحانه لهم لينالوا بها لذة الجماع، فأخبر عز وجل أنهم لها حافظون، وحفظهم لها فهو: ألا يجعلوها إلا في المواضع التي أحلها الله لهم من النساء، ألا تسمع كيف يقول عز وجل: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾، يقول سبحانه: إلا على نساءهم، ﴿أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانَهُمْ»، فملك اليمين فهو: السراري من الإمام، ﴿فَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يقول: غير معاقبين في مدانة النساء وملك الإمام؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أطلق لهم ذلك فيما تسمع من القرآن.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، يقول: من ابتغى لفرجه موضعاً غير نسائه، أو ملك يمينه من إماءه، فهم عادون، والعادون فهم: المعتدون لما جعل الله لهم، إلى ما حرم عليهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، والأمانات فهو: صنوف، فمعناها: أمانة الله عندهم فيما استراحهم من حقه، وقلدهم من فرضه، ومنها: ما استأمنهم الله عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه، إلى من هو دونهم من خلقه، ومنها: ما استأمنهم عليه من أمواله التي قسمها بين من سقى في كتابه، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال الله أن يؤديه إلى غاية الأمانة، ويوفيه على غاية الوفاة، ومنها: ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضاً من ودائعهم وأموالهم، فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها، وتسليمها إلى أصحابها، ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن، فواجب عليه أن يحفظ عليه سره، ولا يفشي عنه إلى غيره. وقوله: ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وعهدهم فهي: ما أخذ الله على الخلق من الميثاق، والعهد بالتصديق بأنبيائه وكتبه، وما أخذ عليهم من العهد في القيام مع أوليائه، والنصر لمن نصره، وما أخذ عليهم من العهد في التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان، الذي أنزل إليهم علمهما في القرآن، حين يقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ومعنى ﴿رَاعُونَ﴾ فهو: حافظون مؤدون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾، والشهادة فهو: كل حق عَلِمَهُ إنسان، من حق يجب لله على الخلق التكلم به والقول، أو حق لمسلم يعلمه مسلم من شهادة أشهده عليها، أو أمور احتاج إلى أن نطق له بالحق فيها، ومعنى ﴿قَائِمُونَ﴾ فهم: ثابتون على الشهادة التي يعلمونها، لا يزولون عنها ولا يكتُمونها، ولا ينقصون منها، ولا يزيّدون فيها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، ومعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾ فهم: عليها يداومون، ويحفظون أوقاتها التي جعلها الله لها، فهم على ذلك محافظون<sup>(١)</sup>، وله غير تاركين، ولا في شيء منه مفرطين.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لمن كان على هذه الحالات، وكان من أهل هذه الصفات، فقال: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾، والجنات فهي: الجنان المذكورات عند الله سبحانه المعدودات لأهل الطاعات، و﴿مُكْرَّمُونَ﴾ فمعناه: مَكْرَّمُونَ، ومعنى ﴿مُكْرَّمُونَ﴾ فهو: مقربون مدنون معظّمون، مثابون منعمون.

ثم أخبر سبحانه بحال الكافرين، وما هم عليه من الإعراض عن الله ورسوله، فقال: ﴿قَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، يريد بقوله: ﴿قَمَالِ﴾ أي: فما بال. ﴿قِبَلَكَ﴾ عندك، ﴿مُهْطِعِينَ﴾ والمهطع فهو: المطأطئ الرأس، يقول: ما بالهم عندك مطأطئين رؤوسهم لا ينظرون إليك، ولا يستمعون منك، ولا يقبلون بوجوههم عليك.

(١) في (ج): محافظون.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾، يريد: عن يمينك وعن شمالك، ﴿عِزِّينَ﴾ أي: جماعات قليلات عن يمينك جماعات، وعن يسارك جماعات، كل مهطع برأسه، معرض بوجهه، لا يستمع إليك، ولا يقبل عليك.

ثم قال سبحانه: ﴿أَنْتُمْ كُلُّ آمْرِئٍ مُتَّبِعٍ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، يريد بقوله: ﴿أَنْتُمْ كُلُّ آمْرِئٍ مُتَّبِعٍ﴾ أي: أيرجو ويأمل، ﴿كُلُّ آمْرِئٍ مُتَّبِعٍ﴾ والمرء فهو: الإنسان، ﴿أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، وجنة النعيم فهي: جنة الفردوس، يقول سبحانه: إعرضهم عن الحق، واستغناؤهم عن الصدق، إعتراض من قد أمن العذاب، وأيقن بالثواب، وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم، فهو: واثق بذلك، طامع أن يكون كذلك، فهو: معرض عما يُدعا إليه، لإيقانه بما يصير من الخير إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿كَذَّابٌ﴾ يريد: بـ ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: لا تدخلونها أبدا، ولا يرونها بأعيانهم أصلا، إلا أن يتوبوا وينبوا، ويصدقوك ويطيعوك فيؤمنوا.

ثم أخبر سبحانه بما خلقهم منه احتجاجا منه بذلك عليهم، وتقريراً منه على الحق به لهم، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، يريد بقوله: ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من الطين الذين خلقنا منه آدم عليه السلام، ومن الماء المهيّن الذي خلقنا منه بني آدم أجمعين.

ثم أقسم سبحانه بنفسه إنه لقادر على أن يبدل خيرا منهم، فقال عز وجل: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ، قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ يريد: أفلا أقسم، فطرح الألف وهو يريد بها، ورب المشارق فهو: الله رب العالمين، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [النور: ١١]، والمشارق فهو: مشارق الفلك المحيط بالأرض، وكذلك المغارب فهي: مغارب الفلك المحيط بالأرض، ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ يقول: إنا لمقتدرون مستطيعون، على أن نذهب هؤلاء الذين يكذبون، ونأتي بخلق خيرا منهم يصدقون بقولنا، ويؤمنون بغيثنا، فهذا معنى قوله: ﴿ثَبِّتْ لَنَا خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، يخبر سبحانه أنه لا يُسْبَق، ومعنى يسبق فهو: يقات وعنه يهرب، حتى يسبق بهربه الهارب الذي يهرب، فأخبر سبحانه أنه ليس منه مهرب، ولا للخلق كلهم عنه مذهب، وأنهم كلهم في قبضته، فأخبر سبحانه أن أحدا لن يسبقه، يريد يسبقه أي: يفوته ويذهب عنه، حتى يعجزه فلا يناله أمره، ولا يدركه حكمه، وحاش لله أن يكون كذلك، أو على شيء من ذلك، بل خلقه كلهم في يده، لا يفوته منهم فائت ولا يسبقه منهم سابق، وهو سبحانه لكلهم مدرك لاحق.

ثم قال سبحانه لنبيته صلى الله عليه وعلى آله: ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيُلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ﴿١٢﴾، معنى ﴿ذَرَهُمْ﴾، أي: دعهم وأمهلهم، ومعنى ﴿يَخَوْضُوا﴾ فهو: يكذبوا ويتحيروا ويرددوا في الضلال، بما يصفون من الخوض مع الجهال، ﴿وَيُلْعَبُوا﴾ أي فهو: ليغترروا ويلهوا، فشبّه الله تبارك وتعالى ما هم فيه من الباطل الذي لا أصل له، باللعب الذي لا ثبات له، واللعب فهو: ما لم يكن على حقيقة، ولم يأت منه شيء على وثيقة، ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾، فهو: يوم القيامة الذي فيه يجازون، ألا تسمع كيف بينه سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، فقال: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوْفِضُونَ﴾ ﴿١٣﴾، والأجداث فهي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ فهو: سراعا مبتدئين، غير مبطين ولا متلبثين، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوْفِضُونَ﴾، والنصب فهو: شيء من الشعر تقوله

العرب تطرب فيه أصواتها، وترفع به كلامها، وتند حروفه، وتطرب قوله، فإذا سمع السامع من قائله أقبل نحوه يستمعه موفضاً، و الموفض فهو: المبرع، فضرَب الله سرعة خروجهم من قبورهم، ونشرهم إلى موضع حشرهم، عند وقت نفخ الله في صورهم، بما يعرفون من سرعة الموفضين إلى النصب إذا سمعوه من ناصبه، واستطرفوه من قائله.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، معنى ﴿خَشِيعَةً﴾ أي: منكسرة، غير مسرورة ولا مفتحة، قد خشعت أبصارهم، لهول ما رأت عيونهم، وخشوع البصر فهو: شيء ينزل بالبصر عند انحلال القوى، وضعف النفس، وذهاب القوة، والإيقان بالبلية، فأخبر الله سبحانه أن أبصارهم لإيقانهم بالعذاب منكسرة، خاشعة هالكة دامرة. ﴿تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، معنى ﴿تَرَهِقُهُمْ﴾ فهو: تغشاهم، والذلة فهي: الحزي والمذلة، والمذلة فهي: تغشى وترهق، من أيقن بالنكال من الخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، فأخبر جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، أن هذه الأشياء من خروجهم من الأجداث، وخشوع أبصارهم، ووقوع الذلة عليهم، يكون في اليوم الذي كانوا يوعدون، وهو يوم القيامة الذي كانوا به يكذبون، ولم يكونوا بشيء مما يذكر لهم فيه يصدقون.

٣٥٢) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الماعج: ١٠٠)؟

وأجل الله لهم هاهنا فهو: الأجل الذي أجله للعالمين، وجعله مدة لأجلهم

وعمرا لها، وهو المؤقت فإذا جاء الوقت الذي جعل الله إليه حياتهم، وبحلوله حلول وفاتهم، لم يؤخروا بعده، ولم يتأخر الأجل بعد حلوله طرفه، وكذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأنعام: ٣٤)، وكذلك معنى ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٦١).





# تفسير سورة نوح





## ومن سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليماً، قال يحيى بن الحسين: <sup>(١)</sup>).

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، أي: نحن أرسلنا نوحاً، وهو إخبار من الله عز وجل بأنه أرسل نوحاً ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقومه فهم: عشيرته وأهل بلده.

﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، معنى ﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ﴾ فهو: إخبار من الله أيضاً عما أمر به نبيه صلى الله عليه وآله من إنذار قومه، والإنذار فهو: التحذير والإخبار، والتخويف بوعيد الله والإنذار، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ يقول: أُنذِرهم وقوع العذاب قبل إتيانه لهم، وهجومه عليهم، فأخبرهم أنهم إن تابوا صرف عنهم، وإن أقاموا على المعاصي واقعهم، والأليم فهو: الشديد الذي نزل بهم من الغرق، وشدة العذاب والرهق.

﴿قَالَ يَنْفِرُ بِيَائِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فهذا قول نوح صلى الله عليه وآله لقومه، فأخبر الله سبحانه بتبليغ نوح عليه السلام ما أمر به من الرسالة من الإعذار إليهم والإنذار، والنذير فهو: المبلغ المحذر لأمر قبل أن يقع، فكان نوح صلى الله عليه وآله نذيراً من الله لقومه محذراً لهم ما واقع من كان قبلهم من القرون الماضية من عذاب

(١) سقط من (ج): ما بين القوسين.

الله المهين، وقوله: ﴿ثُبِينُ﴾ فهو: المظهر لأمره المنير القول، المبين لهم حقيقة ما اندرهم، الصادق في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رَبَّهُ﴾، معنى ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: جتكم نذيرا مبينا لأن تعبدوا الله، فطرح اللام فبقيت أن اعبدوا الله، والعرب تستعمل ذلك تقول: جئنا أن ترفدنا، تريد لأن ترفدنا، تطرح اللام وهي تريدها، فخرج الكلام كأنه خبر وهو إيجاب.

ومعنى ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو: أطيعوا الله، وأقيموا ما افترض عليكم من فروضه، وأمركم به من أموره، ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ معناها: خافوه ولا تعصوه، وصدقوا وعيده ولا تكذبوه، ﴿وَأَطِيعُوا رَبَّهُ﴾ يقول: وأطيعوني ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، فطرح الياء، فقامت الياء التي في ﴿يَغْفِرْ﴾ مقامها، ومعنى أطيعوني فهو: اقبلوا قولي، واستنصحوأ أمري، ولا تستغشوني، وتعصوني فيما آمركم من طاعة ربي، فتهادوا في معاصيه، والفعل بها لا يرضيه، فتهلكوا بذلك وتُدمَرُوا.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿مَنْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: إن أطيعموني فاتبعتم رضى الله، وتركتم معصيته، غفر لكم بذلك من ذنوبكم، ومعنى قوله: ﴿مَنْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هو: يغفر لكم من ذنوبكم ما كان مهلكا من كباثرها، ومحققا عليكم الوعيد منها، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ يقول: يدفع عنكم العذاب الذي نزل بكم عند معاصيكم، حتى تبلغوا الأجل الذي ساء لكم، وجعله سبحانه غاية على السلامة<sup>(١)</sup> لحياتكم؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل للعباد أجلا على الطاعة، ثم هو سبحانه المتولي في ذلك للعقوبة، فإن شاء عاجلهم بالعقوبة فقطع آجالهم

(١) في (ج): السلام.

بالمعصية التي كانت منهم، فلم يبلغوا ما أَجَّلَ الله لهم من الأجل على الطاعة إذ لم يكن منهم الطاعة، فنزل بهم العقاب فقطع مدتهم عما وَقَّتَ لهم من الأجال على الطاعة لهم، وقوله: ﴿مُسْتَى﴾ فمعناه أي: معروف بمعمول.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، معنى قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ يريد صلى الله عليه: إن عقوبة الله التي تقطع آجالكم إذا نزلت بكم لا تؤخر عنكم إلى الغاية التي جعلت لكم على الطاعة، ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كنتم تعقلون وتفهمون ذلك، وتدرونه على حقيقة المعرفة، فأخبرهم بذلك أن الأجل عند الله أجل أَجَلُهُم على التوبة والإنابة ولزوم الطاعة، فأخبرهم أنهم إن كانوا كذلك استوفوه، وإن عَنَدُوا عن الطاعة وارتكبوا المعصية نزل بهم العذاب القاطع لهم عن بلوغ ذلك الأجل المؤجل لهم، الذي ذكرنا على الطاعة منهم، وهذا الأمر الذي ذكرناه أنه ينزل من الله تبارك وتعالى بأعدائه فيهلكهم عند نسيانهم له وإيسافهم، وإقدامهم على معاصيه، واقترابهم من العذاب المهلك المستأصل، فهو: قول نوح صلى الله عليه: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أراد صلى الله عليه: إن عقوبته التي تقطع آجالكم إذا حقت عليكم بفعلكم لم تؤخر عنكم، ولم يردِّ أجل السلامة الذي جعله أمدا لمن سلم من عقوبته، وهذا من فعل الله سبحانه، وقتله بعذابه لمن قتل من أعدائه المستحقين لعقوبته، كقتل بعض الناس بعضا، فكان الله عز وجل بها أنزل من الفاسقين من العقوبة والتهلكة، قاطعا لأجاهم التي أجلها على السلامة؛ لأن الله تبارك وتعالى قد جعل في الخلق استطاعة، يقدرون بها على المعصية والطاعة، وينالون بها قتل المقتولين، وغير ذلك من ظلم المظلومين، والإحسان إلى من أحبوا الإحسان إليه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ

وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةِ وَابَتِ اللَّهِ لَسَمِيعٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿١١٢﴾ [الأنفال: ١١٢].

ثم أخبر سبحانه بقول نوح عليه السلام من بعد الإعذار والإنذار إلى قومه، وما كان من الصد منهم عن تكبيره، وقلة الإلتفات إلى شيء مما جاء به من ربه، فقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، ومعنى ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ هو: إني ناديت قومي إلى ربي، ودعوتهم إلى طاعة خالقي، ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يقول: دعوتهم في الليل والنهار إليك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾، يقول: لم يزدادوا بدعائي ربي <sup>(١)</sup> وإنذاري ودعائي واحتجاجي عليهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾، يقول: إعراضا وصدودا واجترأ علي، واستهزاء بي.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْنَاعَهُمْ فِيْءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا لِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾، يريد بقوله: ﴿كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾: ليعملوا عملا صالحا تغفر به ذنوبهم، وتتجاوز عن سيئاتهم، ﴿جَعَلُوا أَصْنَاعَهُمْ فِيْءَ آذَانِهِمْ﴾ يقول: سدوها بأصابعهم فأدخلوها في آذانهم، لكيلا يسمعوا قولي ودعائي إعراضا منهم عنك، وكفرا منهم سبحانه بك، وبغضا لما أدعوههم إليه، واستغفالا لما أناديتهم به ﴿وَأَسْتَعْشَوْا لِيَابَهُمْ﴾ يريد: غطوا رؤوسهم بشياهم وولوا مدبرين، وهذا فعال يفعله كل من استقل شيئا وكرهه، ولم يجب أن يسمعه ولا يعاينه، فكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم لئلا يعرفهم، فيدعوههم إلى ما كان يدعوههم إليه، ويحضهم من طاعة الله على ما كان يحضهم عليه، ﴿وَأَصْرُوا﴾ يريد: أضمرُوا المعصية وأقاموا على التكذيب، والإصرار على الشيء فهو:

(١) في (أ): بدعائي ربي.

الإقامة عليه، ﴿وَأَسْتَكَبُّرُواْ وَاسْتَكَبَّارًا﴾ معناها: تجبروا وتحجروا، وخالفوا وعتوا تكبراً.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، يريد صلى الله عليه: دعوتهم مباينة مكاشفة، وناديتهم بالدعوة مناداة ظاهرة، لا أسترها على أحد منهم، ولا أخفيها عنهم، فهذا معنى ﴿جِهَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، يريد بقوله: ﴿أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ أي: أخبرتهم بما ينزل عليهم من العذاب إن عصوا، أو داموا على ما هم عليه وعتوا، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ يريد: كلمتهم في السر بذلك والعلانية؛ لأن الإسرار هو الإخفاء، فيقول: أخفيت دعائي وإعذاري وإنذارني، وأعلنت به، وأتيت من تأكيد الحجة عليهم في ذلك على كل معنى، وأتيت من إكمال الحجة عليهم على الأقصى.

ثم ابتداء بعد ما أخبر به من اجتهاده في الدعاء لهم سرا وعلانية الخبر عن قوله لهم قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، معنى ﴿فَقُلْتُ﴾ فهو: أمرت، ومعنى ﴿اسْتَغْفِرُواْ﴾ أي: توبوا وارجعوا، يقول: أمرتهم بالتوبة إلى ربهم، والرجوع إلى خالقهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يقول: إنه كان للتائبين غفارا، ﴿غَفَّارًا﴾ فهو: غفور، والغفور فهو: العاني عما تقدم، تقول العرب: غفرت لك ذنبك، أي: صفحت عنه وتركته ولم أعاقبك عليه، ولم آخذك بالجزاء فيه.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، أي: أنكم إن تبتم ورجعتم إلى الله سبحانه وأخلصتم، أرسل السماء عليكم مدرارا، وإرسال السماء فهو: إرسال ما فيها من المطر لا إرسالها في نفسها، والسماء هاهنا فهي: السحاب الذي يكون فيها<sup>(١)</sup>

(١) (ل) (ج): لي. مصحفه.

المطر لا السماء الخضراء، التي هي السماء العليا، والعرب تسمي السحاب سماء، تقول: كانت على بلد كذا وكذا سماء حسنة، تريد: سحابا حسنا، فقال سبحانه: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، فقال: القرية والعير، وإنما أراد أهل القرية وأهل العير، لا القرية بعينها ولا العير، وكذلك تقول العرب كلهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، فقال: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ والعجل لا تشربه القلوب، وإنما أراد شربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح حب، وأقام العجل مقامه، والعرب تفعل هذا بالشيء الذي من جنس الشيء المنسوب إليه، المعروف الكائن منه وفيه، وفي ذلك ما قال شاعر من العرب:

ألا إنسي أسقيت أسود حالكا      الأبجلى من ذا الشراب الأبجل<sup>(١)</sup>

يريد: سقيت سماء أسود حالكا، والأسود فهو: الحية فقال: سقيت أسود، وليس الأسود يسقاه الناس، وإنما يسقون سمه، فأقام الأسود مقام السم؛ لأنه منه وإليه، يعرف به ويستدل به عليه، ومعنى قوله: ﴿مِثْرَارًا﴾، أي: كثيرا دَارًا، والدائر فهو: التابع المتوالي الذي لا ينقطع بعضه من بعض.

﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾، فمعنى ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ﴾ أي: يعطيكم، ويزيدكم ويقويكم، والأموال فهي: ما كان من الذهب والفضة، والحرث والأشجار والأنهار، وكل شيء يجلب به المال، والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿وَيَنْبِئُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾ ﴿٢﴾ معنى ﴿وَيَجْعَلُ﴾ فهو:

(١) سبق تحريجه.

يرزق ويفعل، والجنات فهي: البساتين ذوات الأنهار، والأشجار والثمار، والأنهار فهي: المياه الجارية المتضجرة الكثيرة، الحاملة الغزيرة.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، ومعنى «تَرْجُونَ» فهو: تفعلون، ومعنى تفعلون فهو: تصنعون، ومعنى «وَقَارًا» فهو: إعزازا وإكبارا وإجلالا وإعظاما، يريد عليه السلام: ما لكم لا توقرون الله وتحملونه وتقدسونه وتزهونه عما تقولون فيه، وتنسبون من الكذب إليه.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، والأطوار فهي: الحالات المختلفة، أو الأصناف المختلفة، والشعوب المختلفة وغير المؤتلفة، في الألوان والألسنة والخلق والهيئة، وقد يمكن أن تكون الأطوار هي: تنقيل الله لمن يخلقه في الرحم من حال إلى حال، من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى العظام، ثم من حال إلى حال، حتى يكمل ما أراد من خلقه، ويظهر ما شاء من فطرته، والمعنى الأول فأحسنها عندي، وكلاهما فيجوز ولا يمتنع في المعنى.

ثم احتج عليهم صلى الله عليه بها فيه الشواهد لله على قدرته، وتصديق ما بعث به نبيه عليه السلام من وعيده ووعدته، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، يقول: ألم تبصروا وتعاينوا أثر قدرته فيما خلق من سمواته السبع الطباق، فستدلوا بذلك على أنه الله الواحد الخلاق، والطباق فهي: الطبقات طبقه بمجولة فوقها مركبة، بين كل سماء وسماء ما شاء الله سبحانه من البعد والهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾، فمعنى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ﴾ أي: خلقه وصوره، وجعله فيهن نورا وقدره، فلما كان القمر في

بعضهن، وهي السماء الدنيا، جاز أن يقال: فيهن إذ كان في بعضهن، وكذلك يقول القاتل من العرب: نزلت في العراق، وإنما نزل في بعضه ولم ينزل في كله، ويقول: خضت البحر، وإنما خاض طرفه وبعضه، فقال: خضت البحر ولم يخض منه إلا اليسير، وقد بقي منه الكثير، وكذلك يقول القاتل: رميت في عسكرهم بسهم، وإنما رمى في جانب منه، ولم يرم في كله، فعل هذا المعنى يخرج قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، وإنما هو في واحدة.

معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ والسراج فهو: النور المتوقد الذي يضيء به ما بين السماء والأرض، فلما أن أضاء بالشمس ما بينهما، كانت كما قال الله: ﴿سِرَاجًا﴾ فيهما.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، فمعنى ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ فهو: خلقكم، والمخلوق من الأرض فهو: أبو الخلق آدم عليه السلام، فلما أن كان خلقه من التراب وابتدأه، وجعله واقتضاؤه، جاز أن يقول لمن كان منه: أنبتكم من التراب، إذ أصلهم منه كان، وعنه بقدرة الله بان. و﴿نَبَاتًا﴾ فهو: خلقا من التراب وتصويرا، وجعلنا<sup>(١)</sup> منه وتقديرًا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، فمعنى ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ أي: يردكم فيها من بعد موتكم، ومعنى ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فهو: يخرجكم بعد الموت ويخرجكم من الأرض بعد الفناء والبلى، والمصير إلى الرفات في الثرى، في يوم

(١) في (أ) و (ج): وجعله. مصحفة.

الدين، وحشر العالمين، ﴿إِخْرَاجًا﴾ فهو: خروجا حقا، وقولا صدقا، لا يخامره ماطل ولا محال، ولا فساد في قول ولا فعال.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، بمعنى ﴿جَعَلَ﴾ أي: فعل وسوى، وبسط ودحا، و﴿بِسَاطًا﴾ فهو: فراشا مبسوطا يرقد عليه، ويواني في كل الحالات إليه، فشبّه الأرض في انبساطها للخلق بالبساط المبسوط لهم، الذي يجلسون عليه، إذ كانت لهم مضجعا ومفترشا، وماوى ومنبسطا. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، يقول سبحانه: جعلناها لكم بساطا منبسطا طويلا عريضا ذا بعد ومدى، ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾: لتسيروا فيها ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ والسبل فهي: الطرق، وفجاجا فهو: جوانبا وشعابا؛ لأن الفج هو: الشعب العظيم من الأرض، والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال، فسمى ذلك فجاجا.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾، معنى ﴿عَصَوْنِي﴾ أي: خالفوني ولم يطيعوني، وجنبوا عن أمري، واستخفوا بدعوتي ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ فهو: أطاعوا وأحبوا وأرادوا ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: لم يزد ما رزقته من المال والولد إلا خسارا، أي: كفرانا وعصيانا حتى خسر بهاله وولده ما ربح المؤمن بهما، من الشكر لربه سبحانه عليهما، فصار لنعم الله خاسرا؛ إذ كان له في ذلك غير شاكر، وبها أعطاه منه غير ذاكر.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾، يعني نوح صلى الله عليه: قومه، ومعنى ﴿وَمَكَرُوا﴾ فهو: تخبثوا وتحيّلوا عليّ، وأداروا دوائر السوء فيّ، و﴿كَبِيرًا﴾ فهو: مكرا كبيرا عظيما كثيرا، والمكر فهو: ما ذكرنا من البغي والخذلanc.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾، وهذا قول من قوم نوح صلى الله عليه حين دعاهم إلى الله، وأمرهم بترك ما يعبدون من دون الله، فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ وهو قول من بعضهم <sup>(١)</sup> لبعض، وألتههم فهي: الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، ومعنى ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾ فهو: لا تركن ولا تخلن، ولا تفارقوا ولا تدعن.

﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، فهو لاء الأصنام كلها أصنام كانت تُعبد من دون الله، فأما سواع ويغوث ويعوق ونسرا فكانت باليمن، وأما ود فكان بدومة الجندل، وأما سواع فكان بجوف همدان، وأما يعوق فكان بخيوان، وأما يغوث فكان في حير، وأما نسر فكان في مراد مذحج، وكان قوم نوح يجلونها ويعظمونها وإن لم تكن عندهم، فتعلقوا بعبادتها، وتأمروا بأن لا يخلوا عنها ولا يتركوها، وأن يشبوا عليها، ويخالفوا نوحا صلى الله عليه وما يدعو إليه، ثم قال عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ومعنى ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يخرج على معنيين:

فأما أحدهما: فعلى مجاز الكلام فيكون عنى صلى الله عليه الأصنام، فجاز أن يقال: أضلوا لما أن كان الضلال عن غيرها بأسبابها، جاز أن يقال: أضلوا.

والمعنى الآخر: أن يكون عنى بالإضلال من يدعو إلى عبادة الأصنام من الناس من قومهم وغيرهم، وهذا عندي أشبه المعنيين <sup>(٢)</sup> وأحسنهما.

(١) في (ج): بعض.

(٢) في (ج): بالمعنيين.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، فهي: دعوة من نوح عليه السلام على الظالمين أن لا يزيدهم الله إلا ضلالا، والضلal فهو: الخذلان، فسأل الله سبحانه نوح صلى الله عليه أن يزيد من عصاه خذلانا وشقاء، حتى يكون ذلك مستوجبا للعذاب والبلاء.

ثم أخبر سبحانه بما نزل عليهم من العذاب الذي حل بهم، فأغرق كل من كان منهم فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا﴾، فمعنى ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ﴾ فهو: بخطيئاتهم أغرقوا، ومعنى ﴿مِنْ﴾ معنى الباء، أراد: بخطيئاتهم أغرقوا، فأقام من مقام الباء؛ لأنها من حروف الصفات يخلف بعضها بعضا، وقد تقدم شرحنا في ذلك، وذهبت النون من لأنها أدغمت في الميم فبقي مما خطيئاتهم، وما هاءنا فهي صلة، المعنى فيها: من خطيئاتهم، ومعنى من خطيئاتهم فهو: بخطيئاتهم، فقامت من مقام الباء، أراد بخطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا من بعد الإغراق، وخطيئاتهم فهي: ذنوبهم وعصيانهم لربهم الذي به هلكوا، وبسببه أغرقوا.

﴿فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ أي: صُبروا إلى النار، وجعلت لهم موضعا وقرارا، ﴿قُلْمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ يقول: لم يكن لهم مدافع الله عنهم، ولا ناصر منه لهم يدفع عنهم ما نزل بهم من عذابه، ولا يحجز عنهم ما حكم به من إغراقهم، على ما كان من عصيانهم، و ﴿أَنْصَارًا﴾، والأنصار فهم: المدافعون عنهم من الأعداء.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، فهذا دعاء من نوح صلى الله عليه على الكافرين، ومعنى ﴿لَا تَذَرْنِي﴾ أي: لا تترك ولا تدع،

ومعنى ﴿عَلَى الْأَرْضِ﴾ فهو: في الأرض، والكافرون فهم: العصاةون الفجرة المذبذبون، ﴿ذِيَارًا﴾ فهو: أحد يدور؛ لأن ديارا مشتقة من يدور، ومعنى يدور فهو: يحول في الأرض ويحوب، وسواء قيل: ديارا، أو دوارا؛ لأن العرب تقيم الياء مقام الواو، والواو مقام الياء، في كلامها وأشعارها.

قوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۖ﴾، هذا قول من نوح عليه السلام يقول: إنك يا رب إن تذرهم ولا تأخذهم، يضلوا عبادك الذين يقدرون عليهم، وينالون إضلالهم، ومعنى ﴿يُضِلُّوا﴾ أي: يهلكوا ويغوا ويفسدوا ويكفروا من قدروا عليه من جهلة العباد، حتى يفسدوا بذلك البلاد، ﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ يقول: لا يخرج من أصلهم إلا ولد يتبعهم في كفرهم، ويساعفهم<sup>(١)</sup> في تكذيبهم، ويتبعهم في دينهم، فيكون بفعله ذلك فاجرا، كفارا فاسقا غادرا.

ثم دعا صلى الله عليه وآله نفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ومعنى ﴿دَخَلَ بَيْتِي﴾ فهو: دخل إلى بيتي، ودخل في ديني مؤمنا مصححا، فكان بذلك مني ومن أهل ملتي، ألا تسمع كيف يقول: ﴿مُؤْمِنًا﴾ يريد أي: دخل إلى بقلب مؤمن، ونية صادقة، والمؤمنون فهم: المطيعون الذين قد آمنوا أنفسهم بطاعة ربهم، من وقوع عذابه عليهم، وكذلك معنى ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ثم قال صلى الله عليه وآله عليه تكريرا للدعاء على الفاسقين، وتقربا بذلك إلى رب

(١) ويساعفهم. قال في لسان العرب: والاسعاف والمساعدة: المساعدة، والمواناة، والقرب في حسن مصافاة ومعاونة.

العالمين، فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾<sup>(١)</sup> والظالمون فمعناها: الذين ظلموا أنفسهم بإدخالها في معاصي ربهم، حتى استوجبوا منه بذلك الفعل ما استوجبوا من العقاب، ومن ظلمهم لأنفسهم وظلمهم لعباد ربهم، وغير ذلك من سائر أفعالهم، المحرمة في دين الله عليهم، قوله: ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ فمعنى التبار فهو: البوار، ومعنى البوار فهو: الذهاب، والفناء والنقصان في كل الأسباب.

(٣٥٣) وإن سأل فقال: خَبَرْنَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾<sup>(٢)</sup> وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا<sup>(٣)</sup> نوح: ١٥-١٦، فقال: ما معنى قوله: ترون ونحن لم نر؟

قيل له: إن القرآن عربي، وإنما خاطب الله العرب بلغاتها، وهذا عند العرب أحسن لغاتها، وأتم قالاتها، تقيم ترى مقام أخبرك، ومقام اعلم، يقول العربي لصاحبه إذا أراد أن يعلمه شيئا: أما رأيت إلى فلان عمل كذا وكذا !!

فإن قال: كيف يكون القمر والشمس في السماوات وإنما هو دون الأولى منهن، وقد ترون إلى [أن بين] <sup>(٤)</sup> كل سماء وبين التي فوقها مثل ما بين الأرض وسماء الدنيا، فكيف يكون فيهن <sup>(٥)</sup> أو ينالهن كلهن، وأنتم لو سترتم دونه ثوبا لم تروه، ولو دخلتم بيتا لم تعينوه؟!

قيل له: هذا أحسن ما تكلم به العرب، مثل ذلك وأوضحه، وأبينه وأوجزه، ألا ترى أن العرب تقول للجماعة إذا كان فيها عالم، أو لأهل البيت الكبير: فيأتي

(١) (٢) (٣) (٤) (٥)

(٦) (٧) (٨) (٩) (١٠)

(١١) (١٢) (١٣)

(١٤) (١٥)

(١) في (أ): إلى حمير كل... لعلها مصحفة.

(٢) في (أ): فيهم. وما أثبت اجتهاد.

فلان علم وخير، وعدد بني فلان كثير، ولذلك تقول العرب: بالعراق فسق كثير، وبالحجاز جور شديد، وليس الفجور في جميعه<sup>(١)</sup> كله، سهله ولا جبلة، ولعل ذلك إنما هو جانب من قُرأها<sup>(٢)</sup>، أو في قرية واحدة منه، فنسب ذلك إذ<sup>(٣)</sup> كانت القرية فيه، فعلى ذلك ينسب الله القمر إلى السماوات، وإن كانت واحدة لأنها منها، وفي ذلك ما تقول العرب: إن في بني فلان لجمالاً بارعاً، وليس في كلهم جمال، وإنما هو<sup>(٤)</sup> في بعضهم<sup>(٥)</sup>.




---

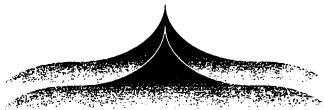
(١) في (أ): جميع.

(٢) في (أ): قرايا. لعلها مصحفة.

(٣) في (أ): إذا.

(٤) في (أ): هي. لعلها مصحفة.

(٥) سقط من (ب): هذا السؤال والجواب.



# تفسير سورة الجن





## تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ﴾ معنى ﴿قُلْ﴾ أي: خبر واذكر، ﴿أُوْحِي إِلَيَّ﴾ أي: أنزل عليّ وأخبرت، ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، أي: حضر واستمع قولي وقرأتي ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ فهي: جماعة من الجن، والجن فهم: الشياطين، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، معنى ﴿فَقَالُوا﴾ أي: ذكروا وأخبروا، ومعنى ﴿إِنَّا﴾ هو: إخبار عما كانوا معهم، ومعنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: وقع في آذاننا كلام وسمعناه، ﴿قُرْءَانًا﴾ فهو: كتاب الله الذي سمعت الجن من رسول الله، ﴿عَجَبًا﴾ أي: جيدا، محكما يبين الهدى.

﴿الرَّشِدَ إِلَى يَهْدِي﴾ يقول: يدل بها على الرشd ويوضحه، وبينه ويشرحه، ﴿فَقَامْنَا بِهِ﴾، يقول: صدقنا به أنه من عند ربنا، وأن الذي جاء به نبينا، ﴿وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي: لا نكفر بربنا، ولا نشركه معه في طاعته، ولا العمل إلا له خالصا، ومعنى ﴿أَحَدًا﴾ أي: يقول خلقا صغيرا ولا كبيرا.

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ فمعنى ﴿تَعَلَّى﴾ هو: تقدس وعلا، وعظم عن مشابهة شيء من الأشياء، ومعنى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: أمر ربنا وفعله، يقول تعالى أمره، وعظم شأنه، ومعنى ﴿رَبِّنَا﴾ هو: مالكتنا وخالقنا.

﴿مَّا اتَّخَذَ صَنِيْعَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فهو: إقرار من الجن بتوحيد الله سبحانه،

وشهادة منهم أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا<sup>(١)</sup>، ومعنى «أَتَّخَذَ» فهو: جعل وأعد، ومعنى «صَاحِبَةٌ» فهو: الزوجة التي يسكن الزوج إليها، ويتنفع في كل الحالات بها، والولد فهو: الذي يخرج من الأب ومن الزوجة معا، فأخبر الله سبحانه عن مؤمني الجن بما شهدوا به من شهادة الحق، وما قالوا به في الله من قول الصدق، ومن أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وكيف يتخذ جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، وتعالى عن قول المبطلين شأنه، صاحبة أو ولدا، وإنما يحتاج إلى صاحبة المجموع المؤلف المتولد الذي كان من صاحبة والوالد، فأما من لم يكن من صاحبة ولا والد، فلن يكون له صاحبة ولا ولد، بل هو الواحد الدائم الأحد، الفرد القدوس القديم الصمد، الذي لا يشبهه أحد، ولا يغيره أبد، فذلك الله الواحد الفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وهذا القول كان من الجن لما أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يقرأ القرآن في صلاة الصبح يوما من

(١) أخرج أحمد، وعبد بن حيد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس قال: انطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: أحيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين ذهبوا نحو تباهة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقال: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا مَّجِيدًا يَهْدِي إِلَى الْكَرِيمِ فَاتَّبَعْنَاهُ وَكَانَ ثَوْرًا رَحِيمًا﴾، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ، وَإِنَّا أَوْحَى إِلَيْهِ قَوْلَ الْجِنِّ. الدر المنثور ٨/ ٢٩٦-٢٩٧.

الأيام، وذلك أن الله سبحانه صرف إليه نفرا من الجن استمعوا ما يتلو فيؤدوه إلى جميع الجن، ليكون ذلك دعوة منه لهم، واحتجاجا منه عليهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٢٩﴾، فأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أن سمعوا ما يتلو من كتاب الله قالوا ما ذكر الله من هذا القول، والإيمان به والتصديق له، والإقرار برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقبلوا ذلك بأحسن قبول يكون من القابلين، ثم تولوا إلى قومهم منذرين، ثم كان من إقرارهم على سفهائهم الجاحدين به، بحجج نبئهم بالكفران، والشطط والعصيان، وذلك قولهم:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٣٠﴾، ومعنى ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ أي: لم يزل يقول ﴿سَفِيهُنَا﴾ أي: كافرنا ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ فهو: كذبا وزورا وباطلا، وأمرًا جسيما جليلا؛ لأن الشطط في كل معنى هو الأمر الصعب العظيم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٣١﴾، ومعنى ﴿ظَنَنَّا﴾: أيقنا، ومعنى ﴿أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: أن شرار الإنس والجن يقولون على الله الكذب، ولن هاهنا حشو وتزيين للكلام.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٣٢﴾، فهذا إخبار من الله عز وجل عما كان من الإنس يعوذون بالجن، ومعنى ﴿يَعُوذُونَ﴾ فهو: يلوذون ويستجبرون، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: فزادوهم إثما وبلاء. ولم ينفعوهم في شيء من الأشياء، التي طلبوا منفعتهم فيها، ليزدادوا بفعلهم رهقا، والرهق فهو: ما ذكرنا من الإثم عند الله والضرر، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا نزلوا واديا أو فضاء من الأرض في جمعة أو سفر، قالوا عند وقت

نزولهم، وحطهم لرحالهم: إنا نعوذ بكبراء أهل هذا الوادي وسكانه من الجن، من شر شرارهم، فكانوا كذلك، فيعوذون بالجن ويتركون التعوذ بالله، فأخبر الله سبحانه أن ذلك يزيدهم إثماً، وبلاء، وجرماً، ولا يرون به منفعة ولا رخاء، ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: زادوهم بتعوذهم إثماً وبلاء.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، معنى ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ فهم: سفهاء الجن كانوا يظنون كما يظن أهل الجاهلية من الإنس، ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: أن لن يبعث الله رسولا إليهم، فكانوا في الإنكار للرسول هم وسفهاء الإنس سواء، حتى جاءهم من الله البيان، ووضح لهم الحق بأوضح البرهان، ومعنى ﴿يَبْعَثُ﴾ فهو: يرسل رسولا يحتاج بحجته، ويدعو الثقلين إلى طاعته.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ خَرَسٍ شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾، فمعنى ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: حسناها واستخبرنا خبرها، ودانيناها لتعلم أمرها، وما هذا<sup>(١)</sup> الذي حدث فيها؟ ﴿فَوَجَدْنَهَا﴾ أي: وجدنا من أمرها وخبرها أنها ﴿مِثْلُ خَرَسٍ﴾، ومعنى ﴿مِثْلُ خَرَسٍ﴾ أي: جعل فيها كلها حتى أحصيت، والحرس فهم: الملائكة صلوات الله عليهم، الذين يمرسون مقاعد السماء وأقطارها، من مرده الجن وشياطينهم لكي لا يأخذوا شيئا من أخبارها، ومعنى ﴿شَدِيدًا﴾ فهو: قويا حافظا، ﴿شُهْبًا﴾ فمعناها: نجوما متوقدة، جعلت لهم رجوما، وإننا سميت شهابا لتوقدها وتلهبها، فشبّهت بالمنار في توقدها، وهذه النجوم فلم يكن يرمى بها<sup>(٢)</sup> من قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) في (ب): لتعلم أمرها هذا. وفي (ج): لتعلم خبر أمرها.

(٢) سقط من (ج): بها.

وتنبأ ونزل عليه من الله الوحي، حرس السماء ممن كان يقعد من مردة الشياطين في مقاعدها، وتسمع أخبار ملائكتها، فتزل به إلى إخوانهم من كهنة الأرض، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبطل أخبار الكهنة، حتى لا يعلم أحد من أهل الأرض شيئاً من أخبار السماء، فمنع سبحانه الشياطين من استراق السمع بهذه الشهب التي تقذفهم الملائكة بها، التي حرسها سبحانه عليهم وأمرها بهم، كرامة منه لنيته صلى الله عليه وعلى آله، وحيطة لوحيه، لئلا ينزل إلى الأرض من علم السماء شيء إلا على لسان نبيه صلى الله عليه وعلى آله، وقد كانت الشياطين تسترق من أخبار الملائكة وتخبرها بينها بما يأتيها من الله ربهما من أمرها لها، بما يكون من سقي البلاد وغيره، من أخبار ما يأمر الله به ملائكته، تتخبر به الملائكة بينها في السماء الدنيا، فتسترقه مردة الشياطين، وتنزل به إلى كهنة الأرض، فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله، فحجبت الشياطين عما كانت عليه بهذه النجوم التي تقذفها بها عند طلبها ما كانت عليه من استماعها، ألا تسمع كيف قالت الجن عند ذلك: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ثُمَّ نَسْمَعُ الْآنَ نَجِدُ لَهُمْ شَهَابًا رُّصْدًا﴾، فأخبر أنها كانت تقعد من السماء مقاعد، والمقاعد فهي: المواضع التي يصعد فيها من يقعد فيها للاستماع، ثم قال: ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ نَجِدُ لَهُمْ شَهَابًا رُّصْدًا﴾ يريد: فمن يقعد الآن للاستماع يجد له شهاباً رصداً، يقول: يجد له نجماً منها رصداً، أي: مستعداً، فيقذف به عندما يكون من مداناته.

ثم قالوا عندما عاينوا من تلك الشهب المستعدة لهم، الراصدة لمن طمع بالاستماع بعد مبعث محمد صلى الله عليه وعلى آله منهم، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، يقولون: لا ندري أهذا الذي حدث من أمر الله أكثر يريد أن يجعله في الأرض يهلك به أهلها، أم لرشد

ينزله فيها فيفضل به على سكانها، والشر فهو: العذاب والبلاء، والرشد فهو: الخير والرحمة والهدى، ولعمري لقد جعل الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض كل هدى وكل خير ورخاء.

ثم رجع الخبر إلى قول النفر الذين صُرفوا من الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله فاستمعوا منه وذهبوا إلى قومهم منذرين، فحكى قولهم وهو قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾، فأخبروا أن منهم الصالحون، والصالحون فهم: المؤمنون، وأن منهم دون ذلك، بقول: دون المؤمنين، ومن كان دون المؤمنين فهو: من الكافرين.

ثم أخبر سبحانه عن أنفسهم أنهم في الاختلاف ﴿طَرَائِقَ قِدْدًا﴾، والطرائق فهي: الألوان المختلفة، والأشياء التي هي غير متولفة، فأخبروا أنهم مختلفون في المعرفة بالله والطاعة له، فمنهم المؤمن التقي، ومنهم المنافق الردي، ومنهم الكافر الغوي، و﴿قِدْدًا﴾ فمعناها: بددا، ومعنى بددا أي: شعوبا فرقا.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ﴾، فمعنى ﴿ظَنَنَّا﴾ أي: أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾، ثبتت. ها هنا (لن)، ولم تثبت في قوله: ﴿أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (البقرة: ٢٥)، أرادوا: أنهم موقنون أنهم لن يعجزوا الله في الأرض إن استتروا بها، وكانوا تحتها وفي أكنافها، وأنهم لن يعجزوه هربا إن ذهبوا في الأرض هاربين، ومن خافته طائرين، فأقروا بقولهم ما قالوا من ذلك بقدرة الله عليهم، وأنه لا مهرب منه إلا إليه، وأنه لن يعجز الله أحد ممن في الأرض ولا ممن في السماء، لا من مقيم ولا ممن ذهب على وجهه هربا.

ثم أخبر بها كان منهم من القبول للهدى، فقال: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آلَهُدًى

﴿أَمَّا بِيَدِهِ﴾، والهدى الذي أخبروا أنهم سمعوه، فهو: كتاب الله الذي قبلوه، ومعنى ﴿أَمَّا بِيَدِهِ﴾ فهو: صدقنا به، ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ يقول: يصدق بقول ربه ووعده ووعيده، فقد آمن به حق إيمانه.

﴿فَلَا يَخَافُ يَحْشَا وَلَا رَهَقًا﴾ يقول: لا يخاف مع إيمانه بخسا، والبخس فهو: نقصان الثواب، ونقص ما جعل الله للمحسنين على إحسانهم، وقوله: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ يريد: ولا يخاف من الله إرهاقا بعذاب، ولا حكما عليه بإثم في شيء من الأسباب.

ثم قال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾، فأخبر مؤمنوا الجن أن منهم المسلمون<sup>(١)</sup> في دينهم، ومنهم القاسطون في فعلهم، فأما المسلمون فهم: المستسلمون لأمر الله القابلون له، وأما القاسطون فمعناها: العادلون بالله غيره، والعادلون فمعناها: العابدون معه سواء، والمطيعون غيره، والعاصون له، ومن العادلين المشبهون له، ومن العادلين: المجورون له، الذين عدلوه<sup>(٢)</sup> بغيره، ومعنى عدلوه أي: شبهوه ومثلوه بخلقه.

ثم أخبر مؤمنوا الجن بما أخبرهم الله تصديقا لوعده ووعيده، فقال: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا وَرَشِدًا﴾ يريد أي: فعلوا صوابا وقبلوا هدى.

﴿وَأَنَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، يقول: صاروا بفعلهم وقودا لجهنم وحطبا لها، أي: تحرقهم وتوقد بهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿تَارَا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِجَارَةُ﴾ (النجم: ٦).

(١) كذا في جميع المخطوطات برلع (المسلمون).

(٢) في (ج): عدلوا.

ثم انقضى قول مؤمني الجن، ورجع القول والخبر إلى الله ذي القدرة والطول، ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْنَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ﴾، يعني بالاستقامة: بني آدم، يقول سبحانه: لو استقاموا على الطاعة لنا، والطريقة هي: الأمر الذي افترضه الله عليهم، والطريق التي عليها أوقفهم من طاعته وعبادته، ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ﴾ يقول: أنزلنا عليهم من السماء ﴿مَاءً غَدَقًا﴾ والغدق فهو: الكثير.

ثم قال: ﴿لِنَقْتَنِيَهُمْ فِيهِ﴾، وبه، فننظر شكرهم لنا عليه، أو كفرهم لنعمنا فيه، فأخبر أنهم لو كانوا على الحق ولزموه، لرأوا من نعم الله ما لن يحصوه<sup>(١)</sup>، وأنزل عليهم من الماء ما يحيي به بلادهم، وتكثر به ثمارهم، ويزيد في أموالهم، ويوسع عليهم نعمهم، ويشيع بطونهم، كما قال سبحانه في غير هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٩٦]، فأخبر سبحانه أنه ليس بين عباده وبين كراماته إلا ما هم عليه من معاصيه، والأثرة لما لا يرضيه.

ثم قال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝﴾ ومعنى ﴿يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ هو: يترك ذكر ربه، ومعنى ﴿ذِكْرُ رَبِّهِ﴾ فهو: خوف ربه وطاعته، ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا﴾ أي: يدخله فيه، وكذلك تقول العرب: اسلك موضع كذا وكذا، أي: ادخل فيه وامضه، وتقول: اسلك الخيط في الإبرة، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ

سُورَةِ (النجم: ٣٢)، يريد: ادخلها جيبك ثم أخرجها، ومعنى ﴿صَعْدًا﴾ فهو: التعب الشديد، فشبّه الله سبحانه هذا العذاب مع غيره من العذاب بالصعد مع السهل على من سلكها، والصعد فهو: التصعيد في الجبل الشامخ الصعب المنتصب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَن أَلْمَسْتَجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٣٣)، فأخبر عز وجل أن بيوت الله ومساجده لله تبنى، وعلى طاعته تبتدى، ثم نهاهم أن يدعوا فيها غيره، ومعنى ﴿تَدْعُوا﴾ فهو: تذكر وتعبد، فأمره الله بتوحيده وإخلاص العبادة له، وأمره له صلى الله عليه وآله فهو: أمر لجميع الأمة، أمرهم الله أن يكونوا له في العبادة كذلك، وأن لا يفعلوا كما يفعل أهل الكفر والمهلك، من اليهود والنصارى الذين يشركون مع الله غيره عند اجتماعهم في كنائسهم وبيوتهم وأعيادهم وعبادتهم - بزعمهم لعنهم الله - لربهم، ويدخلون في تلك الكنائس والبيوت عبادة غير الله، وذكرهم المسيح والعزير وغير ذلك مما يأتون به ويذكرونه، في مواضعهم هذه من كفرهم.

ثم ذكر ما يكون من الكفرة الفاسقين، المحاريين لله ولرسوله عليه السلام المعاندين، عند قيام رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الله يدعو الله ويوحده، وينفي عنه كل ظلم ويزهه، من الإجماع عليه بالقيح من فعلهم، وما كادوه به من كيدهم، حتى صرف الله ذلك عنه، وسلمه برحمته صلى الله عليه وآله منه، فقال عز وجل نخبراً بعمته على عبده<sup>(١)</sup>: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قام يدعو الله ويوحده، كاد مشركوا قريش أن يكونوا عليه لبداً، ومعنى ﴿كَادُوا﴾ فهو: أرادوا وهموا ولم

(١) في جميع المخطوطات: عبده فقال، لعلها زيادة سهو.

يفعلوا إذ لم يقدرُوا، و﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: فهم يَفْشُونَهُ جميعاً معاً حتى يفعلوا بأنفسهم عليه، ويبلغوا ما أملوا فيه، من الهلكة التي صرف الله سبحانه عن نبيته تلفها، ومنعهم بعزته بلوغها، وذلك من قریش وغيرهم ممن تبهم كفراً بالله وحسداً لرسول الله صلى الله عليه وآله، فأرادوا أن يرموه بأنفسهم معاً؛ لأن يجثوه من الأرض اجثنائاً، فيستأصلوا شأفته صلى الله عليه وعلى آله استئصالاً، غضباً عليه في طاعة الله، ومشاققة وكفراً منهم بالله.

وقد قال غيرنا: إن الذين كادوا يكونون عليه لبداً، هم مؤمنوا الجن، الذين استمعوا القرآن فكادوا يفشونه ويطؤونه، محبة منهم له، وليس ذلك يصح في البيان، وليس هم إلا من ذكرنا من مشركي الإنسان، ألا تسمع كيف قال لهم إنكاراً منه لفعلهم، الذي كادوا أن يكون منهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، فدل هذا من قوله، على أنه جواب واحتجاج على كل منكر عليه في فعله، زارٍ عليه في دعاء ربه، فاحتج عليهم بها تسمع، وليس هذا جواب يصلح أن يكون لمن صدَّقه وآمن به واتبعه، وهذا فلا يغني عن قراءة الآية، على ذي معرفة، وعقل وتبصرة، وتمييز بين الأمور، ووقوف على الخير والشرور.

وقوله: ﴿أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: أسأله، وأخلص الديانة له، وقوله: ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ يريد: لا أشرك معه <sup>(١)</sup> في دعائي وتعبدي له أحداً، ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ معناها: لا أقدر لكم أيها المنكرون عليّ في عبادة ربي ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، يقول: لو كنت

(١) في (ج): به.

أملك لكم ضرا لضرتكم، ولكن الضار المرشد الذي هو ربي وربكم، ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ يقول: لو عَنَدْتُ عن دينه وأطعت غيره، لم أجد من دونه من يجيرني منه، فكيف أعدل عنه كما عدلتُم؟! إذا هلكت كما هلكتم!! ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا﴾ يقول: إذا لم أكن أجد من دونه ملجأ ولا مفرا ولا ملتحدا ألتحد فيه، ومعنى ﴿مُلْتَحِذًا﴾ فهو: موضعا ومستندا ومكانا يلجأ إليه مَنْ عَنَدَ من ذلك ما تقول العرب: ألحد اللحد للميت، أي: اجعل له موضعا يلجأ إليه، وينحاز عن مراكم<sup>(١)</sup> التراب فيه، أي: ينحاز عن التراب إليه، ويهرب منه فيه، ويتحجر به عنه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْكَبُ هَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النمل: ١٠٣)، فقال: ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يريد: يسندون إليه، ويزعمون أن محمدا مسند إليه متعلم منه، ملتجئ إليه في أمره.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾، يريد سبحانه: أنك لا تجد ملتحدا ولا ملجأ من الله ولا خلاصا يخلصك من عذابه، ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ يريد بقوله: ﴿بَلَاغًا﴾ إلا تبليغك عن الله رسالته، وصبرا على أمره، ومضيا على طاعته، واصطبارا على حكمه، فإن هذه الأشياء هي البلاغ من الله، إذا فعلته فهو: المجير لك من عذاب الله، والملتحد: الذي يلتحد إليه ويلجأ من أمر الله وينجي من عذابه، ولن ينجيك غير طاعة الله من عذابه.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ فأخبر سبحانه أن من يعص الله ورسوله فإن الله قد جعل مأواه جهنم، ومعنى ﴿لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أنها له قرار ومنزل، ومعنى ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾

(١) سقط من (ب): مراكم.

فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: فهم مقيمون فيها أبدا، ومعنى ﴿أَبَدًا﴾ فهو: دائم سرمد، لا غاية له ولا أمد.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، يقول: حتى إذا عابنوا وأبصروا ما كانوا يوعدون، من الوعيد الذي كانوا به يكذبون، وهو العقاب والحساب الذي به يجزون.

ثم قال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾، يقول سبحانه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ أي: فسبرون ويصرون ويوقنون ويعرفون، ﴿مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا﴾ أهم أم محمد صلى الله عليه وعلى آله؟ لأن ناصرهم الشيطان، وناصر محمد الرحمن، فهذا تقرير من الله لهم، وتبيكت بضعفهم وضعف ناصرهم، وإعلام منه أنهم إنما يعبدون من ينفعهم، ويطيحون من يضرهم إن أراد ضررهم، وأنهم إنما يعبدون من هو أضعف منهم ممن يعبدون من دون ربهم، ﴿وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ يقول: أقل عاصدا له، وقائما معه، وكارها لما كره وساخطا لما سخط، أحمد صلى الله عليه وعلى آله أقل مواليا أم أنتم؟ ومحمد صلى الله عليه وآله فالموالون له الملائكة المقربون، وجميع المؤمنين من الثقلين.

وقد يحتمل أن يكون معنى الآية مثلا ضربه الله لهم، يخبرهم فيه أنه تبارك وتعالى أقوى على نصر أوليائه منهم على نصر أوليائهم، وقوله: ﴿وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ يريد: أقل جندا وأولياء، وطاعة وخداما، وأنفذ أمرا، في كل ما أراد وشاء تبارك وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلْإِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوَعَدُونَ أَمْرٌ يُجْعَلُ لَكَ رَبِّي أَمَدًا﴾، فأمره سبحانه أن يقول لهم: إنه لا يدري متى يوم القيامة، ولا كم بقي من الدهر إليها، ولا متى يكون ذلك اليوم الذي يوعدون فيه ما يوعدون من العذاب الأليم، والخلود في الهوان المقيم، أراد بذلك إعلامهم أن العلم لله وعنده، وأنه لا

يعرف أمد ذلك اليوم ولا وقته، ومعنى قوله: ﴿إِنْ أَدْرَى﴾ أي: أعلم، ومعنى ﴿أَقْرَبَ﴾ أي: أذان ما توعدون؟ ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ يقول: أم يطول ربي أمده، ويبعد كينونته وبجيته؟ علم ذلك كله عند الله، لا يعلمه سواه، ومعنى ﴿أَمَدًا﴾ فهو: طولاً وإنساء وتأخيراً، إلى أي الأوقات شاء.

﴿عَلِمَ الْغَيْبُ﴾، والغيب هو: ما غاب واستتر، واستجن فلم يظهر، ﴿وَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ يقول: لا يطلع على ما عنده من العلم أحداً، ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾، يقول: إلا من اختار لوعده وغيه، وتبليغ رسالته، فإنه يطلع ذلك الذي يختاره على ما يشاء من علم غيبه، وما يعلمه من أسباب خلقه.

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يقول سبحانه: يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظون أمره، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيعًا﴾ [ق: ١٧]، فليس رسول مرسل ولا عامل يعمل، إلا وعن يمينه وعن يساره من يحفظ عليه من بين يديه ومن خلفه ما عمل، ويحصى عليه ما فعل، وكذلك أخبر الله سبحانه أنه يجعل من بين يدي من ارتضى من خلقه حفظة يحفظون عليه، ويشهدون له بالفلاح والنجاح، والأداء والنصيحة، ومعنى ﴿رَصَدًا﴾ أي: فهم يحفظون حفظاً، ويتنظرون ما يكون من فعله، ويتربصون ما يأتي منه من التبليغ والصبر والاجتهاد، ليشهدوا له بذلك في يوم المعاد.

وقد يمكن ويكون - والله أعلم وأحكم - أن يكون معنى قوله: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ فهو: جعل من الله مع من ارتضى من التوفيق والتسديد، والمعونة والتأييد، ما يحفظه الله به من الزلل والخطأ، وغير ذلك من الأعداء، فيكون شبه ما جعل معهم من التوفيق والتسديد، بالراصد لمن يرصد من

حفظه العبيد، بل يكون ذلك من الله حفظاً هو أحوط من الراصد المتحفظ، وضرب لهم هذا مثلاً بينا ليعلموا ما حفظ الله لمن اختار من خلقه وتنبأ.

﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَتَلْعَوْا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ﴾، يقول سبحانه: ليكون منهم في التبليغ أمر وصبر وحزم وفعل، يعلم الله أنهم قد فعلوا وصبروا عليه، وصمموا فيه، من تبليغ رسالات ربهم إلى خلقه، فيقع علمه بأنهم قد فعلوا، ويكون فعلهم نافذاً بها أمروا، فهذا معنى ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَتَلْعَوْا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: فأخبار منه سبحانه أنه محيط بما لديهم، ومعنى أحاط فهو: علم وأحصى، ومعنى ﴿لَدَيْهِمْ﴾ فهو: عندهم، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (١) فمعنى ﴿أَحْصَى﴾، هو: أحاط وحفظ كل شيء يكون من الأشياء التي لا يزوده حفظها، ومعنى ﴿عَدَدًا﴾ فهو: أحصى لكل شيء وأحاط به على وجهه، حتى يكون كل شيء مثبتاً عنده حرفاً حرفاً، كما ثبت العدد في يد العاد تثبيثاً، ويعقده بيده واحداً واحداً، فأخبر سبحانه أنه محيط بما عند رسله، عالم به، وعند غير رسله، وأنه محصٍ لكل شيء يدركه من الأشياء، وإحاطته بها كما يكون إحاطة من حسب شيئاً لما يحسبه، ويبينه، ويعقده في يده ويعرفه، فَمَثَّلَ لهم سبحانه حفظه بعدد الأشياء ومعانيها، بما يعرفون من حفظ ما عُقِدَ باليد وحُسِبَ؛ لأن احفظ ما يحفظون، وأبين ما به يعرفون، حساب كل شيء ومبلغه هو بالعدد والإحصاء، والحساب والاستقصاء.





# تفسير

## سورة المزمل





## تفسير سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْزَلُ﴾، والمزمل فهو: الملتحف بلحافه، المتدثر في مضجعه، والمزمل معناها ومعنى المدثر سواء، وهذا أمر من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله هو الذي كان في ذلك <sup>(١)</sup> مزملا.

ثم قال سبحانه: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نِصْفُهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، ومعنى ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي: قم لصلواتك المفروضة عليك في الليل، ومعنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهو: دليل على وقت الصلاة، يقول سبحانه: صل إن كنت في أمر يعوقك عن صلاة العتمة إلى أن تدخل في الثلث الآخر صلاة فرضك، فإن ذلك وقت لها مع ما يكون من شاغل شغلك، الذي يعوقك عن صلواتك.

ثم قال: ﴿نِصْفُهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ يقول: أو دون النصف في أول الليل، ثم قال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يقول: أو زد على النصف إن لم يمكنك أن تصلي قبل انتصاف الليل، فصلها بعد انتصافه، وهذا فرحة من الله سبحانه لعباده، ورخصة لمن شغله شاغل لا يجده منه بدا ولا غلصا ولا مندفعا، فأخبر سبحانه أن آخر الليل وبعد نصفه وقبل نصفه، وقت لما افترض من صلاة أوله، إذا كان المؤخر لها عن أول الليل أخرها لعذر بين صحيح، من مرض فادح، أو عرض شاغل، أو خوف أو هرب، أو مصافة عدو، ولا يقدر على الصلاة مع مقارنته، وخشية فتكه وغائلته، فأخبر سبحانه أن هذه الأوقات من الليل كلها وقت لصلاة الليل المفروضة فيه،

(١) سقط من (ج): في ذلك.

وسياتي ذكر من رُخص له في ذلك في آخر هذه السورة إن شاء الله.

ثم قال: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾<sup>(١)</sup> يقول: تبينه تبيناً.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>، معنى ﴿إِنَّا﴾ فهو: نحن، ومعنى ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ أي: نُصَيِّرُ إِلَيْكَ، ونفرض عليك، ومعنى ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو: وحياً ثقيلاً، والوحي فهو: القرآن، ومعنى ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: ثَقِيلُ الْحُكْمِ، ومعنى ثَقِيلُ الْحُكْمِ أي: صعب المفترض، وكيف لا يكون فرضه صعباً؟! وحكمه على من حكم به مستصعباً؟! وفيه ترك الشهوات، ومفارقة اللذات! والصبر على التنازلات! مع ما فيه من ثقل الصلاة والصيام على أهله، ومشقة الحج على قاصده، ومفارقة كفره والأجداد والآباء الجاهلية الجهلاء، وغير ذلك من مثقلات الأشياء، المحكوم بهن في هذا القول، الذي نزله الواحد ذو الطول، على خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله.

ثم أمره سبحانه أن يفرض ذلك كله على جميع المخلوقين، ثم أخبره أن أداء فريضة الليل في أوله فهي أول أوقاته، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾<sup>(٣)</sup>، ومعنى ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ فهو: أشد تمكناً لك عند ربك وأجراً، ومعنى ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ فهي: أعدل طريقاً، وأفضل فضلاً، فحضره<sup>(٤)</sup> سبحانه على إقامة فرض صلاة الليل في أول وقتها، وجعل له العذر بها ذكر من سائر الأوقات التي فسرنا، إن عاقه أمر لم يجد عنه مدفعا كما شرحنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> يريد بذلك سبحانه بقوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: فراغاً كبيراً، ووقتها يصلح لما تريد أن تشتغل به عن

(١) في (أ): يحضه. وفي (ج): نخسه. مصحفة.

فرض صلاة ليالك في أوله، حتى لا تؤخرها إلى آخره، فنهاه صلى الله عليه وعلى آله بذلك عن تخليف صلاة العتمة إلى آخر الليل، لشغل من أشغاله، أو أمر من حوائجه، التي يمكنه أن يفعلهن في النهار، ولا يشتغل بهن عن الصلاة في أول الليل، فلم يجعل له عذرا في تأخير العشاء والعتمة عن ناشئة الليل، وهي أوله بشيء من أشغال الدنيا، وأجاز له ذلك إذا كان مريضا، أو مصافا للعدو أو مسافرا، أو غير واجد للواء، وجعل سبحانه لمن<sup>(١)</sup> نزل به شيء من ذلك ما ذكر وحدد، من تبعض الليل وقسمه وتميزه وقتا، فوجب على المؤمنين أن يميزوا بين الحالين، ويقفوا على كلتا المنزلتين، فيعملوا بهما في أوقاتها، ولا يجعلوا الحالتين حالة واحدة سواء، فإن الله سبحانه قد ميزهما، ودل عليهما أهل علمه، وفهمها أهل المعرفة، ﴿لَيْهَلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأفان: ٢٢].

ثم أمره بذكر ربه فقال: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، ومعنى ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فهو: اذكر ربك، ومعنى اذكر ربك فهو: قَدَسَ وَكَبَّرَ وَعَظَّمَ، ومعنى ﴿تَبَتَّلْ﴾ فهو: تفرغ له وانقطع إليه، واستسلم بكليتك في يديه، وتفرغ لعبادته، ونفذ أمره، وفي ذلك ما تقول العرب: فلان متبتل لله، تريد أي: متفرغ<sup>(٢)</sup> لعبادة الله، لا يشرك في خدمته مع الله أحدا، لا نفسا ولا ولدا ولا ولدا، ﴿تَبْتِيلًا﴾ فمعناها: انقطع إليه بكليتك انقطاعا بآتا ثابتا.

﴿رَبِّ الْمُنْتَرِبِ وَالْمَغْرِبِ﴾ فهو: مالك المشرق ومدبره، ومالك المغرب

(١) في (ج): لا.

(٢) في (ج): تريد متفرغ.

ومقدرة، ومصرف آياته ومُغَيِّرُهُ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، يخبر سبحانه أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه الخالق لكل شيء، وأن كل شيء مما يعبد من دونه العابدون، فباطل لا ثبات له، وأنه المعبود لا غيره، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ يقول: اجعله كافيا؛ لأن الوكيل في لسان العرب هو: الكافي، فقال سبحانه: اجعل ربك لك كافيا، واتكل عليه معنا وعاضدا.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معنى «أَصْبِرْ» هو: احتمل ولا تجزع، واثبت عند الأذى، ولا تلهع، ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معناها: على ما يفترون ويكذبون، ويقذفون ويصنعون.

﴿وَأَعِزَّهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ يقول: اعزّهم اعتزالا حسنا، أي: لا تقل كما يقولون، ولا تفحش كما يفحشون، واعزّهم وما يعبدون، فامض لما أنت فيه من حكم ربك وأعرض عن الجاهلين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ ومعنى «ذَرْنِي» أي: دعني وإياهم، وخلي وعقوبتهم، وأفردي والانتقام من المكذبين، والمكذبون فهم: المعطلون الكافرون، المنكرون لكل ما جاء من رب العالمين.

﴿أُولَٰئِكَ النَّعْمَةُ﴾ فمعنى «أُولَٰئِكَ» أي: هم أصحاب النعمة، والنعمة فهي: الملك والراحة والكفاية والتفكك، يقول: هي النعمة التي أظهرتها عليهم، وجعلتها حجة لي فيهم.

ثم قال: ﴿وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ يقول سبحانه: أنظرهم قليلا، حتى تثبت<sup>(١)</sup>

(١) في (ج): ثبت.

لك الحجة عليهم، بها أريتك من الحجج البواهر فيهم، وأريتهم من آياتي، ثم من بعد ذلك أذن لك في السيف المسلول، وأويدك من عبادي بأهل المعرفة والطول، فتضع على المكذبين سيفك بأمرنا، وتقتل من خالفك بتأييد ذكرنا، وكذلك فعل سبحانه به وبهم في عاجل الدنيا.

ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من بعد ذلك في الآخرة التي تبقى، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾، ومعنى ﴿لَدَيْنَا﴾ فهو: عندنا، ومعنى ﴿أَنْكَالًا﴾ فهو: التنكيل، بالأغلال والعذاب الويل، و﴿جَحِيمًا﴾ فهي: النار، ومعنى جحيم فهي: المجدحة لمن قاربها، ومعنى مجحة فهي: الغالبة المهلكة، من ذلك ما تقول العرب: أحجم فلان من فلان، أي: هرب منه، وعجز عنه، وتقول العرب: أحجم فلانا إذا غلبه وقهره، فسمى الله سبحانه النار جحيمًا، يلقي أهلها منها من الإجحام لهم، والأمر العظيم النازل بهم.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فهو: الزقوم، الذي ذكر الله أمره، والغصة فهي: الواقعة في الحلق، يقول: لا ينزل ولا يخرج بل يغص به صاحبه، ويقف في حلق آكله، وهو أشد ما يكون على الأكلين، إذا وقف طعامهم في حلقهم، فلا ينحدر مستفلا نازلا، ولا يرتفع صعدا خارجا، بل يكون غصة في الحلق ثابتة، وبلية فيه نابتة، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، يقول: عذابا شديدا، دائما عتيدا.

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، فأخبر سبحانه أن هذا الطعام والعذاب يكون بأهله في يوم ترجف الأرض والجبال، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، وحين الحسرة والندامة، ورجوف الأرض والجبال فهو: زعزعتها وحركتها، لما يريد الله سبحانه من إهلاكها بذهابها.

﴿وَكَاَنَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَّهِيلًا﴾ يقول: صارت الجبال بعد ما هي عليه من انققادها، ويس صخرها وحجارتها كثيبا مهيلًا، والكثيب فهو: الرمل، والمهيل فهو: المنهال الذي لا يمسك بعضه بعضًا، فذكر سبحانه أن الجبال تصير بعد ما هي عليه منها لا رملا، ثم تصير من بعد ذلك كالعهن المنفوش، فناء وذهابا.

ثم احتج على هؤلاء المكذبين أصحاب القصة والعذاب الأليم، بما أرسل إليهم من الرسل المكرمين، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، يريد سبحانه: إنا أرسلنا إليكم رسولا لتؤمنوا به وتتبعوه، فكفرتهم ولم تسلموا، فكان شاهدا عليكم بفعله، قائلا بالحق غدا عليكم بحجته. ثم أخبر أنه صلى الله عليه وعلى آله في التبليغ إليهم والأداء، كموسى صلى الله عليه الذي هم به مقرون، أنه كان رسولا إلى فرعون، فأخبره أن سيبله عليه السلام كسبيل موسى عليه السلام في فرعون، وأنه <sup>(١)</sup> ينزل بهم من العذاب على العصيان لمحمد صلى الله عليه وآله ما نزل بفرعون في عصيانه لموسى عليه السلام، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَعَصَىٰ قِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، يقول: عذبناه عذابا وبيلًا، والوبيل فهو: الشديد الثقيل.

ثم قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تعتذرون وتخافون وتتقون ربكم غدا في هذا اليوم الذي يشيب فيه الولدان؟! فهو: يوم القيامة، ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ اليوم في دنياكم التي هي دار عمل وبلاء، والآخرة دار ثواب جزاء، يريد سبحانه بهذا القول: أن من كفر في هذه الدنيا لم يكن ليؤمن في الآخرة، ولا يجد إلى ذلك سبيلا،

(١) في (ل) و (ج): أنه.

فدلهم جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، على أن العمل في الدنيا دون الآخرة، وأن الآخرة دار الجزاء دون الدنيا، فإنه لا عمل إلا في الدنيا، وأنه من كفر في الدنيا لم يؤمن ويتق في الآخرة، وهو اليوم الذي يجعل الولدان شيبا، ومعنى ﴿يَجْعَلُ آلَ لَدُنَّ شَيْبًا﴾ لما ينزل بهم من هوله، وعظيم ما يعاينون من أمره، فتشيب رؤوسهم من فزعه، وتشمط<sup>(١)</sup> من مدلهيات عجائبه.

﴿الْأَسْمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾، يقول سبحانه: إن السماء تنفطر فيه، فقامت ﴿بِهِ﴾ مقام (فيه)؛ لأنها من حروف الصفات، وبعضها يخلف بعضها، فأراد سبحانه أن السماء تنفطر في ذلك اليوم الذي جعل الولدان شيبا، وهو يوم القيامة، وانفطارها فهو: ذهابها وتقطعها وانقضاؤها، وقوله: ﴿مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾ فهي: لغة لبعض العرب تطرح الماء من المؤنث، فخرج الاسم مذكرا، تدعو كل مؤنث مذكرا، وهي في طبي خاصة، ثم لغيرهم عامة، ألا تسمع كيف يقول: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾، يريد: أن كل وعد وعد الله، أو وعيد كفلق الصبح، وكائن غير خلف من انفطار السماء وعذاب المعذنين.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، يريد: أن هذه الأقاويل التي نقولها، والوعد والوعيد الذي نشرحه، هو تذكرة للعالمين، وتنبيه لجميع المخلوقين، ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ قَبْلَ ذلك وخافه، ف﴿اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ قبل وقوعه أي: قبل وقوع ذلك اليوم، ﴿سَبِيلًا﴾ والسبيل فهي: الوسيلة والطريق بما يكون منه، من طاعة لربه، في أيام حياته، وقبل مواعاة وفاته.

(١) في (أ): تشمط. والشمط: الخلط. وكل لونين اختلطا فهما شमित. والشمط في الشر: اختلاعه بلونين من سواد وبياض. والشمط: الشيب. لسان العرب، مادة شمط.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر أوقات الصلاة المذكورة، التي ذكرها في أول السورة، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ اللَّيْلِ مَعَكَ﴾، فأخبر سبحانه أنه يعلم أوقات قيامه عند وقت ضرورته، وعندما يكون منه ومن المؤمنين من الأمور التي تمنعهم من أداء الفرض في أول الليل، من ذلك ما ذكر عنه صلى الله عليه وآله من صلاة العشاء والعمرة بمكة، وقد غربت الشمس بسرف من بر الظهران<sup>(١)</sup>، وذلك لما فيه من شغل السفر، ومعنى ﴿طَائِفَةٌ﴾ فهي: جماعة عن معك، وقوله: ﴿طَائِفَةٌ﴾ فهي: تدل على ما قلنا به من أوقات الصلاة، لأهل العلات؛ لأنه قال: ﴿طَائِفَةٌ﴾ ولم يقل كل من معك، فدل على أن من كان ذا مرض أو خوف، أو ذا سفر أو حرب، معذور في تأخير صلاة أول الليل إلى بعضه.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُّحْصُوهُ فَتَبَّ عَلَىٰكُمْ﴾ يريد ﴿تُحْصُوهُ﴾ أي: تثبتوه<sup>(٢)</sup> على وقت واحد، وتحيطوا به دون سائر الأوقات، فعلم سبحانه أنهم كلهم لن يقدروا على أداء الفرض في وقت واحد، مع ما فيهم من العلات التي ذكرنا ووصفنا، فمنهم عليل، ومنهم مسافر، ومنهم خائف، ومنهم آمن، فالأمن يصلي في أول الليل، وطالب الماء يصلي إذا وجد الماء في أي أجزاء الليل وجده، وخائف يصلي عند انقضاء خوفه في نصف الليل أو آخره، ومريض يؤدي ما

(١) قال في جامع الأحكام للقرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ لَيَالِيَهُ يَتَزَلَّهُ الْأَكْثَرُ...﴾. من سورة الإسراء: أخرجه الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكتدي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يصل المغرب حتى أتى رف، وذلك تسعة أميال.

(٢) في (ب): أي: تثبتوا. وسقط من (ج): أي.

فرض الله عليه في وقت إفاقة في آخر ليله، وفي نصفه أو في أوله أو في ثلثه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنْ لَّنْ تَحْصُوهُ﴾، يقول سبحانه: علم أنكم كلكم لن تقدروا على إحصاء وقت واحد والثبوت عليه، لما فيكم من هذه الأسباب العارضة لكم فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: هَوَّنَ عليكم وَرَخَّصَ لكم ولم يجعل في ذلك عليكم حرجاً، ولم يلجئكم فيه إلى شدة من الملجأ، فيكلفكم فوق طاقتكم، في أن يجعل الوقت واحداً لصلاتكم، فيكون في ذلك شدة واستقصاء، على من كان في حالة واحدة مما ذكرنا من الشدة والبلاء.

ثم أمرهم سبحانه أن يقرأوا في صلاتهم ما تيسر من القرآن، من قليل أو كثير على قدر طاقتهم، وتصرف أحوالهم، ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [فجعل قليل القرآن مجزياً، لمن كان لصلاته مؤدياً، ولم يشدد عليهم في شيء من أمورهم، ولم يخرجهم في حدود منه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه فيما ذكرنا من حالات المسلمين والوان عللهم، حين يقول سبحانه: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾، فذكر ما ذكرنا من المرضى، ثم قال: ﴿وَأَخْرُونَ يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَغَوْنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ فذكر الذين شرحنا من المسافرين، والضاربين في أرض الله المتوجهين، ثم قال: ﴿وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فذكر الذين ذكرناهم، ووصفت بالقتال الذين وصفناهم، بالمصافة لعدو الرحمن، والمحاربة لمن حارب الدين والقرآن، فدل بذلك على أنه سبحانه لم يجعل أهل هذه الصفات على وقت واحد، ولم يضيق عليهم في ذلك الواحد الماجد، لما علم من عجزهم، مع ما هم فيه من شغلهم، عن مثابرتهم عن وقت واحد دون غيره، من أوقات الليل الموقتات، اللواتي في هذه السورة مذكورات موصوفات.

ولإنا موضع ذكر ما ذكر الله من قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى

وَالْآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٠٠﴾ مُقَدِّمٌ غَيْرُ أَنَّهُ آخِرُهُ إِلَى هَاهُنَا، وَمَوْضِعُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، مَعْنَاهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾ ﴿١٠١﴾ فَمَّا أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٢﴾ نَصْفُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿١٠٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿١٠٤﴾ ... عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٠٥﴾، فَهَاهُنَا مَوْضِعُ ذِكْرِ الْأَحْرَفِ؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ مَا جَعَلَ مِنَ الرِّخْصَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ لَصَلَاةِ فَرِيضَةِ اللَّيْلِ مِنَ الْعِشَاءِ وَالْعَتَمَةِ، فَسَمِيَ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ مِنَ اللَّيْلِ لِمَنْ كَانَ مِنَ الْمَرْضَى وَالْمَسَافِرِ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَكَذَلِكَ مِنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْمَغْمَى عَلَيْهِ وَالْخَائِفُ وَالْمَشْغُولُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، يَخْشَى مِنْ تَرْكِهِ بَعْضَ الْفَسَادِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَرْجُو تَنْفِيذَهُ وَأَثَرَتَهُ نَجَاحًا فِي صَلَاحِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ سَوْيٍ <sup>(١)</sup> سَالِمٍ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنْ يَخْلَفَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ وَالْعَتَمَةِ عَنْ نَاشِئَةِ اللَّيْلِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلَهَا وَجَعَلَهَا وَقْتُاً لَصَلَاةِ أَهْلِ السَّلَامَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ التَّيْسِيرِ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكَ التَّعْسِيرَ فِي شَيْءٍ مِنْ فُرُوضِهِمْ، فَقَالَ سَبَّحَانَهُ، وَجَلَّ عَنْ كُلِّ شَأْنٍ شَأْنُهُ: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ لَهُمْ، وَأَنْ يَقِيمُوا مَا افْتَرَضَ مِنْ صَلَاتِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَمَعْنَى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، فَهُوَ: أَقِيمُوا حُدُودَهَا وَأَوْقَاتَهَا، وَأَتُوا رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَمَا أَمَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فِيهَا، مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ الرَّحْمَنِ، مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَكْبِيرٍ، وَتَهْلِيلٍ وَتَوْقِيرٍ، فَمَنْ أَدَّى هَذِهِ الشُّرُوطَ فِي الصَّلَوَاتِ، فَقَدْ أَقَامَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حُدُودِهَا الْمَفْرُوضَاتِ، وَمَعْنَى ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، فَهُوَ: أَدَاؤُ الزَّكَاةِ،

(١) سقط من (ج): سوي.

وادفعوها إلى أهلها وسلموها، ومعنى ﴿الزَّكَاةَ﴾ فهو: ما جعل الله من أداء عفو أموالهم، فسمى الله ذلك وإخراجه منهم تزكية وتطهرة لهم، فجعل من أدى ذلك زاكيا، وسماه لئله مزكيا، وإنما سمي ذلك زكاة؛ لأنه يزكي الأبدان، وتزكية الأبدان فهو: تطهرتها من الغلول والعصيان، وما نهى الله من حبسها جميع كل إنسان، فكان تسليمها لله طاعة، وكانت طاعة الله في ذلك تزكية لمن فعله وتطهرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ومعنى قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ فهو: أسلفوا الله، أي: افعلوا الله ما تثابون عليه، وتعطون من الثواب الجزيل فيه، وإنما سماه الله قرضا وسلفا؛ لما أن كان سبحانه لمن فعل ذلك مجازيا [مضعفا]، فجاز أن يسميه سلفا وقرضا؛ إذ كان منه الجزاء لفاعله حكما وقرضا، فشبهه بالسلف الذي لا بد من قضائه، وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه، فعلى هذا جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفا؛ إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصدا ومضاعفا، وكان حكمه بالمكافأة لهم في ذلك ماضيا.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول سبحانه: ما تعطوا وتحرجوا، وتنفقوا في سبيل الله وتسلفوا، تجدوا عند الله ثوابه والمكافأة عليه، والمجازاة منه سبحانه فيه، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾، فأخبر عز وجل أن جزاء ذلك أن لا يكون لغيرهم، وأن منفعة ما ينفقون في أمر الله لا يكون إلا لهم، وأنهم سيجدون ثواب ذلك وأجره عند الله موفرا لهم.

والخير الذي قال الله: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾، يعني بقوله: ﴿خَيْرًا﴾ أي: تقدمته لأنفسكم إلى الله، خير من إمساكه عن الإنفاق في طاعة الله، ﴿وَأَعْظَمَ

أَجْرًا» يقول: أحسن ثوابا في عاقبته لكم، وأجزل حظا فيما ترجون من عائدته عليكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأمر الخلق بالاستغفار لله، ومعنى ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾ فهو: توبوا وارجعوا، وهو أمر من الله الغفار، بإخلاص التوبة إلى ذي الجلال والإكرام، بالقول والعمل، لا بالقول دون العمل، فبين لهم سبحانه أن الاستغفار لا يكون بالقول المقول، دون العمل المعمول، وأنه بالعمل والقول، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن الله تواب على من تاب، غفور لمن أناب، رحيم لمن راجع وأجاب، ثم رجع، وعن المعاصي لله سبحانه نزع، وأمره سبحانه في كل حال اتباع، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْتَهِ لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].





# تفسير سورة المدثر





## تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، المنادى هاهنا والمناجى: محمد صلى الله عليه وعلى آله، والناجاة فهي: النداء، والمدثر فهو: الملتحف، والإلتحاف فهو: طرح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه.

﴿قَدْ أَفْكَرْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾، فالأمور بالقيام فهو: رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى «أفكر» أي: بُلِّغ وأخبر، وتقدم إليهم وأدّ الحجة التي أُمِرَتْ بأدائها، وبسبب تذّكر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أن الوليد بن المغيرة المخزومي لعنه الله جمع قريشا إلى دار الندوة، ثم قال: يا معشر قريش إن هذا الإنسان قد ادّعا ما ادّعا، والعرب تغد عليكم، وتأتي بلدكم، فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم فيقول شيئا، ويسأل آخر فيقول له شيئا آخر، فاشتوروا وأجمعوا له أمركم وكلمتكم، حتى يكون قولكم فيه قولا واحدا، فما تقولون إنه؟ فقال بعضهم: مجنون، فعبس في وجهه، ثم قال: ليس هذا بقول، وليس هو وأبيكم بمجنون، فقال بعضهم: شاعر، فقطب في وجهه أيضا، وقال: ليس هذا بشاعر، قد صغنا الشعر وقلناه، فليس هذا على مجراه، فقالوا: [كاهن، قال:] ولا بكاهن، ليس يغبي على العرب الكاهن، فقال بعضهم: ساحر، فقال لهم: وما الساحر؟ وما يعمل؟ فقالوا: يفعل فعلا يفرق به بين المرء وزوجته، ويحبب المبغض، ويبغض الحبيب، فقال: هذا إذا قد والله يفعل محمد ذلك، فأجمعوا كلمتكم على أنه ساحر، فخرجت قريش من دار الندوة فلم يلتق أحد منهم رسول الله عليه السلام إلا قال: يا ساحر، فاشتد ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله، فخرج حتى أتى منزله فطرح نفسه، وتذّكر بلحاله من شدة الغم، وما

نزل به لقولهم من المم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَتْلِيهَا أَلَمْدَقِرُ﴾: فَمَقْدَرُ ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ﴾ ﴿وَلِيَابِكَ قَطَطٌ﴾.

معنى ﴿رَبُّكَ﴾ أي: إلهك وخالقك ومالكك الذي لا خالق لك غيره، ولا مالك لك سواه، ومعنى ﴿كَبِيرٌ﴾ فهو: عَظُمُ بالطاعة، وأَجَلٌ وَقُدُسٌ، وقل ما هو أهله، وما هو يستحقه سبحانه ويستأمله. ﴿وَلِيَابِكَ﴾ فهي: هذه الثياب الملبوسة المعروفة باسمها، المفهوم: مة بذكرها، ومعنى تطهيرها فهو: غسلها من رجس المشركين ولمسهم ومداناتهم.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، والرجز هو: كل نجس معلوم، من وثن أو صنم أو شيء محرم مفهوم م، وما كانوا يستجيزون، ويأتون ويفعلون، من أكل الميتة وغيرها، التي هي في التحريم مثلها، ومعنى ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي: اعتزل ولا تقرب ولا تتبع.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾، معناه: لا تمن بشيء تفعله، ولا بجميل تصنعه، إلى أحد من العالمين، لا من المسلمين ولا من المشركين، ومعنى ﴿تَسْتَكْبِرُ﴾ فهو: تكثر قول ذلك وذكره وتعريفهم به، وقوله هذا فادب من الله لنبئه صلى الله عليه وعلى آله، وهداية منه له إلى أعظم الأمور وأجسمها، وأشرفها في الأحداث وأفخرها، من ترك المن لما يولي، والإعراض عن ذكر ما يعطي.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، يقول: فاصبر على ما تلقى في الله من البلاء، وتقاسي من الكفرة من الأذى، فاصبر عليهم واجعل صبرك لله في مقاساتك منهم بحكمه، واعترافاً له سبحانه بأمره.

﴿فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ﴾، فالناقور فهو: علامة من الله يجعلها في يوم الدين، تكون ظاهرة في موضع حشر العالمين، تظهر علامتها، وتسقط عالية آياتها، يستدل

الخلق أجمعون بها على الموضع الذي يقصدون، من موضع الحشر الذي إليه يساقون، فيكون قصدهم، إلى تلك العلامة التي جعلت لهم.

وقد يمكن أن تكون هذه العلامة التي سهاها الله الناقور، نورا يسطع في ذلك الموضع ويلمع، فيكون ذلك علامة لموضع الجمع.

ويمكن أن تكون تلك العلامة أصواتا من دعاة من الملائكة، يدعون الناس إلى ذلك المكان فينتظر الناس موضع الحشر بذلك الدعاء فيقصدونه معا.

ويمكن أن يكون علامة بالتهليل والتكبير، والتقديس لله والتوقير، يسمعه الخلق أجمعون، فيؤمنونه كلهم أكتعون.

فأما قول من يقول: إن الناقور بوق أو شبه البوق، وينفخ فيه ليجتمع الناس كلهم إليه، فليس ذلك عندنا بشيء تصححه عقولنا، وليس الناقور - والله أعلم وأحكم - إلا علامة عظيمة، يجعلها الله العلي الأعظم في ذلك اليوم، ولن تكون هذه العلامة إلا بأمر عظيم من صنف ما ذكرنا من بعض ما شرحنا من النور الساطع العظيم اللامع، أو الصوت بالدعاء والتكبير والتهليل والتحميد والتقديس والتمجيد الذي يسمعه كل سامع.

ثم ذكر سبحانه ذلك اليوم الذي ينقر فيه الناقور، ومعنى ينقر فهو: ينتقر، ومعنى ينتقر فهو: يستدل عليه ويخبر، ألا تسمع كيف تقول العرب لمن استدل على شيء وعرفه، ووقع عليه وعلمه: انتقر فلان كذا وكذا، أي: عَرَفَهُ واعتدى إليه، ووقع بالفطنة منه عليه، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ۖ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۖ﴾، ومعنى ﴿ذَلِكَ﴾ فهو: كذلك، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو: اليوم الذي يكون فيه الناقور، ومعنى ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فالعسير هو: الشديد الذي لا فرح فيه، ولا راحة لديه.

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (١)، والكافرون هم: الكافرون بنعم الله المكذبون، ومعنى كفرهم لنعم الله فهو: قلة شكرهم لله على ما أعطاهم، من بعثة البشير النذير إليهم، وهم أهل المعاصي لله من المشركين، الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن الثقلين، ومعنى ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (٢) فمعنى ﴿ غَيْرٌ ﴾ هو: ليس، ومعنى ﴿ يَسِيرٌ ﴾ أي: ليس بسهل ولا صغير، فأخبر سبحانه أن ذلك اليوم يوم شديد عسير، على أعدائه ليس بسهل ولا صغير.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (٣) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (٤) وَبَنِينَ شُهُودًا (٥)، معنى ﴿ ذَرْنِي ﴾ أي: دعني وأخبرني، واعلم أني في ذلك كاف مغن، ﴿ وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ أي: أوجدت وفطرت، ﴿ وَحِيدًا ﴾ فهو: فرداً فريداً، وقد قيل: إنه اسم للوليد بن المغيرة (٦)، وكان يعرف به، فقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وعلى آله: ذرني وهذا الذي اجتراً علي فكذب بي، فسأذيقه على ذلك أشد عذابي.

ثم أخبر سبحانه بما جعل له من المال الممدود، والممدود فهو: الكثير الواسع، وما جعل له من البنين، والبنون فهم: الذكران المعروفون، و﴿ شُهُودًا ﴾ فمعنى ﴿ شُهُودًا ﴾ أي: حاضرين معه، شاهدين غير مفارقين لجماعته، بل هم شهود معه، والشهود فهم: الحضور الذين لم تنأ بهم دار، ولا تبعد منهم الأخبار، فهم سكان معه في الدار.

(١) أخرجه عبد بن حيد، عن قتادة ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾، قال: هو الوليد بن المغيرة...

وأخرجه ابن مردويه، عن ابن عباس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد. الدر

المشور ٣٢٩/٨.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ١٠٠، بمعنى «تَمْهِيدًا» هو: وطئت وجعلت له بالنعمة التي أعطيتها إياها مهذا يمهد عليها، ويتقلب بفضلها عليه فيها، ومعنى «تَمْهِيدًا» فهو: عطاءً منا له جزيلًا.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَظْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ١٠١، يقول: أيطمع بعدما أعطيته أن أزيده على ما أوليته، وهو مقيم على كفر نعمتي، معتصم بالشرك بي.

﴿كَأَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا﴾ ١٠٢ يريد: بـ «كَأَلَّا» أي: أني لا أفعل ذلك أبدا، ولا أزيده في النعيم شيئا، «إِنَّهُ كَانَ» معنى «إِنَّهُ كَانَ» معناها: أنه لم يزل لآياتنا عنيدا، يقول: لأحكامنا وما يظهر من غائب آياتنا، وبواهر دلائلنا، «عَنِيدًا» والعنيد فهو: المعاند، والمعاند فهو: المضاد المكابر، المعارض بباطله ما يظهر من حق خالقه.

ثم أوعده على ذلك بما ذكر من العذاب، فقال سبحانه: ﴿سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ ١٠٣ ومعنى «سَأَرْهِقُهُ» أي: سأوقع به وأنزل، وأحل به وأجعل، ومعنى «صَعُودًا» أي: أمرا شديدا، وعذابا مهلكا متعبا، فشبه سبحانه ما ينزل به من العذاب الشديد لشدة، وهو ما أعد له من نقمته، بالصعود؛ لأن أشد<sup>(١)</sup> ما يعرف الإنسان في مسالكه، ومذاهبه وطرقه، ما كان مصعدا فيه من الجبال الشاخغة، التي تكون الطرق فيها متعلقة مرتفعة، فذلك أشد مسالك الناس وأصعب ما يسلكونه من سبلهم، فأخبر الله أن عذاب هذا الذي يدعا بالوحيد مع عذاب غيره كالصعود مع السهل، وأن عذابه له فضل في النار على كل عذاب، كما للصعود في الشدة والتعب على السهل.

(١) في (ج): أشق.

ثم قال: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٠٠﴾، يريد بـ ﴿فَكَّرَ﴾ أي: تفكر، ﴿وَقَدَّرَ﴾ فهو: لما كان من فكرته، فيما يجعل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكذب، ﴿وَقَدَّرَ﴾ فهو: ما كان يقدر عليه، ويهيئ له ويحتال به عليه، ويسوى حتى جعل عليه ما جعل من الأمر، ولطخه بها لطخه به من ذكر السحر، الذي قد برأه الله وطهره، ورفع عنه سبحانه وكبره.

ثم قال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿١٠١﴾، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ فهو: لعن، ثم قال: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿١٠٢﴾ يريد: على ما قدر، و ﴿قَدَّرَ﴾ فهو: ما ذكرنا من تفكيره وتقديره.

ثم كرر اللعن فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿١٠٣﴾، يريد: لعن على ما كان قدر.

ثم قال سبحانه مخبراً بما كان من فعله في دار الندوة، وعبوسه في وجوه من كان يقول: مجنون وشاعر وكاهن، ويُسوره لهم، فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ﴿١٠٤﴾ يريد: بـ ﴿عَبَسَ﴾ أي: قَطَّبَ بين عينيه، وأنكر قول من قال بالجنون عليه، ﴿وَبَسَرَ﴾ فمعتناه: دفعه وأقصاه، عن القول بما قال به عليه ورماء، من قوله: ليس هو بشاعر، ولا مجنون ولكنه ساحر، وحاشى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، وقد نزهه الله أن يكون كذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ﴿١٠٥﴾ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْفَرُ ﴿١٠٦﴾، إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿١٠٧﴾، معنى ﴿أَدْبَرَ﴾ أي: تولى عن الحق، وتعلق بالكذب والفسق، ومعنى ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ أي: تجبر وتكبر، ثم قال لعنه الله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْفَرُ﴾ ﴿١٠٨﴾، أي: يتلى ويذكر، يقول: ما يأتي به محمد صلى الله عليه وعلى آله ويذكره، إلا سحر رواه وتعلَّمه، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿١٠٩﴾، ما هذا الذي مع محمد من قول الله، وما هو إلا قول البشر، والبشر فهم: الناس.

ثم قال سبحانه: ﴿سَاصِلِيهِ سَقَرٌ﴾ ﴿١٥﴾ فمعنى قوله: ﴿سَاصِلِيهِ﴾ يريد: ساذنيه منها وأولجه فيها، حتى يصلى بدنه حرها، ويقع به حريقها وأكلها، ويباشره بحمومها وحرها، فلا يكون له فيها ستر يستره، ولا حجاب يحجزه، و ﴿سَقَرٌ﴾ فهي: بعيدة القعر، العظيمة الأمر، البعيدة المهوى، الكثيرة الأذى والبلاء، وهو اسم من أسماء جهنم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَذْرَنِكَ مَا سَقَرُ﴾ ﴿١٦﴾، يقول سبحانه: وما أعلمك ما سقر، وكيف هي؟ وما أمرها؟ وما هي على حقيقة العلم؟

ثم يبين سبحانه بعض صفاتها، وما هي عليه من حالاتها، فقال: ﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿١٧﴾، معنى ﴿لَا تَبْقَى﴾ أي: لا تبقى في عذاب من صار إليها، ولا تنكسر من ولج فيها، و﴿لَا تَذَرُ﴾ معناه: لا تذر أحدا من أهل الوعيد إلا ضمته وصيرته فيها، وأحرقتة وحقت وعيد الله له فأهلكته.

﴿لَوْاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ ﴿١٨﴾، واللواحة فهي: المحرقة المغيّرة التي قد غيرت أبدانهم ببلائها، وغيرت خلقهم بإحراقها، ولوحتهم بعذابها، وقوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ فهم: من كان فيها من الفاسقين، وصار إليها من الفاجرين.

ثم ذكر سبحانه خزنتها وعددهم، ووصف بعض حالهم وأمرهم، فقال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ لَاحٍ﴾، فقد يمكن - والله أعلم - من أن يكون هؤلاء التسعة العشر هم الخزنة المأمورون بحفظها، وحفظ من فيها، الأمرون والناهون في أمرها.

ويمكن أن يكون تسعة عشر لافاً، أو تسعة عشر صنفاً، من الملائكة المقربين، المؤمنین بأمر الله المكرمين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾، فأخبر سبحانه أن هذه التسعة عشر ملائكة، وأن خزنتها من الملائكة المؤمنين، البررة المكرمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ يعني: عددهم ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والفتنة هاهنا فهي: الاختبار والبلوى، بما يكون منهم من الجحudan في ذلك والإفتراء، لأنهم كانوا بما أتاهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من خبر النار وأهلها وخزنتها مكذبين، وبه صلى الله عليه وعلى آله في ذلك كله غير مصدقين، وكانوا يمحذون أمرها، ويكذبون خبرها، فلما جحدوا أمرها كانوا أشد جحدا لخزائنها وعددهم، وأشد ملاكة فيها ذكر الله عز وجل من أمرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هاهنا فهم: الذين أسلموا من أهل الكتاب، والكتاب فهو: التوراة، فأخبر أن من آمن بالله من أهل الكتاب وصدق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وآمن بآياته، فهو: مستيقن بذلك، والاستيقان منهم فهو: تحقيق العلم والإقرار بما جاء من ذكر الخزانة وعددهم، ومعنى يستيقنوا فهو: يؤمنوا ويوقنوا، ﴿وَيَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ معنى يزداد فهو: ازديادهم في الإيمان بتصديقهم، لما ذكر الله من عدد خزان النار لهم، فلما أن كانوا بكل ما ذكر الله وأخبر مصدقين، وبما قال غير مكذبين، كانوا في كل ما صدقوا به من أمر حادث من الله في الإيمان مزادين بتصديقهم، بخبر الله وإقرارهم ومعرفتهم بصدقه وإيقانهم، فهذا معنى ﴿وَيَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾.

ثم رجع في ذكر مؤمني أهل الكتاب ومؤمني العرب، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول سبحانه: إنا إنما ذكرنا من عدة أهل النار التي شرحنا لكم، ليستيقن مؤمنوا أهل الكتاب من الإسرائيليين ومؤمنوا العرب أنه الحق، فيكون ذلك فضيلة لهم من ربهم، وجزاء على ما كان من إيقانهم، مما ذكر الله

في الكتاب المبين، من عدة خزان النار من الملائكة المقربين، ﴿وَلَا يَرْتَابُ﴾ يقول: لا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في صدق قولنا، وكيونة وعدنا ووعدنا.

ثم ذكر قول المنافقين في ذلك الذين في قلوبهم مرض من دينهم، والمرض فهو: الشك والإرتياب، وقلة الإخلاص لرب الأرباب، وكذلك حكى عز وجل في القول عن الكافرين، فقال سبحانه: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ومعنى قولهم: ﴿مَا﴾ أي: فهو: الذي، لأن الذي يقوم مقام ما، وما يقوم مقام الذي، فأرادوا - عليهم لعنة الله - بقولهم هذا أن الذي أراد الله بذكر ما ذكر من عدة هذه الخزنة، وما شرع من أمرهم مثل مضروب، وأنه ليس بحق كائن، ولا أمر معمول باين، يقول: إن الله تبارك وتعالى إن كان حقا ما يقول محمد من أنه أوحى إليه بذلك وحيا، ونزله عليك من عنده تنزيلا، فهو: مثل وليس بحق واقع.

ثم قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ يريد بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: بذلك، ومعنى بذلك أي: بذلك القول منهم، الذي قالوا استوجبوا من الله الإضلال، والإضلال فهو: الخذلان، فلما أن قالوا ما قالوا من الباطل والمحال والكذب في كل قول أو فعال، على ذي الجلال والبطول استوجبوا منه الخذلان فخذلهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فمعنى ﴿يَشَاءُ﴾، هو: يريد، والذي شاء الله أن يضلّه فهو: من عَنَدَ عن دينه، وطعن على رسوله، والذي شاء أن يهديه فهو: من آمن به، وصدق رسله بها جاؤا به عنه، ومن عنده سبحانه وبحمده.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر خزانة النار صلوات الله عليهم، فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يريد: ما يفهم عددهم وهم الملائكة، وهم جند الله إلا ربهم الذي خلقهم من خزانة النار، ومن غيرهم من الملائكة المقربين، صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ يريد: سقر، يقول: ما ذكرنا الذي ذكرنا منها إلا تذكرة للبشر، والبشر فهم: الخلق، ومعنى تذكرة فهو: تنبيه وتذكير وإهابة وتخويف، ثم قال: ﴿كَأَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ وَالْيَلَّ إِذَا أَذْبَرَ ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ﴾، فأقسم سبحانه بالقمر والليل في إدباره.

وأما إقسام الله سبحانه بإدبار الليل، فهو: لما فيه من عجب تدبيره، من تجلي ظلامه، وتصوب نجومه، ولطائف عظمت، في ذلك من أثر صنعه، ما يطول شرحها، ويكثر لو ذكرناه ذكرها، ومعنى ﴿أَذْبَرَ﴾ فهو: تولى، وتولى فهو: ذهاب أكثره، ودنو انفجار فجره، وكذلك أقسم الله بـ ﴿الصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ﴾، و ﴿الصُّبْحَ﴾ فهو: الصباح، وقوله: ﴿أَصْفَرَ﴾ فهو: أضاء وانتشر، وفي سطوع الصبح وفجره، غاية الدليل على صانعه وربّه، لما فيه من ظهور ضوئه، في حندس الليل وظلمته، حتى ينكشف منه مدلهم الظلام، ويزيل عن الأرض منه ما كان عليها من الإدلهام، فوقع القسم من الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، على تحقيق ما أنكروا من سقر وخزائنها، وعجب ما ذكر الله سبحانه من أخبارها، فقال: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾، تَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿﴾، يقول سبحانه: إنها لإحدى عظام ما فعلنا، وجليل ما أحدثنا، مما جعلناه عبرة وتبيانا ونعمة وترغيبا، ونكالا وترهيبا، والكبر فهي:

الأمور الكبار التي جعلها الله سبحانه وفطرها، ولعمري ما من شيء أكبر هولاً، ولا أعظم أمراً، ولا أشد على الخلق خطراً، من سقر، التي لا تبقي ولا تذر، معنى ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ يقول: منها ومخوفاً، وقوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ والبشر هم: الناس أجمعون.

ثم قال سبحانه: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، يريد بقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ﴾ أي: لمن أراد منكم، ومعنى ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ أي: أن يتقدم في أهبة أمره، والتخلص من عذاب ربه، والتنجي من هذه التي هي إحدى الكبائر، التي هي بلا شك سقر، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، يقول: يتأخر عن العمل بما ينجيها منها، ويُسَوِّفُ التوبة التي هي سبب النجاة من عذابها، حتى يأتيه أجله، فينقضي عمله، فيكون بتأخره عن التوبة من الهالكين، كما كان من تقدم بالتوبة والعمل الصالح من الناجين.

ثم قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾، فأخبر عز وجل أن المتقدم والمتأخر مأخوذ بعمله، مجازي بفعله، وأن كل نفس رهينة بكسبها، وكسبها فهو: عملها، وبما قدمته في حياتها من برها ورشدها، أو غيها وفسقها وكفرها. قوله: ﴿رَهِينٌ﴾ فمعنى ﴿رَهِينٌ﴾ أي: مأخوذة مرتبته، ومعنى مرتبته أي: محبوسة بحاسبه.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، فذكر سبحانه أن كل شيء وظالم عاص متعد مأخوذ بفعله، معاقب على صنعه، ثم ميز بينهم وبين عدوهم من أهل الإيثار، فقال: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، فذكر أن أصحاب اليمين ناجون، ومن عذاب الله سالون، وأصحاب اليمين فهم: أصحاب الدين والمعرفة واليقين، ومعنى

﴿الْيَمِينِ﴾ فهو: اليمين والبركة في التقديس من الله والنعمة، لا أن تمَّ يميننا وشمالا. ثم قال: ﴿فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١﴾، فالجنات فهي: ما ذكرنا من مواضع النعمات والسرور، والغبطة والملك والحبور، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢﴾، فأخبر أن المتقين أصحاب اليمين والخير، إذ صاروا إلى دار النعيم، ومحل المؤمنين يتساءلون <sup>(١)</sup> فيما بينهم عما كانوا يعرفونه من المجرمين، وتساؤلهم فهو: تذاكرهم لهم، ولما كان في الدنيا من تجربهم وكفرهم، إيقاننا منهم بما صاروا إليه من عذاب النار، وانقلبوا إليه من سوء الدار.

ثم رجع سبحانه فذكر مساواة خزان النار لأهل النار وتقريعهم لهم، لما كان من فسقهم وكفرهم وإعراضهم عن ذكر ربهم، فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿٣﴾، حكى قول الخزنة من الملائكة البررة للفاستقين المعذبين، ومعنى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ أي: ما أوجلكم وأدخلكم في سقر، وهذا من الملائكة صلوات الله عليهم تقريع لأهل النار، وتبكيك للفجرة الكفار؛ لا أنهم جهلوا ما الذي سلكهم فيها! وصيرهم من حكم الله إليها!! وكيف يجهلون ذلك؟! وهم بحكم الله عارفون؟! وبعدها واثقون؟! وبها سلك عباده في جهنم عالمون؟!!

ثم ذكر سبحانه ما يكون من جواب أهل النار لهم، فيما عنه سألوهم، فقال: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٤﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْيَتَامَىٰ ﴿٥﴾، أي: ندفع الزكاة، فأقروا على أنفسهم بأنهم لم يكونوا يؤدون فرض الصلاة الواجبة، وأنهم لم

(١) في (ج): تساءلوا.

يكونوا يطعمون المسكين، ومعنى ﴿نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ﴾ أي: ندفع فرض الزكاة الواجبة، التي جعلها الله للعالمين نجاة، ثم قالوا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِبِينَ﴾ ومعنى ﴿وَكُنَّا﴾ فهو: أي: لم نزل، ومعنى ﴿نَخُوضُ﴾ فهو: ندخل فيما دخلوا فيه، ولم نزل على ما كانوا عليه، والخائضون فهم: العاصون الداخلون في معاصي الله، الخائضون فيما لا يرضى الله، من قول أو فعل.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾، فأقروا بما كانوا فيه في الدنيا من التكذيب يوم الدين، ومعنى ﴿نُكَذِّبُ﴾ فهو: نبطل ونجحد ولا نصدق ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، والدين فهو: الجزاء على ما كان من أفعالهم، تقول العرب: فلان يدان بفعله، أي: يجزى بفعله، وكذلك روي أنه مكتوب في التوراة (يا ابن آدم كما تدين تدان) أي: كما تُعطي تعطى. و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، فهو: وقت الدين، وهو اليوم الذي يجازى فيه العالمون، ويحشر فيه المربوبون.

﴿حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ واليقين هاهنا فهو: الموت الذي وعدوا به، ومعنى ﴿أَتَنَّا﴾ فهو: واقعنا ونزل بنا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾، يقول جل جلاله: إسم لو شفع فيهم لم تكن الشفاعة تنفعهم ﴿شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾، وإنها هذا تمثيل من الله وإعلام لعباده بكفرهم، وعظيم جرمهم، وذلك أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من الله عليهم بالعقوبة، لا أن أحدا من الأنبياء المرسلين، ولا الملائكة المقربين، صلوات الله عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد، حاش لله أن يكونوا كذلك، أو يفعلوا شيئا من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ يريد سبحانه: فما لهم كانوا في الدنيا عن التذكرة معرضين ومعنى ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ فهو: ما بالهم، ومعنى ما بالهم فهو: أي شيء كانوا عن التذكرة معرضين، والتذكرة فهي: ما ذكر الله لهم وقص عليهم، وأخبرهم به على لسان نبيه عليه السلام، مما يعاينونه في الحشر، ويوم النشر، مما كانوا به مكذبين، وعنه للعبهم معرضين، ومعرضون فهم: صادون تاركون.

ثم شبههم سبحانه بإعراضهم ونفرهم عن الحق الذي كان يتلى عليهم، بالحرر المستنفرة فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿﴾، والحرر فهي: هذه الحرر المعروفة، والمستنفرة فهي: الفرقة المرعوبة، ومعنى ﴿فَرَّتْ﴾ فهو: هربت، ومعنى ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ فهو: الأسد، فذكر الله سبحانه أن فرارهم عن الحق، ونفورهم عن الصدق، كنفور هذه الحمير من الأسد.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشُرَةً﴾ ومعنى ﴿بَلْ﴾ فهو: قد، و﴿يُرِيدُ﴾ فهو: يحب، ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ فالمرء هو: الرجل، يقول سبحانه، يريد كل رجل منهم ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشُرَةً﴾، و﴿يُؤْتَىٰ﴾ فهو: ينزل عليه ويعطى، والصحف فهي: الكتب المنشرة، والكتب المنشرة فهي: المثبتة المبينة، التي تنشر وتقرأ، ويعرف ما فيها ويتلى، فأخبر سبحانه أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله حسدا منهم له على ما آتاه ربه، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيا مرسلا، وليس ذلك لهم ولا كرامة، بل لله الأمر والقدرة والعظمة، والعزة، يعطي من يشاء نعمته، ويؤتيه كرامته، ألا تسمع كيف يقول سبحانه:

﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝ ﴾ يريد بكلا: ليس تخافون، فأخبر سبحانه أنهم لم يكونوا يخافون في الدنيا معادا ولا آخرة، والآخرة هاهنا فهو: عذابها ونكالها. ثم قال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ۝ ﴾، يقول: ليس هو بباطل، ولكنه حق، ﴿ تَذْكِرَةٌ ۝ ﴾، فالتذكرة هي التنبية والتبصرة.

ثم قال: ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۝ ﴾ يريد ﴿ مَنْ شَاءَ ۝ ﴾ أي: من أراد، ومعنى ﴿ ذَكَّرْهُ ۝ ﴾ يقول: تذكَّره فحافه، وخشيته فحذره.

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝ ﴾، يقول سبحانه: إنكم لم تكونوا تقدرون على التذكرة والتفكرة، والتمييز بين الحق والباطل، لو أن الله لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تتالون بها الفكرة والتمييز، وعقولا تصلون بها إلى التذكرة، ولكنه شاء ذلك لكم، فركبه وجعله بؤنة فيكم.

﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝ ﴾ معنى ﴿ أَهْلُ ۝ ﴾ أي: هو صاحب التقوى، ومعنى صاحب التقوى فهو: وليها والحقيق بها والمستحق لها، و﴿ التَّقْوَىٰ ۝ ﴾ فهي: المخافة من الخلق والإتقاء، و﴿ الْمَغْفِرَةِ ۝ ﴾ فهي: العيادة منه، والرحمة على عباده بالعفو بعد الغضب، وذلك ربنا الرحمن، أهل البر والتقوى والمغفرة والإحسان.

(٣٥٤) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ ﴾

[المدثر: ٣٨]؟

فمعنى قول الله سبحانه: ﴿ رَهِينَةٌ ۝ ﴾ أي: مرتبته، ومعنى مرتبته: مأخوذة،

ومعنى مأخوذة هو: مجازاة بعملها، مكافأة على فعلها. فأخبر سبحانه أن كل نفس بكسبها مأخوذة وكسبها فهو عملها، وأخذه لها سبحانه بعملها، فهو إنفاذ وعده ووعيده لها، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴿النمل: ٨٩-٩٠﴾ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿الأنعام: ١٦٠﴾.





# تفسير سورة القيامة





## تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ معناه: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرح الألف وهو يريد بها، فخرج معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب قسم، وقد تقدم شرحنا لطرح الألف وإثباتها في تفسير أول ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: ١].

معنى ﴿أُقْسِمُ﴾ أي: أحلف وأذكر، يوم القيامة فهو: يوم الحشر للعالمين، والمناقشة للمربوبين، وإنما سمي قيامة: لما يقوم فيه من الأمر العظيم المائل الجسيم، ومعنى يقوم فهو: يقع فيه، أي: يكون فيه.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ فهو: أيضا: قسم طرحت منه الألف، كأن معناها أولا: أقسم بالنفس اللوامة، والنفس اللوامة فهو: نفوس الثقلين، اللوامة فهي: النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها، ذلك أنه ليس من مؤمن ولا كافر إلا وسيلوم نفسه في يوم القيامة، فأما نفس المؤمن فتلومه أن لا يكون ازداد إيمانا وعملا؛ إذ رأت ما جعل لها على إيمانها من الجزاء والنعيم، والفوز الكريم، والملك العظيم، وأما نفس الكافر فتلومه على ما قدم من المعاصي والردى، عند معاينتها لما نزل بها من العذاب الأليم والبلاء.

وإنما أقسم الله سبحانه بيوم القيامة لما فيه من عجيب الأمور، والفصل والقضاء بالحق والإستواء، ولما فيه من عظيم الثواب لأهله، وجيليل العقاب لمستحقه، وأنه يوم عظيم الأمر، جليل الخطر، لما فيه من العدل والحق والفصل، بين جميع الخلق، فأراد سبحانه بالقسم به التنبيه على جليل ما فيه من آياته، وأخبر به من صفاته.

وكذلك أقسم باللوامة تنبيها على جليل ما قدر النفس عليه، وفطرها من الفطرة فيه، فجعلها بتقديره ساكنة في معامد الإنسان ومقاتله، يجري منها نَفْسُهُ، وتثبت بها حياته، ويكون بها طراوة<sup>(١)</sup> جسمه، ولين مفاصله، واستقامة جوارحه، فنبه الله عز وجل على هذا العجب من فعله العظيم، من صنعه في النفس بما أقسم به منها، وإنما يقسم الله تبارك وتعالى من الأشياء بكل أمر فيه تدبير، أو أثر صنع حسن أو تقدير، يكون ظاهر الشهادة بالحكمة لجاعله، قاطعا بالقدرة لفاعله، يقسم الله به تنبيها لعباده على التفكير والتذكر لما فيه من أثر صنعه، والشواهد له سبحانه برؤيته.

وقد قال بعض من يتعاطى التفسير: إن معنى قَسَمَ الله بهذه الأشياء هو قسم بجاعلها، يزعمون أنه سبحانه أراد لا أقسم برب يوم القيامة، وكذلك لا أقسم برب النفس اللوامة، وهذا عندنا ليس بشيء، وليس يقول بهذا القول من الخلق إلا أعمى جاهل، لما يريد الله بقسمه لما يقسم به من الأشياء.

ثم قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، يقول: أيظن الإنسان، أي: يتوهم أنا لن نجمع عظامه، معنى ﴿نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: نردها بعد تمزقها وبلائها، ونحييها بعد ذهابها وفنائها، والإنسان هاهنا فهو: جميع الناس الذين شكوا في ذلك من فعل الله، وأنكروه من قول الله، ممن عَدَّ عن دين الله، ولم يؤمن برسول الله من الجاهلية الجاهلاء من قريش، ومن شاركهم من العرب وغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، يقول: بل نحن على خلاف ما قالوا، ونحن قادرون على تسوية بنانه، والبنان فهو: الخلق والأسر والتأليف في الأعضاء والجعل، ونسوي فهو: نجعل ونحيي ونرد إلى القوة كل ما قد

(١) في (أ): طراوات. وفي (ب) و(ج): طراوة. ولعل الصواب ما أثبت.

بلي، من عظم أو لحم حتى نرد بنانه إلى الاستواء، بعد ما كان عليه من الخراب والفناء.

ثم قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ الإنسان هو: الناس، والإرادة فيهم هي: المشيئة، ﴿لِيَفْجُرَ﴾ أي: ليعصي ربه، ويتبع شهوة نفسه، ويسعى في لذة قلبه، ومعنى ﴿أَمَامَهُ﴾ فهو: ما بقي من عمره وحياته، يريد: أن الفاسق يريد أن يجعل باقي حياته كلها فجورا وفسقا، وعصيانا لله سبحانه وعتيا.

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ معنى ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ فأخبر سبحانه بأول أشراف يوم القيامة، فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، فأخبر أن القيامة إذا كانت هذه الشروط وعويث، فهو: يوم القيامة، ومعنى ﴿بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ فهو: شَخَصَ وَحَارَ لما يرى من هول ذلك اليوم، ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ فهو: سقط وذهب وانحل وانقضى، ومعنى ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فهو: جمعا في نفاذ الإرادة فيها، وإمضاء المشيئة في فنائها وانقضائهما، فيقول: جمعا جميعا في حكم الذهاب والفناء، وزوالهما عن مراتبهما، وجمعا في المنع لهما عن الجولان والدوران في أفلاكهما، وصارا ممنوعين مما كانا عليه، منقولين مما كانا فيه، مجتمعين في الفناء، وفي التقطع والإنقضاء، فقد انتظمهما ذلك جميعا، ونزل بهما أمر الله معا، فهذا معنى ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَنِّى لَأَمَقِرُّ﴾، يريد: أين المذهب؟ عندما يرى من البلاء، ووقوع الوعيد عليه والجزاء، والإنسان الذي يقول ما ذكر الله من قول الإنسان، فهم: أهل الكبائر والمعصيان.

﴿كَأَلَّا وَزَرًا﴾، يريد بـ ﴿كَأَلَّا﴾: إنكارا عليه لطمعه في المفر، ومعناها: لا يكون وزر، والوزر فهو: الملجأ والمفر.



﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾، والإلقاء هو: الطرح<sup>(١)</sup> والكلام للإعتذار، والمعاذير فهي: الكلام الذي لا يثبت ولا يصح لقائله صدق، فيقول سبحانه: هو عارف بنفسه، عالم بغامض أمره، وسر ضميره.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، يقول: لا تذكرن منه شيئا حتى تفهمه، ولا تعجل باللقاء شيء منه إلى الناس حتى تحكمه ونثبت تنزيله، ومعناه في قلبك، فنذكره من بعد ذلك، فإنك إن عجلت بذكر تنزيل، قبل فهم تأويل، لم تأمن أن تُسأل عن التأويل فلا تعلم ما أردنا به، فاثبت وتأن حتى نعلمك المعنيين كليهما، فإنك لا تعلم الغيب ولا تعلم إلا ما علمناك، ولا تفهم إلا ما فهمناك.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾، فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿﴾ يريد: جمع سورة في قلبه، وتمكين القرآن كله في صدره، والإيجاء به كله إليه، وتنزيله شيئا شيئا عليه، حتى يكمل القرآن كله في صدره مجتمعا، وتضمه جوانحه بالحفظ له كله معا، حتى يكون بحفظه وتأويله فهمها، وتنزيله ومعانيه عالما، فقد جمع الله ذلك كله، وثبت به سبحانه فؤاده، ومن الجمع جمع كل آية إلى سورتها، حتى تكمل السورة على حقيقتها، فتجتمع الآيات كلها إلى مواضعها، وذلك أن القرآن نزل عليه صلى الله عليه وعلى آله خمسا خمسا<sup>(٢)</sup>، فذكر الله سبحانه أنه سيجمعه له، ومعنى ﴿جَمَعَهُ﴾ فهو: تأليفه، فذكر سبحانه أن عليه تأليف الآيات بعضها إلى بعض، حتى تكمل السورة سورة سورة، فهذا معنى ﴿جَمَعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، فمعنى

(١) الطرح. قال في لسان العرب: لفا إذا تكلم بالطرح.

(٢) أخرجه الحاكم ١٦٦/٢ (٤٢١٦)، والنسائي في الكبرى ٧/٥ (٧٩٩١)، والطبراني في الكبير

٣٢/١٢ (١٢٣٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر، وابن عساكر من طريق أبي نضرة. أفاده

في الدر المنثور ٣١٦/٥.

﴿قُرْءَانُهُ﴾: تنزيله إليك وتلاوته لديك، وقراءة جبريل له عليك، حرفاً حرفاً، ويحفظك إياه شيئاً شيئاً، فهذا معنى ﴿قُرْءَانُهُ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ يقول: إذا قرأه عليك جبريل يحفظك إياه، فاتبع قراءة جبريل وتعليمه إياك، ومعنى ﴿اتَّبِعْ﴾، أي: اتبعه فيه، وقل كما يقول. واقرأ كما يقرأ، وخذ ما يعطيك، وتعلم ما يعلمك من القرآن، الذي أمرناه بتعليمك إياه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ يقول سبحانه: إن علينا تبين ما نزلناه إليك حرفاً حرفاً، وتفسير ما فرضنا عليك فيه شيئاً شيئاً، فاحفظ تنزيل ما أوحينا إليك تحفظاً جيداً، فإذا حفظت التنزيل علمتاك التأويل، وفهمتاك تبيان ما فيه من الأمر الجليل، فأراد الله سبحانه يثبت قلبه بتعليمه القرآن شيئاً فشيئاً، فعلمه التنزيل شيئاً فشيئاً، وعلمه التأويل شيئاً فشيئاً، فأراد سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: الإخبار له بأن عليه بيان كل شيء أنزله عليه، من حرام وحلال، وتبيينه حتى يعلم بعد حفظ التنزيل، وعلمه غوامض علم التأويل كله، فلا يضل عنه منه حرف واحد صغير، ولا يذهب منه قليل ولا كثير.

ثم قال سبحانه: ﴿كَأَلَّا بَلَّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ فأخبر أن من لا دين له من الخلق يحبون العاجلة، والعاجلة ما تعجل له ودنى وحضر وقرب من كل الأشياء، ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، معنى ﴿تَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ هو: تتركون العمل لها، وترفضون العمل الذي تتألون به خيرها، فلما أن رفضوا العمل الذي يتألون به الآخرة، كانوا للآخرة تاركين، وللعاجلة التي عملوا لها مؤثرين، والعاجلة فهي: الدنيا الفانية، والآخرة فهي: المتأخرة الباقية.

﴿وَجُودٌ يَوْمَ نَاصِرَةٍ﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿﴾ فيومئذ هو: يوم القيامة،

والناضرة هي: المسرورة البهجة، المطمئنة الفرحة، التي عليها لقطة الخوف النضرة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يريد: إلى ما يكون منه ناظرة، ولثوابه ووعدته منتظرة، ومعنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي: راجية، ولثوابه منتظرة، كذلك تقول العرب: ما أنظر إلا إلى الله وإليك، وليست تريد بذلك النظر بالعين إليه، وإنما تريد فضله وعطاءه، وكذلك يقول القائل من العرب لمن يطلب رفته وبره: عيني مفتوحة إليك، وأنا ناظر إليك، ليس تريد أن يفتح عينه لينظر بها إلى جسمه، وإنما تريد: أن عيني مفتوحة إلى ما أرجو النظر إليه من عطائك، ومواهبك وفعالك.

﴿وَرُجُوعٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ﴾ فهو: وجوه الكفار، ومعنى ﴿بِآسِرَةٍ﴾ أي: باسرة لأنفسها عن رحمة الله، بما كان من عصيانها لله، فلما أن عصت الله تلك الوجوه والأبدان، بسرت أنفسها عما أعد الله من الثواب والإحسان، لمن أطاعه من جميع الإنسان، فسماها باسرة، إذ كانت قد بسرت أنفسها عن رحمة الله وثوابه في الآخرة، بما قدمته من معصيته في العاجلة، ومعنى بسرت أي: مُنعت ودُفِعت وحُرِّمت.

﴿تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، ومعنى الظن هاهنا: اليقين، يقول: توقن أنه سيفعل بها فاقرة، ويفعل أي: يعمل بها ويصنع، والفاقرة هي: الداهية النازلة القاتلة المهلكة، وإنما سميت فاقرة؛ لأنها تفقر الظهر، وتفقر الظهر: قطعه، تقول العرب: فقر ظهره، أي: دقه وقطعه وحفره ونقبه، من ذلك ما تقول العرب: افقروا في الشيء فقرا، أي: احفروا فيه حفرا، ومن ذلك ما سمي عدم الدينار والدرهم: فقرا، لأن عدمهما ينقب القلب ويفقر الظهر، فلما أن كان يعمل ذلك بصاحبه، قيل: نزل به الفقر، أي نزل به ما يثقل به الحال في كل الأمر.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، فالبالغة للتراقي هي: النفس عند خروجها من الجسم وبلوغها تراقي صاحبها، والتراقي فهما: ترقوتا الإنسان المعروفان، وهما

العظامان اللذان تحت اللحيين إلى أسفل الرقبة وفوق الصدر، يريد بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا ترجع النفس موضعها بعد بلوغ التراقي أبدا.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، أراد بذلك: الدليل على جهل الخلق بأمر الله، وقلة علمهم بانقضاء أجل صاحبهم، فهم يطلبون له من يرقيه، ويتوهمون أن به داء غير الموت الذي يفنيه، فهم يقولون: من يرقني، والراقي هو: الذي يعوذ ويرقي.

ثم قال: ﴿وَلَنْ أَهْوَ الْفِرَاقُ﴾، يريد بقوله: ﴿وَلَنْ﴾ أي: أيقن صاحب النفس التي بلغت التراقي أن الذي هو به الموت، الذي يفرق بينه وبين حياته، وهو موقن بالموت لما قد رأى وعاین ووجد، وأهله وإخوانه لا يوقنون بها أيقن، فهم يطلبون له الرقاء والدواء، وقد عاین الداهية الدهياء، وأيقن بالفراق والفناء.

﴿وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، والتفاف الساق بالساق فهو: صفها لخروج الروح منها، فأحداهما على الأخرى ساقطة، إن وضعت فوقها لم تنقلع عنها أبدا إلا أن تنقلع، ولم تماز منها إلا أن تنزع، إن تركت فوقها لم تزل ملتفة أبدا بها، وإن نزعَتْ عنها لم ترجع إليها، إلا أن يردھا غير صاحبھا.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، فهذا اليوم الذي قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فليس هو باليوم الذي قال الله سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، هذا اليوم هو يوم وفاة الخلق، وعند معايتهم لنزول الحق، ومواقعة ما وعدهم الواحد الخلاق، من الموت الالف للساق بالساق، فهذا اليوم الذي ذكر الله فيه أن فيه إليه المساق، وذلك اليوم فهو: يوم البعث والحق المساق، يقول: المضي به والتصير له إليه سبحانه، ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى الموضع الذي جعله الله مقرا للأرواح إلى يوم مماتها، ويوم ممات الأرواح فهو: ممات الملائكة والجن، وهو يوم القيامة عند النفخة الأولى،

التي ذكر الله أنه يصعق بها من في السموات ومن في الأرض، ومعنى يصعق فهو: يموت ويذهب، ومعنى هذه النفخة الأولى التي ذكر الله فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، فهو: صُورُ الخلق وأبدانهم، ومعنى نفخ فيها فهو: وقع فيها وَوَاقَعَهَا من أمر الله ما أفتأها، وحل بها من قضائه ما أزالها وأمضأها، فعند وقوع هذه النفخة تموت أرواح الخلق والجن والملائكة، ثم ينفخ فيها النفخة الثانية بالحياة كما قال الله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿الزمر: ٦٨﴾، يقول عز وجل: نفخ في الصور بالحياة مرة أخرى، كما نفخ فيه بالموت أولاً، ومعنى ﴿نُفِخَ﴾: جعل، كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿الحجر: ٢٩، ص: ٧٢﴾<sup>(١)</sup>، يقول: جعلت فيه الروح، فنفخ الله تبارك وتعالى في الصور هو الحياة، كنفخته في صورة آدم بالحياة، وجعل الروح فيهم، كما جعله في صورة أبيهم.

﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَٰى﴾ ﴿٢٠﴾، فطرح الألف، وهذا موضعها وهو يريد بها، وقد تقدم شرح هذا المعنى منا في غير هذا المكان، يريد بهذا اللفظ سبحانه: فلو كان في حياته من المصدقين، بما جاء من رب العالمين، على لسان النبي الأمين، وكان من المصلين، لكان بذلك عند الله من الفائزين، ولكن لم يكن كذلك، فكان من الهالكين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿٢١﴾، معنى ﴿وَلَكِنَّ﴾ هو: بل، يقول: بل كذب وتولى، أي: كذب بالحق، أي: جحد ولم يقر ولم يصدق، ﴿وَتَوَلَّى﴾ يقول: التوى عن الحق، وانصرف عن الصدق.

﴿ثُمَّ دُخِبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِمَشْطَرِئٍ﴾، يقول: رجع من عند الرسول صلي الله

(١) في المخطوطات أثبت الآية هكذا: فإذا نفخت... ولا توجد آية بهذا اللفظ في القرآن، وإنما كما أثبت.

عليه وعلى آله إلى أهله مكذبا يتمطى، والتمطى: شيء يفعل الزاهد فيها يلقي إليه، ويؤمر به ويتلى عليه، وهو أمر يدل من فاعله على الإنكسار عما يتلى عليه، والملاة لما يؤمر به، فإذا مَلَّ وضجر من ذلك العمل كائنا ما كان، داخله الزهد فيه والضجر منه، يتمطى لما يداخله من الملاة له، والتمطى فهو: مد اليدين والتلوي، والتلفت بالمتكئين والتثني، ولا يقع هذا إلا بالمال لما هو فيه من الضجر منه، فأخبر الله سبحانه عن المعرضين عن الله وعن رسوله، الزاهدين فيما يتلى عليهم من كتابه، أنهم بضجرهم وملاتهم وكرهاتهم، لما يلقي صلى الله عليه وعلى آله في آذانهم، ينقلبون إلى أهلهم يتمطون من استئصال ما سمعوا منه، من تلاوته كتاب الله وبغضهم له، فدل تمطيههم على ضجرهم وملاتهم وكرهاتهم لذلك من فعله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ ۖ﴾ ذَأَوَّلَىٰ ۖ، يقول: كَيْدَ لَكَ يَا صَجْرًا يتمطى<sup>(١)</sup>، ويا زاهدا في الهدى كيد لك، ومعنى «أَوَّلَىٰ ۖ» هو: كيد لك، ومعنى كيد لك أي: كاد أخذ ربك أن ينزل بك عند فعلك، وكادت نغمته أن تحل بك عند تعنتك، وكادت بطشة ربك أن تنالك عند تمطيك، وحين إيدبارك عن الحق وتَوَلَّىٰ، وكذلك تقول العرب إذا رمت أغراضها فقاربت سهامها الغرض، قالت: كادت به، أي: قاربه وقصدته ودانته ولم تصبه بعد، وكذلك إذا طعن الفارس شيئا فداناه ولم يصبه، قالت العرب: كاد به، أي: قاربه وداناه.

﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾، يقول سبحانه: يتوهم الإنسان، ومعنى «يُتْرَكَ ۖ» أي: يخلى، «سُدًى ۖ» أي: مهملا، والمهمل فهو: الذي لا يرعى ولا يحفظ منه مقبل ولا مدبر ولا مذهب ولا مأتى، ولا يحصى عليه شيء من الأشياء،

(١) في (ل): فيا صجرا يتمطى.

من ذلك ما تقول العرب لمن ضيع إبله وخلاها، أو غنمه أو دابته: خلى فلان دابته في الأرض هملًا، أي: خلاها بلا راع ولا حافظ ولا متعاقد ولا عارف لأمرها، فهذا معنى الحمل، والسدى فمعناه: هملًا.

﴿أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّنِيِّ تَمْنَىٰ﴾، يقول: أليس قد كان نقطة في ظهر أبيه، والمني فهو: الماء الذي ينزل من الظهر عند الجماع، ومعنى «تَمْنَىٰ» <sup>(١)</sup> فهو: تخرج وتلقى، وكل شيء أمني، فقد أخرج وأظهر وألقي.

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً﴾، يخبر سبحانه أنه صار في الرحم بعد أن كان نقطة علقة، والعلقة فهي: الشيء الجامد من الدم، فأخبر الله سبحانه أن النطفة البيضاء تنقلب بقدرته في الرحم علقة حمراء، ثم تنقلب العلقة الحمراء مضغة، ثم يخلقها الله سبحانه ما يشاء، ويسوي منها ما أحب.

ثم قال سبحانه من بعد أن ذكر العلقة: ﴿فَخَلَقَ فُسُوءً﴾، يريد عز وجل: خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا، ثم كسا العظام لحما، ثم قال من بعد خلق الله فيه ما شاء من خلق الذكر أو خلق الأنثى، فهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقَ فُسُوءً﴾، يقول: خلق شيئًا بعد شيء حتى سواه من هذا الماء، ما شاء من ذكر أو أنثى.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، يعني بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي: خلق فصور، وفطر فقدر، ومعنى «مِنْهُ» أي: من ذلك المني الذي أمناه الزوجان، وهما الصنفان اللذان يتزاوجان، وهو الذكر والأنثى، فأراد سبحانه بذكر ما ذكر من فعله في آدميين، وتنقيح خلق المخلوقين، أن

(١) الإمام الهادي عليه السلام يعتمد على قراءة نالغ وهي قراءة أهل المدينة في جميع القرآن ومنها هذه.

يعلمهم أنه لم يفعل ذلك بهم لأن يخلقهم سدى، وإنما فعل ذلك بهم لأعظم ما يكون من المعنى، وهو ما أراد بهم من الإمتحان والاختبار والإبتلاء، بالعمل في دار الدنيا، والإيجاب عليهم في يوم الدين لما أوجب من الجزاء، فأعلمهم أن من كانت هذه إرادته من خلقه فقد بُعدَ منه أن يجعلهم سدى، وبانت له بذلك الفعل القدرة فيهم وفي غيرهم على ما يشاء.

ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾، معنى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ ﴾ هو: أما ذلك؟ فيقول: أما الذي فعل ما فعل ودبر، من تقليب تدبير خلقكم ما دبر، حتى صار من الماء بتدبيره وقدرته إنسانا قويا ثابتا ﴿ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ معنى ﴿ قَدِيرٍ ﴾ أي: مستطيع لذلك قوي عليه، نافذ أمره فيه، ومعنى ﴿ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ هو: يردهم بعد الممات أحياء، فأخبر سبحانه بذلك أن إحياءه لرميهم أجساما كابتدائه لخلق أجسامهم أولا من الماء، فأخبرهم أن من ابتدأ شيئا من لا شيء، أي: جعل شيئا من غير شيء، فهو: على إزالته قادر، وأنه على رده إلى الهيئة الأولى التي قد فرغ من خلقها، وأحكم تدبيرها أقدر منه على ابتدائها، وأهون عليه في جعلها، كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، فضرِبَ عز وجل ذلك لهم مثلا كما مثلنا نحن به أيضا، وليس قوله: ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾، ولا هو على ردها أقدر، يقتضي أن له سبحانه حالا متفاوتا حالا، ولا أن شيئا يمتنع عليه جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، بل كل ما شاء أن يكون كان على ما يشاء ذو الجلال والإكرام والسلطان، ولا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، ولا يؤده حفظهما شيء وهو السميع العليم.





# تفسير سورة الإنسان





## تفسير سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿١﴾ فمعنى ﴿هَلْ أَتَى﴾ أي: قد أتى، ومعنى ﴿حِينٌ﴾ فهو: الكثير الطويل من الدهر، ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿٢﴾ يقول: لم يكن شيئا يذكر في هذا الدهر الذي غبر، حتى خلقناه من بعد طول الدهور وكونه، والمعنى بذلك فهو: جميع الناس الذين خلقوا من بعد أن لم يكونوا، فأراد الله تبارك وتعالى بذكر ذلك الإخبار لهم بأنه قد كون أولهم من بعد العدم، إذ لا شيء من الأشياء، ثم صور آخرهم فيها قدر من الماء المهيّن، فكلّ كان ووجد وخلق وقدر بعد العدم الطويل.

ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ ومعنى ﴿إِنَّا﴾ هو: نحن، ومعنى ﴿خَلَقْنَا﴾ هو: أوجدنا وصورنا وجعلنا، وقدرنا الإنسان من نطفة، والنطفة فهو: المنى، والمنى: الماء الذي يخرج من الرجل عند جماعه فيقع في الرحم، ويخلق الله ما يشاء من الذكر والأنثى.

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ والأمشاج فهي: الأوصال الموصلة، والأعضاء المفصلة، والقطع المتلازمة، المضموم بعضها إلى بعض، والمعلق كل شيء منها في شيء، تدبيرا من الرحمن، في تأليف ما ألف من الإنسان، قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره ونمتحنه بما يرى من أثر تأليفنا وتقديرنا لخلق، لننظر كيف يكون شكره على ذلك، لمن فطره وجعله كذلك.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣﴾ يقول: خلقناه ذا سمع يسمع به، وذا بصر

يصر به، ليكون أعظم في النعمة، وأكثر في الابتلاء، وأثبت للحجة.

﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ﴾ معنى ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ أي: إنا عرفناه وبصّرناه وبيننا له، والسبيل فهو: سبيل الله الذي هدى إليه عباده، وسبيل الله فهو: دين الله ومراده، من خلقه الذي أراده أن يعبدوه به.

﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يقول: فلا بد أن يكون شاكرًا لذلك من جعلنا، أو كافرًا لما أوليناه في ذلك من نعمنا، والشاكر فهو: العارف بفضل ما أولى، الذاكر له بلسانه وقلبه، والكفور فهو: المعرض عن حمد من أولاه الجميل، الذي ليس بشاكر لذلك ولا ذاكر.

ثم أخبر سبحانه بما عد لمن كفر نعمه، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾، والسلاسل فهي: سلاسل من حديد يقرنون فيها، منها السلسلة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿تُثَمِّتُ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]، والأغلال فهي: الأغلال المفهومة من الحديد في الدنيا، التي يغل بها المغلولون، وهي عُمْدُ حديد تربط في الأيدي إلى الرقاب، طول كل عمود شبرا أو أقل، كذلك يغل الله أعداءه في النار، ليكون ذلك أنكى في العذاب، وأضيق للصدور، وأشد للبلاء. والسعير فهو: لهب النار، واستعارها فهو: توقدها وتلهبها.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الأبرار الشاكرين، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، والأبرار فهم: الذين برأوا أنفسهم بالصيانة لها عن النار، وإخراجها من العقاب، وإدخالها في النعيم والثواب، فصاروا بذلك من فعلهم أنقياء، وسماوا به بررة أولياء، والكأس التي يشربون منها فهي: المشارب والآنية التي يشربون بها ما يشرب من أنواع الأشربة والماء.

ومعنى ﴿كَاتَ مَرَّاجُهَا كَافُورًا﴾، فهو: إخبار من الله أن طعم ما يُشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور، وهو أطيب ما يكون طعما ورائحة.

ثم قال: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ والعين من الماء: السائح على وجه الأرض الكثير الجاري، ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يشرب منها، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يصرفونها حيث ماشاءوا، ويسيلونها أين ما أحبوا تسيلًا.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فمعنى يوفون: يتمون، ويوفون ويؤدون ما عليهم من ذلك، والنذر فمعهناه: الواجب من كل شيء، وكل ما وجب على الإنسان من شيء فهو: نذرٌ عليه، من ذلك أن يوجب على نفسه لله شيئا وينذره، ومعنى ينذره أي: يوجهه على نفسه من صيام أو صلاة، أو عتق أو صدقة، أو في شيء من أفعال البر، ومن النذر: أداء واجب الزكاة، ومن النذر: الصيام والصلاة وغيرهما من الفرائض الواجبات، وكل ما أوجب الله على العباد من فرائضه، أو أوجبوه على أنفسهم له، فهو: نذر عليهم؛ لأن العرب تسمي كل واجب نذرا، وتدعوه بذلك، من ذلك ما تقول العرب لمن تتق به وتعده في تقدير جراحها: نَذَرُ جراح فلان، تريد: أوجب فيه من الدية والغرم والواجب ما يجب في مثلها، وتقول: نذر هذا الجرح كذا وكذا، تريد: الواجب فيه. فمدح الله سبحانه كل موفٍ بنذره، ومؤديا للواجب عليه في كل أمره.

﴿وَنَخَافُونَ﴾ فهو: يتقون ويحاذرون، ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾، فهو: يوم القيامة، وشره فهو: بلاؤه وعذابه وحسراته وشقاؤه، ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ أي: ظاهرا عاليا مكشوفًا مبينا.

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّلْعَامَ ﴾ فإطعامهم: اعطاؤه والجود به والبذل، والطعام فهو: المعيشة من كل ما جعله الله غذاء للبشر، وعيشا وقواما، ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾، يقول: على الحاجة إليه، والرغبة فيه، في ساعة العسرة والضيق والشدة، ﴿ مِسْكِينًا ﴾ فهو: الفقير المحتاج إلى الطعام، ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ فهو: الطفل الذي لا والد له، الذي قد نكل والديه أو أحدهما، وَعَدِمَ حسن نظرهما وقيامهما وعنايتهما وكفايتهما، ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ والأسير: كل مأسور قد أوثق أسره، واشتد بالأسر عليه حاله وأمره، محولا لا يقدر على ماله وأهله، من الأسارى الذي أسرهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكفرة الفاجرين، وكذلك مَنْ أَسْرَتْهُ الأئمة الهادون، من مأول فاجر، أو جاحد كافر، فواجب على من أسر أسيرا من الفاسقين والكافرين، إن لم يكن له مال، ولا سبيل إلى سعة حال، بوجه من الوجوه، أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين بالمعروف، وإن كان له مال، أو كان في قرب أهله ومن يبلغه منافعه، وجب عليه أن يأمره بالاستئفاق من ماله، ولم ينبغ لنا أن ننفق عليه أموال المسلمين، إذا كان بالإئفاق على نفسه من الواجدين، وفقراء المسلمين أولى بتلك الفضلة، وتلك التوسعة، فهذا يجب النظر فيه وتمييزه على الإمام، ومن أطعم غير هؤلاء الثلاثة من سائر أهل الإسلام، فهو: مأجور أيضا على ذلك محمود.

وقد ذكر أن هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعال، فأثنى الله سبحانه عليهم، هم: الخمسة محمد صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين رحمة الله عليهم، فعلوا ذلك في وقت عسرة وضيق شديد وحاجة إلى المعاش، فأثنى الله سبحانه كذلك عليهم، وذكر ما سيأتي ذكره مما أعد الله لهم من الثواب، وكان في قولهم في ذلك لمن أطعموه، فشكرهم الله ما ذكر الله من قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾، معنى ﴿ نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ هو: نطعمكم لله تقربا إليه، ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾

أي: لا نريد منكم عطاء على ذلك ولا شكورا، أي: لا حمدا ولا ثناء ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ ﴿إِنَّا إِنَّمَا فَعَلْنَا ذَلِكَ لِأَنفُسِنَا وَلَمْ نَفْعَلْ لَكُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَيْبًا قَمَطِرًا﴾ معنى ﴿إِنَّا﴾ أي: نحن، ﴿نَخَافُ﴾ أي: نتقي، ﴿يَوْمًا غَيْبًا﴾ والعبوس فهو: الشديد المعبس لوجوه الناس لشدة، والقمطير فهو: المتضاعف الشدة، الصعب الأمر، الذي ليس بعد شدة شدة، المتركة شدته شيئا فوق شيء.

فأخبر الله أنه قد وقاهم شر ما يخافون من ذلك اليوم، فقال: ﴿فَوَقَّعْنَاهُمْ لَأَسْفَرَ ذَٰلِكَ أَلْيَوْمَ﴾، ومعنى ﴿فَوَقَّعْنَاهُمْ﴾ فهو: صرف عنهم هوله، وكفاهم شره، والشر فهو: بلاؤه وعذابه، و﴿ذَٰلِكَ أَلْيَوْمَ﴾ فهو: يوم الفصل والحشر، ﴿وَلَقَّعْنَاهُمْ﴾ أي: أعطاهم وأنالهم ﴿نَضْرَكَ﴾، ومعنى إعطائه إياهم لما فهو: إلقاؤها عليهم، وجعلها في وجوههم، والنضرة فهي: البهجة، وحسن الحال في الرؤية، وظهور النعمة، ﴿وَسَرُّورًا﴾ ﴿فَوَقَّعْنَاهُمْ﴾ بالبخارة التي يلقونها إليهم، والسرور الذي يُعْمَمُ به سبحانه عليهم، حتى يتمكن السرور بذلك في صدورهم، كما يمكن النظرة في وجوههم، بما يأمنون من عقابه، وما يرجون من ثوابه.

﴿وَجَزَّيْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ يقول سبحانه: أعطاهم ثوابا على صبرهم على نحن ربهم، وما نالهم فيه من البلاء من أعدائه، ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، والجنة في مساكن الآخرة التي أعدّها الله للمعتقين، فيها لذة أنفسهم، وشهوات قلوبهم، ﴿وَحَرِيرًا﴾ فهو: الحرير الملبوس المعروف، غير أن حرير الآخرة فضلا.

﴿مُشْكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآكِ﴾ والإنكاء فهو: ضرب من الإضطجاع، وهو ما كان من الإنكاء على جانب، والإنكاء فهو: الميلان يعني ويسارا، ومعنى ﴿فِيهَا﴾

فهو: في الجنة التي ذكر الله على الأرائك، والأرائك فهي: الأرائك المعروفة التي تضرب في صدور البيوت، يرقد فيها ويتكا عليها، ويرعى جوانبها على ما فيها من أهلها، وتذال جوانبها وأغشيتها<sup>(١)</sup>، وهي تكون كلها من الحرير.

ومعنى «عَلَى الْأَرَائِكِ» فهو: في الأرائك، غير أنها حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وهي الثمانية والأربعون حرفاً، قال الله سبحانه فيها حكى عن فرعون اللعين: ﴿لَأَصْلَبَنَكُمُ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، فأراد: على جذوع النخل، فأقام «في» مقام (على)، وكذلك قال هاهنا: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، فأقام «عَلَى» مقام (في)، قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت      لدى لجج خضر لمن نشيج<sup>(٢)</sup>

فقال: ترفعت لدى لجج، يريد: على لجج، فأقام (لدى) مقام (على)؛ لأنها من حروف الصفات، وكذلك تقول العرب: رضي الله عليك، تريد: رضي الله عنك، وأكثر من يستعمل ذلك فأهل اليمن، وقد قال غيرنا: إن الأرائك هي الأسرة، وليس بمعروف في اللغة والله الحمد.

ثم قال سبحانه لا: ﴿لَا يَرْقَنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يعني سبحانه: في الجنة، ومعنى ﴿لَا يَرْقَنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يجدون فيها وهج شمس ولا حرها، والزمهرير فهو: البرد الشديد الذي يتفرض منه الإنسان، وتضطرب منه أعضاؤه، لشدة وألمه ومداخلته لجميع بدنه، فأخبر تبارك وتعالى أنهم لا يجدون في الجنة حرّاً مؤذياً، ولا برداً مؤلماً، وأن هواها ألدّ هواء، وحال أهلها أحسن حال، دائم نعمته، سرمد سروره.

(١) تذال: ترعى وترسل. قال ابن منظور: أذالت المرأة قناعها، أي: أرسلته. لسان العرب، مادة ذيل.

(٢) لم أقف عليه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ فدنو الظلال عليهم فهو: غشيانها لهم، وإظلالها عليهم وقربها منهم، ولا أحسب - والله أعلم - أن الله عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا ظلال الأشجار، الدانية الشار، المتهدلة، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ والقطوف فهي: الثمار التي تقطف، ومعنى تقطع أي: تقطع للأكل ونجذ، والتذليل فهو: الإرخاء والإدناء حتى تدنو وتدل وتقرّب من أخذها، وتمكن لآكلها، فذلك معنى تذللها، ومعنى ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: أدنيت إدناء، وقربت تقريباً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ والطوفان بها هو: الدوران بها عليهم والعرض لها، والآنية فهي: آنية المشارب والمطاعم، يطاف عليهم بها فيها من الأطعمة والأشربة، تعرض عليهم أكلها وشربها في كل ساعة وأوان، كرامة لهم من الله الواحد المنان، وهي الصحاف والأخونة والجفان، وغير ذلك مما يكون فيه الطعام، والأكواب فهي: الكيزان والأقداح، ذوات الحسن والهيئة والأرجل من فضة، والفضة فهي: هذه الفضة المعروفة البيضاء المخلصة.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ قَوَارِيرًا يريد: - والله أعلم - التمثيل لها في ذكره القوارير بصفاء القوارير التي يرى جميع ما فيها، فذكر أن هذه الآنية ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾، صافية منيرة رقيقة ومضيئة، يرى ما فيها كما يرى ما في القوارير من ورائها. ﴿قَدَرُواْ تَقْدِيرًا﴾ يريد سبحانه: أنهم يقدرون أوقات الطوفان بها على الأكلين والشاربين تقديرًا حسنًا، فيأتونهم بها على أوقات حاجتهم إليها، ويكون ذلك من هؤلاء المقدرين من الخدم والطوافين بها عليهم تقديرًا حسنًا، ومعرفة بقدرة الأوقات التي يحتاج أهل الجنة إلى تقريب هذه الآنية، التي فيها المأكّل والمشارب، فهذا أحسن ما علمناه من التأويل في: ﴿قَدَرُواْ تَقْدِيرًا﴾.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۖ ﴾ والكأس التي يسقونها هي: الشراب الذي في الكأس، غير أن العرب تدعو ما كان في الكأس كأسا، تقول: اسقني كأسا وقدحا واحدا، تريد: اسقني ملاء ماء، فأراد الله عز وجل أنهم يسقون في الكأس ما يكون مزاجه زنجبيل، ومعنى ذلك: أن توجد فيه رائحة الزنجبيل وطعمه، فهذا معنى مزاجها.

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۖ ﴾ العين فيها فهي: الماء السائل الكثير الجاري النابع من الأرض، «فِيهَا» يعني: الجنة، «تُسَمَّى» أي: تدعى، «سَلْسَبِيلًا» وهو: اسم لتلك العين، ومعناه: العذب الطيب السلس الخروج، السلس المدخل، المريء الغذاء، والزنجبيل فهو: عود طيب المطعم، يتداوى به في كثير من الأشياء، ويكسب أكله المری، ويخفف عنه ثقل الغذاء.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ أي: تدور الخدم عليهم، ﴿ وَلَدَنٌ مُّخَلَّدُونَ ۖ ﴾، والولدان فهم: الوصفاء، «مُخَلَّدُونَ» فهم: المعمرون الذين لا يموتون ولا يفقدون من جعلوا له؛ لأن أهل الآخرة لا يموتون بعد مصيرهم إليها، فمدحهم الله عز وجل بالخلود، وهو أفضل ما أعطي العاملون.

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا ۖ ﴾ يقول: إذا أبصرتهم شبهتهم باللؤلؤ المنثور في صفاء ألوانهم، وحسن أبنائهم، ومعنى منثور فهو: المتفرق والمتبدد، وإنما عنى الله سبحانه من اللؤلؤ كباره ودره وحسانه.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ۖ ﴾ يقول: إذا عاينت ما ثم وأبصرته، رأيت النعيم العظيم، والنعيم فهو: كثرة الخير من الأطعمة والأشربة والآلات والآيات، ومعنى «ثُمَّ» يريد: هناك، ﴿ وَمَلَكًا كَبِيرًا ۖ ﴾، والملاك فهو: ما أعطاهم الله ثم،

وجعل لهم في تلك الدار من آيات الذهب والفضة والثياب الكثيرة من كل لون، والخدم وقصور الدر والياقوت والذهب والفضة، وكل ما تشتهي الأنفس وتلذه الأعين، من منكب أو مطعم أو مشرب أو لباس أو ركوب، أو غير ذلك من الثمار والأشجار والعيون والأنهار، ثم مع ذلك أن كل ما هم فيه دائم أبد الأبدي، لا يدخله تغيير ولا فناء، فهذا الملك غير الملك في الدنيا، ومعنى «كَبِيرًا» فهو: عظيم كثير ممدود غزير.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسندس والإستبرق فهو: من الحرير والديباج، غير أن السندس أخضر والإستبرق أحمر والله أعلم وأحكم.

﴿وَحُلُوتٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ﴾، يعني: هؤلاء الولدان الذين هم خدم أهل الجنة، فذكر لباسهم وحليتهم، والفضة فهي: الفضة المعروفة البيضاء النقية.

ثم رجع إلى صفة سادتهم من أهل الجنان، فقال: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً، يريد: مكافأة لكم على عملكم، وعطاء على سعيكم، ﴿وَمَكَانٌ سَعِيدٌ مُشْكُورًا﴾ فالسعي هو: العمل، والمشكور هو: المقبول، فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿سَعْيُكُمْ مُشْكُورًا﴾ أي: عملكم عندنا مقبولا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ معنى «إِنَّا» يريد: أي نحن إخبار عن فعله، ومعناه دلالة عليه سبحانه، «نَزَّلْنَا» معناها: أنزلنا وأوردنا، «عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا» أي: شيئاً شيئاً، حقاً حقاً.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يريد: فاصبر على ما حكم به ربك من معاشرتهم ومنافستهم، والإعذار والإنذار إليهم، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ بَعْضًا أَوْ كَفُورًا﴾، يريد: لا تطع من كان آتياً كافراً بربه، والائتم فهو: كل من يفعل ما يأثم فيه، والائتم

فهو: العنود عن الحق، والكفور فهو: الكافر بربه، الراكب لكبائر معاصي خالفه.

والطاعة التي نهى الله رسوله عنها في هذا الموضع فهو: الإتياء والخافة لوعيدهم، فقال سبحانه: لا تخف شيئا من وعيدهم وإبراقهم وإرعادهم عليك، فتقف بذلك عن شيء مما يكرهون من إقامة حدود دينك والإعلان بها، وقد ذكر أن معنى هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام لعنه الله، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله كان يغدو كل يوم فيصلي عند الكعبة، فقال أبو جهل: والله لئن لم يدع محمد هذا الذي هو عليه من الصلوات بين أيدينا لأرضخن رأسه بصخرة إذا سجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فأنزل الله عليه ما يشته به، فقال: ﴿لَا تُطِيعْ مِنْهُمْ﴾، أي: لا تهب وعيدهم فتترك ما فيه غمهم، فيكون ذلك شبه الطاعة، فلم يبال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بوعيده، وغدا لصلاته كما كان يفعل، فأخذ أبو جهل صخرًا كبيرًا، ثم أتى به من وراء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يمشي حتى إذا قارب رمى بالحجر من يده في الأرض ورجع هاربا مخلوعا، فقيل له في ذلك، فقال: إني لما دنوت منه حمل علي جمل لم أر أكبر منه من الجمال، ولا أعظم رقبة، ولا أكبر أنيابا، فاتحافاه يريد أن يأكلني، فرميت بالحجر وهربت منه، وتالله لو وقفت لأزدردي<sup>(١)</sup>.

ثم أمره سبحانه بالمضي على ما كان عليه من ذكر ربه في صلاته، على رؤوسهم صاغرين داخرين، فقال: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ والذكر لاسم

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه، أنه بلغه أن أبا جهل قال: لما فرضت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة، وهو يومئذ بمكة: لئن رأيت محمد يصلي لأطآن على عنقه. فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَوْ كُفَرُوا﴾. الدر

ربه فهو: ذكره، وهو القرآن ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فالبكرة أول الغداة، وهي صلاة الفجر، وأصيلًا فهو: العشي، وهي صلاة الظهر والعصر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فهو: صلاة المغرب والعتمة، فأمره سبحانه بالسجود في هذه الأوقات، وهي أوقات الصلاة، وأمره بالتسبيح ليلاً طويلاً، والطويل ما هنا الذي أمره به فهو: من حين يدخل في الصلاة حتى يفرغ منها، فهذا فرض التسبيح الذي ذكر الله سبحانه، وقد يدخل في ذلك كل ما كان من التسبيح في غير الصلاة، والتقرب بذلك إلى الله، فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضاً، وما كان في غير الصلاة فهو: نافلة ووسيلة إلى الله وخير وفضيلة.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وهؤلاء فهم: الذي كانوا على عصر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، من أهل الشرك والكفر والمضارة له، يحبون ويؤثرون ويختارون العاجلة، والعاجلة فهي: الدنيا الأولى، ﴿وَيَذَرُونَ ذُرًّا هُمًّا﴾، يقول سبحانه: يتركون ما وراءهم ويرفضون، ومعنى ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ فهو: قدامهم، غير أن وراء وقدام من حروف الصفات، وقد تقدم ذكر حروف الصفات أن بعضها يخلف بعضها في مكانه، وقال ليبد بن ربيعة العامري في ذلك:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع  
أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كاني كلما قمت ركعتي<sup>(١)</sup>

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ فهو: يوم القيامة، والثقيل فهو: الشديد المائل العظيم الفادح لأهله.

(١) من قصيدة للبد، مطلعها:

وثقى الجبال بعدتنا والمصانع

بليتنا وما تبيل النجوم الطوالع

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم بما أنعم الله عليهم، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، فقال: ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي: جعلناهم وفطرناهم، ﴿وَشَدَدْنَا﴾ أي: قوينا، ﴿أَسْرَهُمْ﴾ والأسر فهو: الخلق وتركيب المفاصل، وتثبيت الأعضاء، فيقول: شددنا ذلك كله ومكانه وثبته وفصلناه.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ ومعنى ﴿شِئْنَا﴾: أردنا، أي: إذا شئنا أهلكتناهم وأبدناهم، وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم، ﴿تَبْدِيلًا﴾ فهو: جعلناه جعلا وأتينا بمثله بدلا منهم، اقتدارا وإنفاذا، وهذا معنى ﴿تَبْدِيلًا﴾ تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب، وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره، تقول العرب: كلمناه تكلما، تؤكد للكلام، وتقول: ضربناه ضربا، تؤكد بها الضرب، وأخرجناه إخراجا، تؤكد الإخراج بقولها: إخراجا، وكذلك أدخلناه إدخالا، تؤكد الإدخال بقولها: إدخالا، وتقول: بدلناه تبديلا، تؤكد معنى التبديل بقولها: تبديلا.

﴿إِنْ هَدَيْهِ تَذَكُّرٌ﴾، فمعنى ﴿هَدَيْهِ﴾ هي: الأقاويل والمعاني، والاحتجاج عليكم بما كان منا في خلقكم وتركيبكم تذكرا لكم، ومعنى ﴿تَذَكُّرٌ﴾ أي: تنبيهها لكم وحجة عليكم، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، يريد بقوله: ﴿مَنْ شَاءَ﴾ أي: من أراد، ومعنى ﴿اتَّخَذْ﴾ فهو: فعل وقدم وجعل، ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ هو: إلى عند ربه، ومعنى اتخاذ العبد عند ربه هو: تقديمه للعمل الصالح، الذي يجد ثوابه عند ربه في يوم حشره، ومعنى ﴿سَبِيلًا﴾ أي: وصلة، ومعنى صالحا: يجد عند الله ثوابه.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يقول سبحانه: وما تقدرون على اتخاذ السبيل

إلى الله إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك، وعقولا تميزون بها بين رضا الله وسخطه، فتبعون الرضا وتدعون السخط، فلو لا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الإستطاعة التي تنالون بها التميز، وتصلون بها إلى العمل، ما قدرتم على ذلك أبداً، غير الله سبحانه، أراد أن يجعل استطاعة ذلك فيكم وتركيبها، فجعل فيكم استطاعة تنالون بها الخير والشر، وأمركم ونهاكم، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ١٠٠، فمعنى ﴿كَانَ﴾ أي: لم يزل، ومعنى ﴿عَلِيمًا﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بكل شيء كان أو لم يكن عما سيكون، فقد علم ما كان من قبل أن يكون، وعلم ما سيكون أنه سيكون من قبل أن يكون، ومعنى ﴿حَكِيمًا﴾ أي: متقنا لفطرته ولجعله وخلقه، الذي لا يتغير ما أثبت ولا يثبت ما غيّر، الجاعل ما لا يصلح غيره، الحسن التدبير، الجيد التقدير، الذي لا تفاوت في خلقه، ولا فساد في تدبيره.

ثم قال سبحانه: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ١٠١، والرحمة هي: الثواب، والذي شاء أن يدخلهم في رحمته فهم أهل طاعته دون أهل معصيته، ألا تسمع كيف ميز بينهم وبين الظالمين، فقال: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٠٢، فجعل الرحمة للمطيعين، والعذاب الأليم للظالمين، والظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بإدخالها في عذاب ربهم.

أي: هيا وجعل، والأليم فهو: الشديد المؤلم الموجه، المبالغ عن دأناه، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما.

(٣٥٥) وسألت عن قول الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، الإنفطار: ٢٧] <sup>(١)</sup>

فمعنى ذلك: إخبار من الله أنكم لم تكونوا تقدرُونَ تشاءون شيئاً، ولا تكرهوا شيئاً دون شيء، لو لا أن الله شاء أن يجعل فيكم استطاعة على ذلك ومقدرة عليه، بها ركب فيكم من هذه العقول التي بها تميزون الشيء عن ضده، وتفرقون بها المخوب <sup>(٢)</sup> من غيره، فبهذه العقول المميزة التي شاء الله تركيبها فيكم، يَبَيِّنُ <sup>(٣)</sup> شيئاً دون ضده، وتركم شيئاً دون غيره، ولو لا مشيئته لتركيب ما نلت به ذلك فيكم، ما كنتم لتقدروا على المشيئة ولا الترك أبداً، فهذا معنى ما عنه سألت من هذه الأشياء.

(٣٥٦) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨] ؟

فهذا: إخبار <sup>(٤)</sup> من الله سبحانه أنه خلق خلقه بلا عون من أحد في ذلك له،

(١) في (د): ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يقول سبحانه: وما تقدرُونَ على اتخاذ السبيل إلى الله، إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك، وعقولا تميزون بها بين رضا الله وسخطه، فتعبون الرضى، وتدعون السخط، فلولا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الاستطاعة التي تتألون بها التميز، وتصلون بها إلى العمل، ما قدرتم على ذلك أبداً، غير [أن] الله سبحانه أراد أن يجعل استطاعة ذلك فيكم وتركيبها، فجعل فيكم استطاعة تتألون بها الخير والشر، وأمركم ونهاكم ﴿يَهْدِيكَ مِنْ هَلَاكٍ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيُخْرِجُكَ مِنْ حَيٍّ عَنْ بُيِّنَةٍ وَإِلَى اللَّهِ تُسْمِعُ عَلَيْهِمْ﴾. المصايب الساطعة ١/ ٣٢٤.

(٢) المخوب: المغشوش والفاسد.

(٣) في (أ): يبين. وظنن بها أثبت، والله أعلم بالصواب. ويشن هي: يشن.

(٤) في (د): فقال: ﴿خلقناهم﴾ أي: جعلناهم وفطرناهم، ﴿وشددنا﴾ أي: قويتنا، ﴿أسرهم﴾ فهو: الخلق وتركيب المفاصل، وتثبيت الأعضاء، فيقول: شددنا ذلك كله، ومكناه وثبتناه وفصلناه.

وأنه هو المنفرد بخلقهم وإيجادهم، وشد أسرهم فهو: تقوية أسرهم، وأسرهم فهو: ثباتهم وعقدهم وتركيبهم، على ما جعلهم عليه وقدرهم، ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ المعنى فيه: إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم، ﴿تَبْدِيلًا﴾ فهو: جعلناه جعلًا، وأتينا بمثلهم بدلا منهم، اقتدارا ونفاذ إرادة.

فهذا معنى ﴿تَبْدِيلًا﴾، تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب، وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره، تقول العرب: كلمناه تكليما. تؤكد الكلام، وتقول: ضربناه ضربا، تؤكد بها الضرب، وأخرجناه إخراجا، تؤكد الإخراج بقولها: إخراجا، وكذلك أدخلناه إدخالا، تؤكد الإدخال بقولها: إدخالا، وتقول: بدلناه تبديلا، تؤكد معنى التبديل، بقولها: تبديلا، فعل هذا يخرج ما عنه سألت من قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.







# تفسير سورة المرسلات





## تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝﴾، فالمرسلات فهو: السحاب المنشآت، ﴿عُرْفًا﴾ يقول: متصلات معا يتبع بعضها بعضا، ولا يفاوت شيء منها شيئا. ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝﴾ فهن: الرياح الهابآت الشديديات الهبوب، المزعزعات لما هببن عليه، الحاملات ما قوين عليه، ﴿عَصْفًا﴾ فالعصف هو: الشدة منهن، وإنما قيل: عاصفة لعصفها للأشياء، وعصفها للأشياء فهو: زعزعتهما ولما وحلها وورفعها ووضعها لما ترفع من الأشياء وتضع، وإجالتها لما تحمل عما تمر عليه وتقع فيه.

﴿وَالنَّشِيرَاتِ شَيْرًا ۝﴾ فهن: السحاب الممطرات اللواتي ينشرنه برحمة الرحيم في كل الجهات، وحيث ماشاء من البقاع المحتاجات إلى ما ينتشر فيهن وعليهن من الرحمة، ويقع فيهن بوقوع الغيث من البركة، فتنتشر رحمة الله حيث شاء، وتنبئها من أمرت بإنزاله من المربوبين، فتغيث بذلك من شاء الله من المغاثين.

﴿فَالْفَرْقَاتِ فَرَقًا ۝﴾ فهن: الملائكة المقربون، الذين يفرقون بين الحق والباطل، بما تنزل به من التبيين والحجج من عند الواحد المنان، في الرحي والقرآن.

﴿فَالْمُغِيثَاتِ إِغْثًا ۝﴾، فهن: الملائكة الملقون بما يلقون إلى الأنبياء والمرسلين، من وحي رب العالمين، و﴿ذِكْرًا﴾ فمعناه: وحيا وأمرًا، وقصصا وخبرا، وإعذارا وإنذارا، ألا ترى كيف يبين ذلك سبحانه فقال: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝﴾،

والعذر فهو: الإعذار في الشيء بالتقدمة إلى أهله في العذر من وقوعه، وأخذ الأبهة قبل نزوله، ﴿أَوْ نُذَرًا﴾، فالنذير هو: الرسول المخبر بالأمر قبل وقوعه، المعلم المنذر به، فأخبر الله سبحانه أن الملائكة تلقي الذكر والإعذار، وتكون بذلك إلى الأمة نذرا منذرين لهم من بطش رب العالمين.

ثم قال سبحانه جوابا لقسمه الذي أقسم به، فيما أقسم به من المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَقْعٍ﴾، يقول عز وجل: إن كل ما يذكركم وتوعدونه من ثواب أو عقاب لواقع حقا، ونازل بكم قريبا صدقا، وإنما أقسم الله بما أقسم به من هذه الأشياء، لعظيم ما فيها من براهينه، وجليل صنعه وتدييره، فبه الله جل جلاله بالإقسام بها، على عظيم الدلائل التي فيها الدلالات على جاعلها، المبنية بأثر الصنع صنع صانعها.

ثم دل على وقت وقوع ما يوعدون، فقال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، أراد أن ذلك الوعد كائن عند كينونة ما ذكر من هذه الأشياء، ومعنى ﴿طُمِسَتْ﴾ فهو: أذهبت وأفنيت وقلعت ومحقت وأيدت، ففנית ومحيت فذهبت.

ومعنى ﴿فُرِجَتْ﴾ فهي: فتحت وقطعت ومزقت فانفرجت. ومعنى ﴿نُسِفَتْ﴾ الجبال فهو: تمزيقها وإفناؤها وإبادتها وإبلاؤها، وقلعها من مواضعها حتى تخلو مواضعها منها، وتضمحل فيفنى ما كان يرى من تجسمها، وعظيم خلقها.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أِقْتَتَ﴾، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، يريد بـ ﴿أِقْتَتَ﴾: أنها قد جعل لها وقت إليه تبلغ، وإياه تنتظر، وفيه تبعث وتشر، ثم بيّن فقال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تعظيما منه لذلك اليوم، وإخبارا

بجليل ما فيه من عظيم الأمور، وشدائد النوازل بأهل الوعيد، وكريم المآب، وعظيم الثواب لأهل الوعد، وهذه الكلمة كلمة تقولها العرب، إذا أثيرت عن يوم تنتظره، جليل الأمر، هائل الخطر، قالت: يوم كذا وكذا، تقول: أي يوم كان حرب كذا وكذا؟ وكذلك: أي يوم يوم الموت، تريد بقولها: أي يوم؟ أي: ما أشد ذلك اليوم وأهوله، وأفدحه لأهله وأعظمه، ومعنى «أُجِلَّتْ» فهو: وعدت وجعل لحشرها ولقائها لربها أجل تنتظره، ومدة تقطعها بالإنظار لبلوغ غايتها، فعند بلوغ غايتها يكون ذلك اليوم الذي يكون فيه بعثها وحضورها، وتُنْجِزُ موعد ربها، بنصرها من كربها، وخائف أمرها، وثواب من أطاعها وصدقها، فيأ جاء به عن ربها.

ألا تسمع كيف يقول فيها يَبَيِّنُ من ذلك اليوم الذي أجلت الرسل إليه، حين يقول: ﴿لِيَوْمِ الْقَاصِلِ ۝﴾، ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْقَاصِلِ ۝﴾، والفصل فهو: القطع بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، وإيصال الوعد والوعيد إلى أهلها، وانقطاع ما كان الخلق ينتظرون من أمرهما.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، يريد: ما أعلمك بأمر ذلك اليوم وهوله، وعظيم ما يكون فيه من أموره، لا علم لك منه إلا بما أعلمناك، ولا تدري شيئاً إلا بما أدريناك.

ثم قال: ﴿وَبَلِّغْهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾، يريد: الويل والعويل والبلاء واللعنة والشقاء يومئذ على المكذبين، ويومئذ فهو: يوم الفصل، ويوم الفصل فهو: اليوم الذي أجلت إليه الرسل.

ثم قال سبحانه توقفاً للمكذبين على جحدانهم، ومكابرتهم لما قد ثبت من الحق في قلوبهم: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُسَعِهِمْ الْآخِرِينَ ۝﴾، يقول: ألم تعلموا إهلاك من هلك من الأولين، ويأتيكم نبأه عن الصادقين، فإذا صح عندهم

عمن صح أنه أهلكهم، فلن يقولوا: إن لهم مهلكا غيرنا، ولا أحدا سوانا، فكما أخذنا الأولين بذنوبهم، فكذا نحن قادرون على أن نأخذ الآخرين منكم ومن غيركم، بتكذيبهم وفسقهم، وجحدانهم للحق الذي جاء من ربهم.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله فعله في المجرمين، وفي كل من تمرد برب العالمين، فقال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، ذكر الوعيد للمكذبين، والإخبار عما يلقونه من الويل في ذلك اليوم.

والويل هو: البلاء الويل، والعذاب الطويل، فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ألم نخلقكم من ماء مهين، والمهين فهو: القليل اليسير، الذليل الضعيف الحقير، ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، والقرار المكين فهو: موضع قرار الماء من الرحم، ونسبي قرارا لقرار ما فيه، وقراره فهو: ثبوته فيه ولزومه له، و﴿مَكِينٍ﴾ فهو: متمكن، ثابت حصين محصن، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، يريد: إلى وقت معلوم، والمعلوم فهو: المفهوم عند الله، والمفهوم عند الله فهو: الأجل الذي أجله في المقام في الرحم، من قليل من الأشهر أو كثير.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ يريد بقوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ يقول: فقدرونا على جعل النطفة في القرار المكين، وإنشائها في الرحم إلى وقت خروجها المعلوم، ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ معنى ﴿نِعْمَ﴾: تعظيم القدرة، وإخبار عن جليل النعمة، وهذه كلمة تقولها العرب إذا مدحت شيئا وأثنت عليه، قالت: نعم الرجل، ونعم الفرس، نعم الشيء. تريد بذلك: ما أكمله، وأبين فضله، وأظهر خيره، فأخبر الله جل جلاله أنه أفضل بقوله: ﴿نِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي: أننا أفضل القادرين، وأعظمهم قدرة.

ثم ذكر الوعيد للمكذبين فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ألم نجعل الأرض كفاتا، ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ وجعلنا فيها رؤوسا شمعحت وأسقنتكم

مَاءً فَرَاتًا ﴿٤﴾، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ توقيفا لهم على أثر صنعه، وتقريرا على ما يقرون به من فعله، ومعنى ﴿كِفَاتًا﴾ أي: ضامة جامعة لكم، إخبارا بها فيها من منازلها وبيوتها ودورها التي تكتفتون فيها وتأوون، وتغلقونها عليكم، تضمكم وتجمعكم، وتكفتمكم أي: تجمعكم أحياء وأمواتا، وكفتمكم أمواتا فهو: ضمها لأبدانهم في حفراها التي هي قبورهم، فكانت الأرض لهم كافة في حياتهم وبعد وفاتهم، وكفتمكم فهو: ما ذكرنا من جمعها وضمها لياهم.

والرواسي الشاخات فهي: الجبال الطامحات المرتفعات، ومعنى ﴿رَوَاسِي﴾ في الثابتات، أي: الراسخات عروقتها، الثابتة أصولها.

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فَرَاتًا﴾ فمعناها: أنزلنا عليكم وأوجدناكم ماء فراتا، والفرات فهو: العذب الطيب الذي لا ملوحة فيه، فكلما ذكر الله عز وجل من فعله بهم، وما جعل لهم بها امتن به عليهم من هذه الأشياء المذكورات، والأمور المبيات، فإنها أراد بذلك سبحانه توقيفهم على ما يعرفون أنه من فعله، ويقرون به أنه من صنعه، فيقول تبارك وتعالى: كيف تنكرون بعض ما ذكرناه لكم من قدرتنا على بعثكم ونشركم؟! وقد ترون فعلنا فيكم! وأثر قدرتنا فيما أظهرناه وجعلناه لكم! ليس هذا منكم إلا كفر وإنكار! ومضادة للحق واستكبارا.

ثم قال: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥﴾﴾ ببعض أمرنا، وبما قد رأوا أعظم منه في قدرتنا.

ثم قال سبحانه: ﴿اطْلُقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٦﴾﴾ فهذا أمرٌ أمر به المكذبين الفاسقين الكافرين الجاحدين في يوم الدين، بالإنتلاق إلى ما كانوا به يكذبون من جهنم وأعلامها، وعذابها وسعيرها.

﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْآلِهَةِ ﴿١﴾  
 فأخبرهم أنهم لا يرون فيها ظلا إلا ما لا يغني من اللهب، ولا يستر من العذاب،  
 فقال سبحانه: ﴿ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾، فمثل لهم ذلك بكل شيء فيه ثلاث  
 شعب، فالشمس تدخل من كل شعبة، ولا يصفو له ظل، ولا يوجد فيه راحة ولا  
 كين، فضرب الله لهم هذا الظل مثلا بعذاب جهنم، يريد أنكم لا تجدون في جهنم  
 راحة من العذاب، كما لا يجد طالب الظل في الموضع الذي فيه ثلاث شعب،  
 والشعب فهي: الفُرَج والثلم والمواضع المكشوفة، فهو: لا يجد فيه فرجا من  
 الشمس، ولا يقدر فيها على ما يجب من الظل؛ لأن الشمس من حيث ما دارت  
 دخلت عليه من قُرْجِه، ووصلت إليه من ثُلَيْه، كذلك أصحاب جهنم - نعوذ بالله  
 منها ومن عذابها، ومن عمل يقرب إليها - حيث ما دار منها، أو طمع بفرج فيه من  
 جوانبها، وجد فيه العذاب له مضاعفا، ولم يجد في ناحية منه من عذابها فرجا.

﴿لَا ظَلِيلٌ﴾ يقول: لا مانع لكم من حرها، ﴿وَلَا يُغْنِي - لكم - مِنَ الْآلِهَةِ﴾  
 يقول: لا يمنع من وصول لها إليها، ولا يستر عنكم شيئا من العذاب المكتوب  
 عليكم.

ثم أخذ سبحانه في وصف جهنم وشررها، وعظيم ما جعل الله عليه من  
 فطرتها، فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ كَأَنَّهُ جِئَتْ صَفْرًا ﴿٢﴾، والقصر  
 فهو: الدار المبنية الكبيرة المرتفعة، والجماليات الصفر فهي: الجبال الصغار المنفردة  
 من الجبال التي تكون في قيعان الأرض، تسميها العرب: الطراب <sup>(١)</sup>، واحداها:  
 ظرب، وأهل اليمن يسمونها: جمالات، فشبّه الله سبحانه شر جهنم التي تطير منها

(١) الطراب: قال في لسان الميزان: الطرب: هو الجبل الصغير، والجمع: الطراب.

عند استعارها بأهلها، بالقصور والجلال الملهمات.

ثم ذكر الوعيد بالمكذبن بوعدده ووعيده، فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. ثم أخبر بما يكون منهم في يوم الدين، من ترك المكابرة لليقين، والمجاهدة بآيات رب العالمين، فقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿﴾، يقول: لا ينطقون منطلقاً برفعهم، ولا يتكلمون بكلام يقبل منهم، ومعنى ﴿يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا يؤذن لهم في التوبة فيتوبون، والرجعة والأوبة إلى الحق فيؤوبون ويرجعون.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك اليوم لا يجوز فيه توبة، ولا يقبل من ظالم معذرة؛ لأنه يوم جزاء على ما تقدم من الأفعال، وليس بأوان عبادة ولا عمل فيعملون، ثم كرر الوعيد للمكذبن، بقول رب العالمين، فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم أخبرهم بوقوع اليوم الذي كانوا به يكذبون، فقال: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصْلِ﴾، ويوم الفصل فهو: يوم القطع بينهم بالحق، وهو يوم القيامة والحشر، ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ وَالْأَوَّلِينَ ﴿﴾ يقول: جمعناكم في هذا اليوم والأولين، والأولون فهم: الذي كانوا قبل عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله من الأمم، فسمى الله تبارك وتعالى من كان قبل محمد صلى الله عليه وآله أولين، وسمى الله من كان في عصر محمد صلى الله عليه وآله على وعلى آله ثم إلى آخر الدنيا آخرين.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ يقول: فإن كان لكم علي سلطان أو مقدرة، أو كنتم تستطيعون تغيير شيء من فعلي بكم، أو دفع عظيم صمني فيكم، فادفعوه لنضادوني بذلك، وإن كنتم تطيقون إدخال ضرر علي فادخلوه بمكيده تكيدونها، أو بمجاهرة تمجأرون بها، وإنما أراد الله سبحانه بهذا

القول توقيف أعدائه على ضعفهم وشدة تكبرهم، وقلة منفعة شركائهم لهم، وأوليائهم الذين كانوا يطيعون من دون الله لهم، فقرهم على الإستسلام، وأوقفهم على صدق ما جاء به محمد عليه السلام.

ثم قال: ﴿وَيَلْزِمُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣١﴾﴾ فأخبر أن الويل والعذاب الطويل عليهم وعلى نظرائهم من المكذبين، من الأولين والآخرين.

ثم ذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، أمر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ أَلَمَّتْغِي فِي ظِلِّلٍ وَعِيُونٍ ﴿٣٢﴾ وَقَوَاكِمَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٣٣﴾﴾، الظلال فهو: الظلال الممدود الذي قال الله سبحانه: في ﴿ظِلِّ مُتَدَوِّدٍ ﴿٣٤﴾ وَمَاءٍ مُّسْكُوبٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٠-٣١]، وهي ظلال الأشجار والقصور، وما ظللهم الله به من غير ذلك من الأمور، والعيون فهي: المياه الجارية الكثيرة المتفجرة، والفواكه فهي: ما يعرف من الفواكه الطيبات، من ثمار الأشجار الثمرات، وصنوف الأنهار المتصنفات، المتشابهات من الطيبات وغير المتشابهات، التي تشتهيها أنفسهم، وتدعوهم إليها شهواتهم، فهي موجودة غير مقطوعة، مبذولة غير ممنوعة، عطاء من الله غير مجذوذ على صالح أفعالهم، وما قدموا في حياتهم من مرضيات أعمالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، يقول سبحانه: تنعموا بالماكل الطيبة، المشارب اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾ أي: جزاء بفعلكم، فمعنى ﴿هَنِيئًا﴾ فهو: مريا طيبا لا آفة فيه ولا داء، ولا تخافون منه شيئا من الأذى، كما كنتم تخافون في مآكل الدنيا، فهذا معنى قول الله: ﴿هَنِيئًا﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَّلْنَا لَكَ نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ يخبر أن هذا فعله وحكمه في المحسنين، والمحسنون فمعناها: المحسنون إلى أنفسهم بما عملوا من الطاعات التي

استوجبوا بها الثواب والإحسان، من الواحد ذي الجلال والسلطان، فكانوا بذلك محنين إلى أنفسهم، مطيعين لربهم، فاستوجبوا بطاعة الرحمن ما صاروا إليه من الفوز والنعيم، والخير الكريم، والثواب العام المقيم.

ثم كرر ذم المكذبين احتجاجاً عليهم، وتوقيفاً على جهلهم وتعتهم، وقطعاً بذلك لحجتهم، فقال: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦٦﴾ كُلُّوْا وَتَمَتُّعُوْا قَلِيْلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُوْنَ ﴿١٦٧﴾﴾، يقول سبحانه: تمتعوا في دنياكم بأكلكم، وتافه لذاتكم، فإن ذلك قليل منقطع لا يتصل بنعيم الآخرة، ولا تذوقون بعد خروجكم من الدنيا نعمة فاخرة؛ لأنكم مجرمون، والمجرم لا آخرة له كما تكون الآخرة مع الدنيا للمؤمنين، وكما تتصل كرامة الدنيا بكرامة الآخرة للمتقين.

ثم كرر ذم المكذبين فقال: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ ثم ذكر ما كانوا فيه في الدنيا من كفرهم، وترك قبول ما يؤمرون به من طاعة ربهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آزَكُّعُوا لَا يَرْكَعُوْا ﴿١٦٩﴾﴾، يريد بـ ﴿آزَكُّعُوا﴾: اخشعوا لله واخضعوا، ولا تتجبروا ولا تكبروا، وأدوا فرضه عليكم، فأراد عز وجل بالركوع هاهنا - والله أعلم - التذلل لله والخضوع، والإقرار بأمره والخشوع، والقبول لما به يأمرهم، والإنهاء عما عنه ينهاهم، وكذلك قال في أصحاب موسى عليه السلام: ﴿أَدْخُلُوا آتِبَابَ سُجْدًا﴾ [البقرة: ٨٥، النساء: ١٥٤، الأعراف: ١٦٦]، يقول سبحانه: خشعوا خضعا ذاكرين الله مقدسين، شاكرين على نعمه، ذاكرين له بصنائه، عارفين بقدرته وجلاله، مقرين بأن النصر الذي رأيتموه من قِبَلِهِ، وأنكم لم تدخلوا إن دخلتم إلا بتقويته إن أطعتم فقواكم، فلو كانوا فعلوا ما أمروا به، وقالوا ما دلوا عليه من قول الحطة لكانوا قد نصروا نصرا عزيزا، وحطت عنهم لذلك الذنوب المتقدمة، ووجبت لهم الكرامة المتأخرة، ولكن خالفوا وأبوا وعتوا، فذاقوا وبال أمرهم إذ

عصوا، فذلك معنى ما ذكر الله سبحانه في آخر والمرسلات من الركوع، وهو عندي على معنى ما أمر الله به قوم موسى عليه السلام من السجود، أراد بها كليهما - والله أعلم وأحكم - التذلل لله والخشوع له، والمعرفة به والخضوع.

ثم كرر ذم المكذبين تنبيها في الدنيا لهم، واحتجاجا بذلك عليهم، فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بأي قرآن أو أمر أو نهي بعد هذا القرآن المبين، الساطع نوره، الظاهر برهانه، يؤمنون؟ ومعنى ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فهو: يصدقون ويقررون، فأخبرهم سبحانه بما قال من ذلك، أنه لا حديث يعدل هذا الحديث، والحديث فهو: القرآن والنور، وما جاء به من فرائض الدين في كل الأمور.





# تفسير سورة النبأ





## تفسير سورة النبا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال عليه السلام: معنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتأويلها، أي: بسم الله يتبدأ كل شيء، وهو المذكور قبل كل شيء، ومعنى ﴿اللَّهُ﴾ فهو: الإله الواحد الذي لا إله معه، ومعنى ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فهو: المتعطف على الإنسان، العائد عليهم بالعفو والإحسان، المتفضل عليهم بالبر والإمتنان، الرازق لهم على كل حال، كانوا فيه من هدى أو ضلال.

﴿الرَّحِيمِ﴾ فهو: البر الرفيق المنقذ لهم بالدلالة على ما فيه نجاتهم، الدآل لهم على ما فيه صلاحهم، المحذر لهم طريق التهلكة، المجنب لهم عن سبيل الهلكة، السالك بهم ابواب الكرامة والرحمة، الداعي لهم إلى ما فيه السلامة والنعمة.

قال الله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: ﴿عَمَّ﴾ يريد: عن ما، فأذهب التوّن إدغاما في الميم لتقارب مخرجهما، وكذلك تفعل العرب بما كان كذلك، تطرح الألف التي مع الميم استخفافا لها، والعرب تفعل ذلك بالألف تطرحها وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، وكذلك تفعل بـ(لا) كما هي، قال الله سبحانه في طرح الألف وهو يريد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمٍ أَقْبَمَ﴾ [القيامة: ١]، وإنما معناه: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرحتها وهو يريد: فخرج معنى الكلام معنى نفى، وإنما معناه معنى إيجاب.

وكذلك قال الله سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، فطرحت الألف استخفافا لها، وإنما معناه: ألا أقسم بهذا البلد.

وقال سبحانه في موضع آخر أثبتها فيه وهو لا يريد بها: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، فخرج معنى اللفظ معنى شاك، حين ثبت الألف، وإنما معنى الآية: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون، فأثبت الألف لغیر معنى استخفافا لها؛ لأن العرب تفعل ذلك، وهي لغتها، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم.

وكذلك قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في طرح الألف واللام معا، من الموضع الذي لا بد منهما فيه، فيما ذكر من فدية الصيام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، فخرج اللفظ لفظا يوجب الفدية على من أطاق الصيام، وإنما المعنى: وعلى الذين لا يطيقون فدية طعام مساكين، فجعل على من لا يطيق الصيام - من الشيخ الكبير الغاني، والمعجوز الكبيرة الغانية، اللذين لا يطيقان الصيام ولا يروحان تجديد قوة، لما قد زال عنها من القوة، بدخول الهرم والذهاب، وزوال الشدة والشباب - الصدقة على مساكين بدل كل يوم، حتى ينقضي شهر الصوم، فيكون كل واحد منهما يتصدق على ثلاثين مسكينا، بدل الثلاثين يوما.

ومقدار ما يتصدق به فهو: مُدٌّ بِرُّ على كل مسكين عن كل يوم، أو غير البر مما يأكل أهل تلك الفدية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، وإنما يريد: وعلى الذين لا يطيقونه، فطرحها وهي أصلية في المعنى؛ لأنها لغة العرب، وبلغتهم خاطبهم الله سبحانه.

وكذلك أثبتها في موضع ولم يردّها، ولا أصل لها في المعنى، وإنما جاءت ظاهرة في اللفظ، وذلك قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ عَلَّمَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]، فقال: ﴿لَقَدْ عَلَّمَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، فخرج معنى اللفظ معنى نفى، وإنما معناه معنى إيجاب، أراد الله سبحانه: لأن يعلم أهل الكتاب أن لا

يقدرّون على شيء من فضل الله، فأثبتها وهو لا يريدّها، فخالف اللفظ المعنى عند من لا يعرف تفسيرها، ولا يقف على معانيها.

وفي الدليل على أن هذا الفعل لغة من لغات العرب، أفصح لغاتها عندها، وأثبتها في ألسنتها، قول شاعر من شعرائهم في طرحها وهو يريدّها:

يوم جدود لا فضحتكم أباكم      وسالمت والخيل يدمى شيكيميا<sup>(١)</sup>

فقال: لا فضحتكم أباكم، فأثبت فيها لا، وليس يريدّها، ولا لها معنى، وإنّا معناها: يوم جدود فضحتكم أباكم.

وقال آخر من شعراء العرب في طرحها وهو يريدّها:

نزلتم منزل الأضياف منا      فعجلنا القرى أن تشتمونا<sup>(٢)</sup>

فطرح لا كما طرح اللام، فخرج معنى الكلام معنى إيجاب، وإنّا معناه معنى نفى، أراد لئلا تشتمونا، وطرح لا وهو يريدّها، فعل ذلك يخرج معنى قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، فطرح النون من عم، لما ذكرنا من الحجة فيها أولاً، وطرح الألف من ما لما ذكرنا من استخفاف العرب لها، واستعمال ذلك في لغتها، فبقيت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ مشددة، شددت لادغام النون في الميم.

والمعنى فيها: عن ما يتساءلون، غير أن اللغة والإعراب حذف منها الحرفين النون والألف، يريد تبارك وتعالى بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عم يستخبرون ويتذاكرون، ويتراّدون ويسألون، توقيفا لنبيّه صلى الله عليه وعلى آله على ما يفعلون، وعلى ما فيه يتراّدون.

(١) لم أقف على هذا البيت.

(٢) من معلقة عمرو بن كلثوم، بلفظ: فأعجلنا.

ثم قال سبحانه: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿١﴾، فأخبره صلى الله عليه وآله أن الذي كانوا عنه يتساءلون، وفي أمره يترآدون، هو النبي العظيم الذي هم فيه مختلفون، والنبا هاهنا الذي هم فيه يختلفون فهو: ما كان ينبتهم به رسول الله صلى الله عليه وآله ويعلمهم به، من بعثة القبور، ومن النفخ في الصور، ومن حشر العباد، وتبديل الأرض والبلاد، والحساب والعقاب، والمناقشة والثواب، فكانوا في ذلك يختلفون، ومعنى يختلفون، أي: تختلف أقاويلهم في التكذيب به، وتصنيف معاني رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله فيه، فكانت طائفة تقول: إن إنباء رسول الله صلى الله عليه وآله لهم بهذا القول سحر، وطائفة تقول: إن إنباءهم به شعر وظنون، وطائفة تقول: إن ذلك كله منه كهانة وجنون، فهذا معنى اختلافهم في النبأ، والنبأ فهو: الإنباء، والإنباء فهو: الإخبار والتبيين، والإعلام للعالمين بما لا يعلمون، ولا يتوهم أحد ذو فهم ونظر، وتميز وبصر، أن اختلافهم فيها كان ينبتهم به صلى الله عليه وآله وعلى آله من ذلك ويقصه عليهم ويقرؤه، إختلاف يكون بعضه إقرارا بما كان يقول، وبعضه إنكارا لهذا القول، بل كلهم كان منكرا له مكذبا غير مقرر، وإنما معنى الإختلاف منهم، هو <sup>(١)</sup>: إختلافهم في تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، والجحدان لما جاء به صلى الله عليه وآله من عند الله.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾، معنى ﴿كَلَّا﴾: معنى الإنكار لقولهم الذي قالوا، وإنكار لما هم فيه من تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن كَلَّا هي كلمة جواب رد على متكلم بغير صواب، إنكارا لقوله، وردا عليه في كذبه،

ودفعا لما يأتي به من جهله، تستعملها العرب في ذلك من محاورتها، وتلفظ بها في لغاتها، فقال: ﴿كَلا﴾ ما جاءوا بحق، ولا تكلموا بصدق.

ثم ابتدأ الكلام من بعدها بالوعيد لهم على كذبهم، وحدثهم للنبا العظيم الذي أنبأهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته من بعثهم وحشرهم، فقال: ﴿سَيَقْلَمُونَ﴾ أي: سيعلمون صدق ذلك وحقه، ويعاينون ما ذكر من كينونة البعث والحساب، وما أوعدوا من النكال<sup>(١)</sup> والعقاب.

ثم رجع سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في إبطال قولهم، والتكذيب لهم في جحدانهم، للنبا العظيم، وإبطالهم الوعد والوعيد الجسيم، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾، فكرر الجواب لهم لنفي الصدق عنهم، وإيجاب الباطل عليهم، والتكذيب لهم في قولهم، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ أي: باطل ما أتوا به وزور، ومحال ذلك وفجور.

ثم رجع إلى الوعيد فقال: غِبْ فَعَلَهُمْ<sup>(٢)</sup>، ويجدون ما أوجبنا من الوعيد عليهم، في تكذيبهم وشكهم، ودفعهم ما ذكرنا لهم من نشزهم، وشرحناه على لسان نبينا من الأنباء العظيمة، والأسباب الجليلة، التي لا بد من وقوعها، وكيونتها ووضوحها، من عجائب أفعالها في خلقنا، عند نفخنا في صورهم، وإخراجنا لهم من أجدانهم، وإبصالتنا لهم، ما حكمنا به لهم وعليهم، من كريم الثواب، وأليم شديد العقاب.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا﴾، والمهاد فهو: القرار الممهد، والممهد فهو: المسوى المجرد، الذي يضطجع الناس عليه، ويأوون فيه وينشأون عليه، من ذلك ما تقول العرب لمضطجع الصبي وموضعه ومأواه: مهد الصبي،

(١) في (ج): بالنكال

وهو شيء يُسَوَّى له من الخشب، يغذى فيه، ويُجعل عليه، يكفته ويؤويه، ويشده ويقويه، ويستريح إليه، فجعل عز وجل الأرض للخلق مهادا يأوون إليها، ويسكنون فيها، فلما أن كانت الأرض لهم مأوى ومكفنا يمهدون فيها، ويسكنون عليها، سميت: مهادا، إذ كانت لهم مأوى، كما سمي موضع الصبي: مهادا، إذ كان له مضجعا ومأوى.

ثم قال: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾، فأخبر عز وجل أن الجبال أوتاد للأرض تمنعها من الميْدَانِ بهم، وتوقفها عن التزعزع بمن فيها منهم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، يقول: أن في الأرض للزومها لها، ومنعها بها من الميْدَانِ بأهلها، بالأوتاد اللازمة لأطنايب البيوت، المقيمة لها على الثبوت، اللازمة المانعة لها عن الزوال، فجعل سبحانه ما جعل من الجبال للأرض أوتادا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، فأخبر بعجيب صنعه، وما أظهر من فطرته، وما أرى الخلق من محكم تقديره، في خلق المخلوقين أزواجا، والأزواج فهي: الذكر والأنثى الذي يكون منهما نسل الأدميين، ويتناسلها تكون كثرة المخلوقين.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، والنوم فهو: الرقاد، والرقاد فهو: خروج الروح من البدن، وبقاء النفس التي منها النَّفْسُ في مقرها من البدن، وهو شيء جعله الله وركبه في الإنسان، مِنَّةٌ منه سبحانه عليه، وإحسانا منه سبحانه إليه، لما في النوم من راحة البدن، وإراحة الجوارح كلها، وإراحة النفس في كل وجه ومعنى.

من تلك الراحة: راحة البدن من تعب، وإقباله وإدباره، وراحة العين من النظر والإصعاد والتصويب، وراحة الرجلين من المشي، وراحة الأذنين من السمع و

الإستماع، وراحة اللسان من القال والقليل، وراحة النفوس من الهموم والغموم، وراحة الخائف من وَجَلِيْ خوفه، وللمرعوب من رعب فزع، وكل ما شرحنا من هذا القول ومثله، ففي النوم راحة من ألمه، وفرج من فادح عمله؛ لأن النوم يزول ذلك كله، ويعرف بزوالان الروح من البدن، وزوال العقل الذي به يميز ذلك كله، ويعرف به ألمه، فإذا زال صار الإنسان بزواله، في الغفلة عن ذلك [كله]<sup>(١)</sup>، كالميت المفارق لأرضه.

وفيا ذكرنا من خبر النوم وفضله، وجزيل مواهب الله فيه ومَنِّه، وما يزول به عن كل أحد به من فادح همه، ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يُعَذِّبُكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، يقول: تطمينا لقلوبكم، وترويحاً به عنكم، إذ بوقوعه يزول عنكم معرفة ما أنتم فيه من الروع والهول، فتبارك الله العزيز ذو الطول.

السيات فهو: الإطراق والخفات، والهدوء والسكون في الحالات.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾، يقول: غاشيا لكم ملبسا عليكم ما يلبسكم من ظلامه، ويقع عليكم عند هجومه من اذْهِبَاوْهُ، فسياء الله لباساً؛ إذ كان يُلبس الأرض ظلمته، ويغلبها اسوداده، فيستر منها القريب الداني، ويوارى معها بظلمته المختفي المتواري، فلما أن ستر بظلامه ما ستر، وألبس الأرض ما حجب الناظر به عن النظر، وستر عنه ما يكشفه النور من الخبر، قيل: لباس ملبس، وكذلك تقول العرب: أرخى الليل ستره، وضرب الليل بسجفه<sup>(٢)</sup>، وألبس الليل الأرض ثوبه، تريد: ألبسها من ظلمته ما كان سترها، وحجاباً دونها، فسمي بذلك الليل لباساً.

(١) سقط من (أ) و (ج): كله.

(٢) السجف: الستر.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (١)، يريد سبحانه: متعيشا للناس، ومكتسبا يكتسبون فيه المعاش، ويطلبون فيه المرائش (٢)، فلما كانت المعاش من الصناعات وغيرها، مما يكتسب به المعاش لا تكون إلا في النهار، قال الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾، إذ جعله للمعاش سببا، ووقتا ومطلبا.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَنَبِّئْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (٣)، يعني بالسبع الشداد: السموات المبنيات، وهن الطرائق المركبات المجعولات، فذكر سبحانه ما جعل من السماوات، التي جعلهن دليلا عليه وآيات، لما (٤) فيهن وفي من يسكنهن من الدلالات المنيرات على الجاعل لهن، المقدر لتركيبهن، المسك بلا عمد لهن.

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (٥)، والسراج الوهاج فهو: ما جعل الله من الشمس والقمر النيرين، السراجين الوهاجين، وما جعل من النجوم الوهاجة المتوقدة، فأضاء ما بين المهاد، وبين السبع الشداد، من الهواء المدلم، المتكاثف المظلم، بمنور السراج الوهاج، الذي جعله في الليل والنهار سراجا، والسراج فهو: المضيء المنور، الذي يسرج بضوئه وينير؛ لأن معنى السراج فهو: المضيء المنير، تقول العرب: أسرج السراج، تريد: نَوَّزَه وأضته، واجعل فيه نورا ساطعا، حتى يكون بتنويره سراجا وهاجا، والوهاج فهو: المتوقد الملتهب.

ثم قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ (٦)، والمعصرات فهن: السحاب الثقلات، العاصرات لما فيهن من الماء، وعصرهن للماء: حبسهن وحملهن له، وإسماكن إياه، فَسَمَّيْنَحَبسهن لما فيهن من الماء وإسماكن له: معصرات،

(١) في (ج): المعاش، ويطلبون فيه المرائش.

(٢) في جميع المخطوطات: ولما. ولعل الصواب ما أثبت.

ومن ذلك ما سُمِّيَتِ العصر عصرا، لما يعصر بها، ويجس عن الظهر الذي قبلها، فسميت عصرا للإمساك عنها، والتعصير بها، والعصر فهو: الحبس، ومن ذلك ما تقول العرب في كلامها وأمثالها، لحابس الشيء إذا حبسه عنها: كم تحبسه وتعصره، وتقول: أكثرت عصر هذا الشيء، أي: تزيد حبسه وإمساكه.

وقد قيل: إن معنى ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ هو: العاصرات لما فيهن من الماء حتى يخرج من خللهن، وشبه ذلك بعصر الإنسان للشيء وغمزه، حتى يخرج ما فيه من مائه، والقول الأول أحسن القولين عندي وأصوبهما، وأولاهما بالحق وأشبههما.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ أهبطنا، ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، ومعنى ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: كثيرا جرارا، قوي السيلان، كثير المطلان، يشج في الأرض ثجا، ومعنى يشج ثجا أي: يدفع دفعا كثيرا أتياه معا، وتدافع سيوله جميعا، يعضد بعضه بعضا، ويقوي كل آخر منه أولا، فهو: لتلاحقه وكثرته يشج ثجا، وتدافع تدافعا، ويتحامل على مالمقيه من الأرض تحاملا، يقلع بتحامله وثجه كل مانبت من الأشجار في مجره، أو اعترض له في وجهه.

ثم قال سبحانه: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾، فأخبر سبحانه أنه أنزل هذا الماء ليخرج به ما ذكر.

ومعنى ﴿نُخْرِجَ بِهِ﴾، هو: نبت به، ونجعل منه وبركته، والحب فهو: كل حب يؤكل أو يتفع به، مما يتولد في أشجار الأرض بالماء، كائنا ما كان من الأشياء.

﴿وَنَبَاتًا﴾ فهو: ما كان غير الحب من أوراق الأشجار المختلفة، من أفنان الحشيش النابتات، وغير ذلك من زاهرات الأرض المورقات.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، الجنات: الحدائق المختلفة، المشبكة فيها الأشجار

المثمرات، من الفواكه كلها المأكولات، الملتذ بأكلها، المتعم بطعمها، وغير ذلك من الأشجار الملتذ برائحتهم، المتفكه بشمهم، من الرياحين وغيرها من الأشجار المنورة، المختلفة بنوارها<sup>(١)</sup> التي تجري من تحتها المياه، قد فجرت فيها أنهارها تفجيراً، وأبهجت سبلها سبلاً سيلاً<sup>(٢)</sup>، وأعد فيها مما اتخذ من مجالس دورها، ومنزهات قصورها، فاختلفت<sup>(٣)</sup> هذه الجنان لأهلها، وتزينت لهم بما فيها، فإذا كانت كذلك، وكان السبب فيها على ذلك، فقد انتظمها اسم الجنان، وفي ذلك ما يقول الرحيم الرحمن<sup>(٤)</sup>: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، فسمي<sup>(٥)</sup> ما كان على ما ذكرنا من الأرض: جنانا، وإنما سمي<sup>(٦)</sup> ما كان من الأرض كذلك: جنانا، لما فيها من الملك والنعيم، والسرور والخير الكريم، فشبهت في الاسم بالجنان التي ذكر الله في الآخرة التي فيها النعيم، الذي هو النعيم حقا، المقيم أبداً، فاشتبه في الاسمين، وتفاوتا - والله الحمد - في المعنيين والحالين والصفتين.

وكيف لا تتفاوت وكل ما في الآخرة فدائم أبداً، لا يعدم صيفا ولا شتاء، ولا يكون له أمد يبلغه وانتهاء، نعيمها مقيم، وملكها سرمد كريم، وما في الدنيا فيزول

(١) كذا في المخطوطات.

(٢) في (أ): سبلاً وسيلاً. وفي (ب): سبلاً سيلاً.

(٣) في (أ): فاختلف.

(٤) في المخطوطات: الرحمن الرحيم. ولعل الصواب كما أثبت.

(٥) في (أ) و (ب): فسمى.

(٦) في (أ) و (ج): فسمى.

مع زوال الأزمنة، ولا يدوم منه شيء أبداً، ما أكل من لذيق مأكليها إلا عدم في غير هذا الوقت من الزمان، فيقلب مع تقلب الأزمنة، فلا يوجد منها ثمرة صيف في شتاء، ولا يوجد ثمرة الشتاء في الصيف أبداً.

هذا مع تصرف ذلك كله وانقضائه، وخروج أهله منه بالموت وفنائه، وترك ماجعوا لذلك لغيرهم، وما يكالوا عليه لورثتهم.

وكلمنا ذكره الله سبحانه من قوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَبَاسًا﴾... إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ ﴿﴾، فإنما أراد الله تبارك وتعالى بذكر ما ذكر: احتجاجاً على المكذبين بالبناء العظيم، بما جعل من ذلك كله وركب فيه، من الدلائل الدالة عليه سبحانه، والشاهدات على تصديق البناء العظيم، الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون، فأخبر جل وعلا جلالة، عن أن يحويه قول أويله، أن في أقل مما رأوه من جعله، وعانوا من أثر خلقه، دليل على عظيم قدرته، وصدق وعده ووعدته، وأن الذي عانوا من أثر صنعه في هذه الأشياء، أعظم في بيان القدرة ومضي الإرادة من نشر الموتى، وما نبأهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأشياء، التي ذكرها في يوم المعاد، وأنذر بها ورهب جميع العباد.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ﴿﴾، ويوم الفصل فهو: يوم الجزاء والقطع بين العباد، والقضاء بينهم فيما كانوا فيه مختلفون، وبه من النبا يكذبون، فسمى الله سبحانه ذلك اليوم: يوم الفصل؛ ليفصل الأمور، وتفصيلها فهو: قطع ريبها، وبيان أمرها، وثبوت صحتها، عند من كان جاحداً لها.

ومعنى قوله: ﴿مِيقَاتًا﴾ أي: موعداً وعائداً، وغاية ومدى، وإليه يوعدون،

وفيه يثابون ويعاقبون، والميقات فهو: الوقت الذي إليه يؤخر الخلق فيها يوعدون، وإليه يجتمعون، وفيه يحصلون، وإليه يجرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، يريد بقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، أي: أن هذا الميقات واليوم الذي فيه الميعاد، هو يوم ينفخ في الصور، والصور فهو: صُورُ الأدميين، فذكر سبحانه أنه ينفخ فيها بعد فنائها وبلائها، روح الحياة بعد القضاء والبل، فتعود من بعد ذلك صورا أحياء، معتدلة الخلق والبناء، كما كانت عليه من الخلق أولا.

ومعنى ﴿يُنْفَخُ﴾ هو: يجعل فيها الحياة، ومعنى يجعل فيها الحياة فهو: ترد إليها الأرواح في الأجساد المبتدأة.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه، فيما أمر به الملائكة عليهم السلام من السجود له، عند إظهار ما يظهر من قدرته في خلق آدم صلى الله عليه، حين قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، من: ٧٢]، قال: نفخت فيه من روحي، يقول: جعلت فيه وركبت وسويت وخلقته فيه روحا به تمامه، وبكينوته فيه قوامه، ثم نسه إليه؛ لأنه خلقه وفعله، كما قال: ﴿يَنْعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فنسبهم إليه إذ هم فطرته وخلقته، وفعله وأمره، قال الله سبحانه في مريم عليها السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَنْفَخُنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، يريد: جعلنا في الرحم ما جعلنا من خلقنا، وخلقنا فيه من غير ذكر ما خلقنا من عبدنا، الذي جعلناه آية لعبادنا، ثم نفخنا في ذلك الخلق روحا، ونفخنا فهو: ركبنا وجعلنا وأدخلنا، وثبتنا فيه روحا به كمال ذلك الخلق المخلوق، وقوام ذلك العبد المجعول.

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، والأفواج فهي: الجماعات الكثيرات الآيات معا معا، زمرا زمرا، يقول: تأتون إلى الميقات الذي وقَّت لكم، والموضع المحشر الذي جعل لكم محشرا، وموضعا للحساب وموقفا.

ثم قال: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا، يخبر سبحانه عن تقطع الساء وتفتحها، وتقلعها وعزقها، حتى تكون بعد جودة الإنحباك قطعاً، وبعد الإستواء أبوابا مفتحة ومزقا، حتى تكون كالمهل السائل، بعد العظم والتجسيم الهائل.

ومعنى قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، وتسيرها فهو: نيفها وإذهابها، والنسف فهو: القلع والإهلاك، والإزالة عما هناك، حتى تعود أمكنتها قاعا صافصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمنا، والقاع الصفصف فهو: الموضع الأملس المرت الخالي من كل شيء، الذي لا يستتر منه جانب عن جانب، ولا يتوارى فيه صاحب عن صاحب، والعوج فهو: التفاوت في الإرتفاع والإنخفاض، والأمت فهو: الاختلاف.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، والمرصاد فهو: المرصد، فأراد بقوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: أنهم يرصدون لجهنم، وأنها لهم مرصد، أي: مكانا وموضعا لا معدل لهم عنه، ولا منحرف لهم منه، ولا مصرف ولا مراغ، ولا ملاذ سواها، ولا مساغ غيرها، وفي ذلك ما تقول العرب: مرصد فلان مكان كذا وكذا، تريد: مكانه الذي يرصد فيه.

ومعنى يرصد هو: ينتظر فيه، حتى يأتيه ويصير إليه، فيصادفه فيه راصده، ويجده فيه طالبه، وهو المكان الذي لا مراغ له عنه، ولا يوجد إلا فيه، فأراد بيبحانه

بقوله: ﴿كَأَنَّ مِرْصَادًا﴾ أي: كانت مكاناً وموقلاً، لا بد للطاغين منه، ولا متصرف لهم عنه.

ألا تسمع كيف بين سبحانه بقوله: ﴿لَلطَّغِينِ مَنَابًا﴾، أي: للعاتين الجبارين المكذبين معادا، وموقلاً ومكاناً ومقراً، يأوون فيه، ويصيرون إليه، والأوب فهو: الرجوع، والمآب فهو: المكان الذي يصار فيه، ويرجع إليه.

﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ فاللايث هو: المقيم، ومعنى ﴿لَيْثِينَ﴾ فهو: مقيمون، الأحقاب فهو: الدهور الدائمة، وقد قيل: إن واحد الأحقاب حقب، وإن الحقب ثمانون سنة<sup>(١)</sup>، فإن يكن ذلك كذلك، فهي أحقاب متوالية متواترة متصلة، لا آخر لها ولا انقطاع، ولا فرغ لمدتها ولا فناء؛ لأن الله سبحانه ذكرها أحقاباً، ولم يذكر لها غاية ولا مدى، فدل بذلك على أنها أبداً دائماً سرمداً.

(١) أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حيد، وابن جرير، وابن المنذر، عن سالم بن أبي الجعد قال: سأل علي بن أبي طالب هلالاً الهجري: ما تمدون الحقب في كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل ستة منها اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وأخرج سعيد بن منصور، وأحكام وصححه، عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون سنة.

وأخرج البزار، عن أبي هريرة رفعه ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب: ثمانون سنة. أخرجه هناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون سنة، والسنه ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كالف سنة مما تعدون. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله.

وأخرج عبد بن حيد، عن أبي هريرة ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ثمانون عاماً، اليوم منها كسدس الدنيا. الدر المنثور ٨/ ٣٩٥.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ يريد: لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تُبرد عنهم كربهم، ولا تنفس عنهم ألمهم، ولا تكشف عنهم حرارتهم، ولم يرد هاهنا بقوله: ﴿بَرْدًا﴾ وَقَعَ البرد وحسه، وإنما أراد بالبرد تهوين الأمر، لأن العرب تقول: برد عني غمي كذا وكذا، وبرد عني ألم عتلي كذا وكذا، يريدون: هون عني وسهل علي، وفرج كرب كذا وكذا، لا أنها تريد بقولها: أنه أصاب القاتل لذلك برد أبرد جلده، فهذا معنى ما ذكر الله سبحانه من البرد الذي لا يذوقه أهل جهنم، يريد: أمرا يسهل عليهم عذابهم، ويفرج عنهم كربهم، من أمر يطفى عنهم حر جهنم، وأمر يهون عليهم عظيم الألم.

والشراب الذي لا يذوقونه فهو: الشراب البارد الهني، الطيب المريء، فذكر الله سبحانه أنهم لا يذوقون من ذلك الصنف شيئا؛ لأنه صنف كرامة، من الله لمن سقاه إياه ونعمه، وأن شرابهم هو الحميم الذي ذكر الله أنه: ﴿يَنْجَرَعُهُ وَلَا يُكَادُّ يُسِيقُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧]، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، فالحميم فهو: الماء المحمى المسخن، الذي قد منع الأيدي عن مسه، لشدة حموه وحره، والغساق فهو: الذي قد غل حتى رمى بِجُبِّهِ<sup>(١)</sup>، وتطابير نضحه<sup>(٢)</sup> من جوانب إنائه، فهو: تطابير من الإناء لشدة الغليان.

﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ يقول: جزاء وفقا مثلا بمثل، بالسوأة سوأة، وبالعصية

(١) الْجُبُّ: الجباب شيء يملأ أكواب الإبل فيصير كأنه زيد. والجباب أيضا: الهدر الساقط الذي لا يطلب.

(٢) في (أ) و (ج): نضجه. مصحفة.

نقمة، وبالمخالفة عذاباً، فهذا معنى الوفاق، أي: أنكم عُدبتم بفعلكم، وتُكلتم بجرمكم، ولم تظلموا في شيء من أموركم، وكان ذلك منا جزاء فعلاً على فعلكم، ومجازاة على صنعكم، فأذقناكم من عذابنا، ما جعلناه في حكمناها به جزاء لمن عَدَدَ عنا، فكان منا حقاً حقاً، ولم نسأله ولم نعذبه تجاهلاً ولا ظلماً، ولا ابتداءً ولا غشياً، بل كان جزاء بعد الإعذار والإنذار، والاحتجاج والإمهال.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، يقول سبحانه: لا يأملون محاسبة على فعلهم، ولا يتوهمون مجازاة على صنعهم، ولا يوقنون ما أخبرناهم به من شرهم، ولا يصدقون شيء مما أنبأنا به من الوعد والوعيد.

ومعنى ﴿يَرْجُونَ﴾: يأملون في مخرج الكلم هاهنا هو: لا يخافون ويتقون ويخشون ﴿حِسَابًا﴾، أي: محاسبة منا على ما قدموا، ومجازاة على ما صنعوا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾، يقول جل جلاله: وكذبوا بما رأوا وأبصروا من الآيات الدالات علينا، وجحدوا بما بينت لهم حجتنا، المركبة في صدورهم، من العقول المجعولة فيهم، من دلائل الحق، وبراهين الصدق، في ما يرون من الآيات، من عجائب الصنع في الأرضين والسموات، وغيرهن مما حمل الله من المجعولات، وفطر سبحانه من بدائع المفطورات، اللواتي يشهدن لخالفهن، ويدللن على فاطرهن، وينطقن بربوبيته بنواطق ما فيهن، من أثر صنعه الذي لا يحمله منصف، ولا يدفعه إلا مكابر مخالف، فذكر الله سبحانه، أنهم كذبوا بذلك بعد بيانه، ودفعوه بعد صحته في عقولهم، وثباته في صدورهم، بآيين البيان، وأوضح البرهان.

وقوله: ﴿كَذَّابًا﴾ فمعناها: تكذيبا وملاّدة وتعطيلًا، ومناكرة وكفرا.

ثم قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، ومعنى أحصيناه فهو: علمناه وحفظناه، ومعنى ﴿كِتَابًا﴾ أي: محفوظا مثبتا، معلوما مبينا.

وإنما ضرب الله لهم بها ذكر من الكتاب مثلا، إذ كان أبين ما عندهم بيانا واضحا، وأثبت ما كان في الكتاب مكتوبا، وفي الصحف المعروفة موقعا، فذلك عندهم أبين ما يعرفون، وأوضح ما يعلمون، وأحصى ما يحصون، فمثل الله عز وجل بها يكون حفظه لما يكون منهم، وإحصاؤه إياه عليهم، بها هو أفضل الأشياء عندهم، وأبينه بيانا، وأثبتة صحة، مما يكتب في الكتب، ويوقع فيها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، يقول سبحانه: فذوقوا ما نزل بكم على فعلكم، وما نزل بكم من الجزاء الوفاق على كفركم.

وقوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يقول: لن تروا فرجا ولا رخاء، ولن تزدادوا بالمكث الطويل في جهنم إلا عذابا وبلاء؛ لأن عذابهم دائم سرمد، وخلودهم في النار دائم أبدا، ومن كان كذلك لم يزد بالمكث في جهنم إلا عذابا.

ثم قال جل جلاله، عن أن يجويه قول أو يناله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، والمفاز فهو: موضع الفوز، والفوز فهو: النعيم والخير والسرور، وقرة العين من المأكّل والمشارب، والمناظر والمناكح والمطالب.

ثم فسر سبحانه ذلك المفاز فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾، وكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿١٥﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿١٦﴾، والحدايق واحدها حديقة، والحديقة فهي: الحظيرة المجتمع فيها جميع الثمار، المأكولات الطيبات، والمياه المشروبات.

﴿وَأَعْتَبْنَا﴾ فهي: الأعتاب المعروفة، التي يغني اسمها عن تفسيرها، لمعرفة الناس بها. والكواعب فهن: النساء النواهد، والناهد فهي: التي قد برز ثديها، وتبين للناظرين في صدرها، الذي لم ينكسر ولم يعمل، فتلك تسمى كاعبا وناهدا، والأتراب هو: الأمثال المشبهات في القد والجسم والصورة والخلق.

﴿دِهَاقًا وَكَأْسًا﴾ والكأس فهو: صَرَبٌ من الأقداح يشرب فيها الماء وغير الماء من العسل واللبن، تكون الكأس من الفضة والذهب، ويكون في الآخرة من ذلك ومن غيره من الجواهر والياقوت الأحمر، والدر الأبيض، والزمرد الأخضر، ودهاقا فمعناه: مملوءا مترعا، فأعد الله ذلك كله للمؤمنين.

ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾، واللغو فهو: الباطل والمحال، والأذى والطرح والمقال، وما يغم المؤمنين سماعه، ويكرهون استماعه، ﴿وَلَا كِذْبًا﴾، والكذب فهو: الخلف للمواعيد، والكذب في الأقاويل، فأخبر أنهم لا يجدون في تلك الدار خلفا لما وعدوا، ولا كذبا لما أملوا ورجوا، وأنهم سيجدون ما وعدوا، ويعاينون في دار الخلد ما أملوا، وأن آمالهم ورجاءهم وظنونهم غير كاذبة ولا باطلة، وأنها لهم على أفضل ما ظنوا، وأكمل ما رجوا، وأوفر ما طلبوا، لم يكذب الله لهم ظنا، ولم يخلف لهم أملا، هذا معنى ﴿كِذْبًا﴾.

ألا تسمع كيف يقول القائل: ظننت ظنا فكذبني ظني، يريد: أملت أملا فأخلفني أملي.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾، يقول تبارك وتعالى: إن ذلك منه كله جزاء للمؤمنين على أفعالهم، وعطاء منه على أعمالهم، المرضية له، المتبعة أمره،

﴿عَطَاءٌ﴾ ومعنى عطاء فهو: هبة وجزاء، ﴿حِسَابًا﴾ يقول: عطاء كثير، إن حسب كثر حسابه، وإن عد لم يحط بعدده، كثير اجسبها، جزيلا عظيما.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (١)، ومعنى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ هو: مالكها وقاهرها، وصاحبها ومقدرها، وكذلك الأرض وما بينهما، ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهو: ما على وجه الأرض من الإنس وغيرهم من الأشياء، وما فوق ذلك من الجن والإنس والسحاب والنجوم في الهواء، فهو: مالكها ومدبرها، ومالك ما بينها، وسيدهما ومليكيها، ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فهو: الرحمن صاحب الرحمة والسلطان، والعظمة والبرهان، وهو اسم من أسامي العزيز الجبار، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا ينالون عنده مخاطبة ولا بهتان، ولا مكابرة وجحدانا، و﴿مِنْهُ﴾ فمعناها: عنده، فقامت من مقام عند، وهذه حروف الصفات يخلف بعضها بعضا، ويميزي بعضها عن بعض، من ذلك قول الله سبحانه فيها حكى عن فرعون اللعين: ﴿لَأَصْلَبَنَّهُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، والجذع لا يصلب فيه، وإنما يصلب عليه، أراد: لأصلبكنكم على جذوع النخل، فقامت ﴿فِي﴾ مقام (على)، وكذلك قامت (من) مقام (عند)، في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، فأخبر عز وجل أنهم لا يملكون عنده قبول معذرة<sup>(١)</sup>، ولا ينفعهم جحدان، ولا يجوز عنده إلا الحق في ذلك اليوم، وهو: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَأُكَةُ صَفًّا﴾، وقيامهم فهو: وقعهم فهم بين يدي ربهم، وانتظارهم لأمر خالقهم، و﴿صَفًّا﴾ فهو: صفوفا، و﴿الرُّوحُ﴾

(١) في (ب): قبول عذر. وفي (ج): عذر معذرة.

فهو: جبريل صلى الله عليه، ﴿وَأَلْمَلَتِكُمْ﴾ القيام، صفا في ذلك اليوم فهم: الشهود والكتب والحفظة على الآدميين ما كان من أفعالهم في دنياهم، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿ق: ١٧ - ١٨﴾، ومن الملائكة الوقوف، ملائكة موكلون بإيصال المثابين إلى الثواب الكريم، وإيصال المعاقبين إلى عذاب الجحيم، وكذلك سائر الملائكة كل منهم واقف ينتظر أمر ربه، معظما لما يرى من فعله.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يقول: لا ينطقون من هيئته، ولا يتكلمون من إجلاله وتوقيره، سبحانه وتقديسه، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ منهم، والإذن هاهنا هو: الأمر من الله له بالكلام بما يأمرهم من توقيف العباد على أفعالهم، ومحاسبتهم على أعمالهم، ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿معناها: قال حقا، من توقيف الحفظة للآدميين على ما كان من فعلهم، وتعريفهم ما تقدم من خطاياهم، التي أحصوها عليهم في دنياهم، فوقفوا من ذلك على الصواب، والصواب هاهنا فهو: الحق في جميع الأسباب، من قول كان أو عمل.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَلْيَوْمَ الْحَقِّ﴾، يريد أي: ذلك يوم حق، معنى يوم حق أي: أنه يوم آت حق، كفلق الصبح لا خلف في إتيانه، ولا بطلان لما ذكر منه، فإتيانه حق، وكيونته حق، وكل ما يفعل فيه فحق لا ظلم فيه ولا حيف.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾، يقول سبحانه: فمن شاء من الخلق اتخذ في دار دنياه، وقبل فئانه وانقضائه، إلى ربه سبيلا، أي: يجده غدا عنده، من العمل بطاعته، والإتياع لمرضاته.

ومعنى ﴿أَتَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ هو: جعل بينه وبينه وُصلة لا تنقطع، وسبيلا يوصله إلى جناته، ويوجب له ما وعد المطيعين من ثوابه، حتى يدخر له بطاعته، واتباع مرضاته، فوزا يؤوب إليه، ويؤوب: ينقلب فيه وإليه، ومعنى ﴿مَثَابًا﴾ هو: موثلا ومرجعا يجده عند رجوعه إلى ربه، وسببا عند الله يصادفه عند مأبى، إلى دار آخرته، يسره المقلب إليه، وينفعه المآب فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، يريد: دانيا قد أزف حينه، وقرب وقته، ومعنى ﴿أَنْذَرْتَكُمْ﴾ هو: حذرناكم، وتقدمنا إليكم، وأعذرنا في قطع الحجة بيننا وبينكم، قبل مَصِيركم إلى العذاب، بتأديكم في المعاصي المهلكات، والمآثم الموبقات.

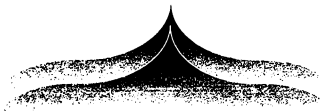
ثم أخبر بوقت ذلك العذاب فقال: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، فأخبر سبحانه أن ذلك العذاب يكون في ذلك اليوم الذي ينظر فيه المرء ما قدمت يده، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، وهو يوم الحشر والحساب، ومواقعة العقاب والعذاب، ومعنى ﴿يَنْظُرُ﴾ فهو: يجد ما قدمت يده، معنى وجوده لما قدمت يده هو: وجوده لجزاء فعله، ومواقفته ومعابنته لصدق ما وعد وأوعد على فعله، مما اكتسبه يده في حياته، وقبل وفاته.

ومعنى قول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فهو: تحسّر منه وتندم، وفرق وهلع، وشدة وجزع، مما يعاين مما أعد الله له من العذاب الأليم، وما يسحب إليه من الجحيم، وما يصب فوق رأسه من الحميم، جزاء على كفره، وعذابا على صده عن طاعة ربه في حياته، فيقول عند معابنته ما يعاين من البلايا: يا ليتني لم أرْد حيا،

ولم أبعث في هذا اليوم بشرا سويا، وكنت في القبر كما كنت ثاويا ميتا، وباليا فانيا،  
ورميا رفاتا ترابا، فيتمنى أنه بقي ترابا رميا، ولم يلق ما لقي من جزاء فعله الردي،  
وعمله السيء ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فنعود بالله من البلاء، ونسأله الرحمة والهدى، والمعونة على أمور الآخرة  
والأولى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الجليل.





# تفسير سورة الإنفطار





## ومن سورة الانفطار

(٣٥٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿

[الانفطار: ١١-١٢]؟

فالكرام هم: الملائكة الموكلون ببني آدم. ومعنى كاتبين فهو: حفظه، وإنما ضرب لهم بالكتاب مثلاً لحفظ <sup>(١)</sup> الملائكة فعال الخلق، فأخبر أن حفظهم في الإحصاء مثل حفظ ما كُتب، وأنه لا يزول <sup>(٢)</sup> عنهم شيء ولا أشياء، وأنه في علمهم وحفظهم عندهم كالكتاب المكتوب، يعرفون كل ما يفعله آدميون، والكاتبون فهم: الذين يعلمون كل ما يفعل الآدميون، فهم الذين قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿(ق: ١٧-١٨)، وهما: ملكان موكلان بكل إنسان، يحفظان ما يفعل ويحيطان، عن يمينه وشماله قعيديان <sup>(٣)</sup>.



(١) في (أ): لحفظه.

(٢) في (أ): لا يزل.

(٣) سقط من (ب): هذان السؤال وجوابه.





# تفسير سورة البروج





## ومن سورة البروج

(٣٥٨) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿بَلَّ هُوَ قُرْءَانٌ مُّجِيدٌ﴾ في لُوحٍ

مُحْفُوظٍ ﴿البروج: ٢١-٢٢﴾؟

والقرآن فهو: القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والمجيد فهو: الكريم العظيم، واللوح المحفوظ فهو: العلم المكنون، ومحفوظ فهو: الذي لا يزل منه قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، قد أتقن حفظه، وأحصى عدده، لا يزل منه زائلٌ، ولا يشتبه منه مشبه، فأخبر سبحانه أنه كذلك في علمه، محفوظ معلوم.







# تفسير سورة الكافرون





## ومن سورة الكافرون

(٣٥٩) قال أبو القاسم الإمام المرتضى لدين الله: سألت أبي الهادي إلى الحق صلوات

الله عليه عن: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ ﴿١﴾ [الكافرون: ١] في من نزلت؟

قال: نزلت في الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميه بن خلف،  
والعاص، عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبدوا ما يعبد، ويعبد ما  
يعبدون<sup>(١)</sup>.




---

(١) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، عن سعيد بن ميناء مولى أبي  
لابخري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميه بن خلف  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشارك  
نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه  
حفظاً وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كمنا قد أخذنا منه حفظاً، فأنزل الله ﴿قُلْ  
يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ ﴿١﴾ لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ حتى انقضت السورة. الدر المنثور ٨/ ٦٥٥.





# مسائل فقهية





## مسألتان عقائدیتان

(٣٦٠) وسألني عن القضاء من الله ما هو؟

فقلت له: القضاء يا بني يخرج على ثلاثة معاني:

فمنها: قضاء أمر وحكم، وذلك قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، يريد: أمر وحكم بأن لا تعبدوا معه سواه.

والمعنى الثاني: بأن يكون القضاء خبراً عما يأتي، أو سيأتي ويكون، وذلك قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤)، يقول: وأوحينا بذلك إليهم وأعلمناهم بها سيكون من أخباركم وأفعالكم.

والوجه الثالث: أن يكون القضاء قضاء حتم جارياً، وفعلًا من الله في كل ما يريد ماضياً<sup>(١)</sup>، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (نصفت: ١٢)، ومثل قوله: ﴿فَبِمَسِّكَ إِلَهِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ (الزمر: ٤٢).

(٣٦١) وقلت: لأي علة بعث الله الرسل؟

فقال: بعث الله سبحانه للرسل ليكونوا حجة له على خلقه، وليبلغهم عنه ما تعبدهم به من فرضه، إذ مفروضاته سبحانه معقول ومسموع، فما كان من المسموع

(١) في المخطوطتين: ماض. ولعل الصواب ما أثبت.

فلا بد فيه من مُسَمِّع يُؤدِّيه، وناطق به عن الله بما فيه، وهم الرسل عليهم السلام، المؤدِّون إلى خلق الله رسائله، والمبلغون إليهم عنه مراده منهم، فلهذا المعنى من تأديتهم عنه بعثهم.

## مسائل فقهية

(٣٦٢) وسألت عن المحيض كم أكثر ما يكون وأقله؟

فأكثره عندنا عشرة أيام لا غيرها، ولا يحل لمن أن يترك الصلاة أكثر منها، وأقله: ثلثة أيام، عند أهل العلم والتام.

(٣٦٣) وسئل عن الصلاة خلف اللاحن الأمي؟

فقال: إذا كان مؤمنا عارفا بالله سبحانه، ولم يكن يلحن في كل ما يقرأ، وكان لحنه حرفا بعد حرف، في السورة بعد السورة، ولم يوجد خير منه لموضعه، واضطر إليه، فلا بأس بالصلاة معه، ولا يجوز أن يعطى على الصلاة أجره، ولكن من كان فقيرا محتاجا أعطي معونة وقوتا لنفسه ولعِيَالِه، على طريق العون لا على طريق الأجرة، لكي لا يموت جوعا.

وقلت: ما الدليل على أن الله خلق الأشياء لا من شيء، أو من غير شيء؟

فإن خلقها من شيء أزلي فقد كان معه في الأزلية والقدم غيره من الأشياء، ولو كان ذلك كذلك، تعالى الله عن ذلك، لم تصح له الأزلية، وإذا لم تصح له الأزلية لم تصح له الوجدانية، وإذا لم تصح له الوجدانية لم تصح له الربوبية، لأن من كان معه شيء من خلقه، فليس برب الأشياء كلها، إذا لم يكن لها كلها خالقا، فمن هاهنا

صح أنه خلق الأشياء من لا شيء، وابتدع تكوين ابتدائها من غير شيء.

(٣٦٤) وسألت عن السارق متى يجب القطع عليه؟

قال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: يجب القطع على السارق في ربع دينار أو قيمته<sup>(١)</sup>.

وقيل: في عشرة دراهم أو قيمتها.

وقيل: إن قيمة المجن الذي قطع فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان ربعاً<sup>(٢)</sup>.

وقيل: قيمته عشرة دراهم، ونختار ونصح في ذلك عشرة دراهم قفلة، وذلك فأصح ما ذكر فيه عندنا من الأخبار.



(١) أخرج البخاري، ومسلم، عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (( لا تقطع يد

السارق إلا في ربع دينار فصاعداً ))، الدر المنثور ٣/ ٧٣.

( انقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيها هو أدنى من ذلك ). أخرجه أحمد ٦/ ٨٠ من حديث عائشة.

(٢) قالت عائشة: لم تكن تقطع يد السارق في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أدنى من ثمن

المجن، نرس أو جحفة، وكان كل منها ذا ثمن.

أخرجه البخاري ١١/ ٨٩، ومسلم (١٦٨٤)، ومالك في الموطأ ٢/ ٨٣٢.





# فهرس الجزء الثاني





## الشهرس

|          |                         |
|----------|-------------------------|
| ٧.....   | ومن سورة غافر.....      |
| ١٢.....  | ومن سورة فصلت.....      |
| ١٩.....  | ومن سورة الشورى.....    |
| ٣٩.....  | ومن سورة الزخرف.....    |
| ٣٧.....  | ومن سورة الدخان.....    |
| ٤١.....  | ومن سورة الجاثية.....   |
| ٤٥.....  | ومن سورة الأحقاف.....   |
| ٥٢.....  | ومن سورة محمد.....      |
| ٥٩.....  | ومن سورة الفتح.....     |
| ٦٢.....  | ومن سورة الحجرات.....   |
| ٧٥.....  | ومن سورة ق.....         |
| ٨٧.....  | ومن سورة الذاريات.....  |
| ٩٧.....  | ومن سورة الطور.....     |
| ١٠٧..... | ومن سورة النجم.....     |
| ١١٩..... | ومن سورة القمر.....     |
| ١٢٧..... | ومن سورة الرحمن.....    |
| ١٤٢..... | ومن سورة الواقعة.....   |
| ١٤٩..... | ومن سورة الحديد.....    |
| ١٥٢..... | ومن سورة الحشر.....     |
| ١٥٧..... | ومن سورة الممتحنة.....  |
| ١٦١..... | ومن سورة الصف.....      |
| ١٦٧..... | ومن سورة المنافقين..... |

|          |                             |
|----------|-----------------------------|
| ١٨٣..... | ومن سورة التغابن.....       |
| ٢٠١..... | ومن سورة الطلاق.....        |
| ٢١٧..... | ومن سورة التحريم.....       |
| ٢٢٥..... | ومن سورة الملك.....         |
| ٢٥٢..... | تفسير سورة القلم.....       |
| ٢٧٩..... | تفسير سورة الحاقة.....      |
| ٢٩٩..... | تفسير سورة ( المعارج )..... |
| ٣١٣..... | ومن سورة نوح.....           |
| ٣٣٩..... | تفسير سورة الجن.....        |
| ٣٤٥..... | تفسير سورة المزمل.....      |
| ٣٥٩..... | تفسير سورة المدثر.....      |
| ٣٧٧..... | تفسير سورة القيامة.....     |
| ٣٩١..... | تفسير سورة الإنسان.....     |
| ٤٠٩..... | تفسير سورة المرسلات.....    |
| ٤٢١..... | تفسير سورة النبا.....       |
| ٤٤٥..... | ومن سورة الإنشقاق.....      |
| ٤٤٩..... | ومن سورة البروج.....        |
| ٤٥٢..... | ومن سورة الكافرون.....      |
| ٤٥٧..... | مسائلتان عقائديتان.....     |
| ٤٥٨..... | مسائل فقهية.....            |

